المركز القومى للترجمة



المشروع القومى للترجمة

لويس سبينس

أسرار مصر

الشعائر والطقوس السرية

ترجمة: علي أمين علي

مراجعة: علاء الدين شاهين

1857



ليس لبلد على وجه البسيطة ما لمصر من سيرة لا تنتهي من الغموض والأسرار، كيف لا وهي ينبوع السحر، فهي عينها بوتقة من الألغاز ومصدر العجائب والأعاجيب في الطقوس الدينية، وفيها منابع الأسرار الخفية والعلوم والفلسفة المستقبلية.
ظل أعتى الباحثين في الطقوس الدينية المصرية لزمن طويل على رأي واحد، يرون فيه مصر مساوية للسحر والعجب، وربما كانت هذه الطقوس لديهم مبعثا لصورة ذهنية شفهية تعوزها الحقيقة الواقعة، ذلك بأنه لا يوجد إنسان على درجة من اليقين حين يتحدث عن الطقوس والعجائب التي احتضنتها جدران المعابد المصرية، وإلى ذلك انتهت كل المساعي وعمليات التنقيب والبحث وسبر الأغوار، انتهت إلى الكهانة الحكيمة.

تصميم الغلاف: نادية كشك

أســـرار مصــر

الشعائر والطقوس السرية

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: 1857
- أسرار مصر: الشعائر والطقوس السرية
- لويس سبينس
- على أمين على
- علاء الدين شاهين
- الطبعة الأولى 2012

هذه ترجمة كتاب:

THE MYSTRIES OF EGYPT: Secret Rites and Traditions

By: Lewis Spence

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

أسرار مصر

الشعائر والطقوس السرية

تأليف: لويس سبينس

ترجمة: علي أمين علي

مراجعة: علاء الدين شاهين



2012

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

سبينس، لويس
أسرار مصر: الشعائر والطقوس السرية / تأليف: لويس سبينس، ترجمة: علي أمين علي، مراجعة: علاء الدين شاهين؛
ط ١ - القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٢
٢٨٤ ص، ٢٤ سم
١ - مصر القديمة - تاريخ
٢- الديانات القديمة
(أ) علي، علي أمين (مترجم)
(ب) شاهين، علاء الدين (مُراجع)
(ج) العنوان ٩٣٢

رقم الإيداع: ٢٠١١/٥٠٥٦
الترقيم الدولي: I.S.B.N - 978 - 977 - 704 - 499 - 8
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

مقدمة

لقد ظلت مسألة التعرف على الأشياء الخفية الموجودة بالأسرار (الطقوس الدينية) المصرية المعروفة والرائعة، إلى جانب دراسة تلك الفترة وإدراكها ومحاولة إعادة التعرف عليها مرة أخرى واستعادتها، تستحوذ جُلّ اهتمامي طيلة فترة تقارب الأربعين عاما، غير أنه فقط في وقت متأخر أدركت أنه يمكن ترتيب وطرح أفكاري المتعلقة بتلك الأسرار بطريقة أقرب للمنطقية؛ والكشف عن بعض غموض هذا الموضوع، لكن الباحث بحكم عمله ومعرفته عليه أن يخترق سحب ذلك الصمت المقدس لموضوع من أكثر الموضوعات غموضا في التاريخ البشري كله للعقيدة السرية.

لعل الأمرين اللذين يضيئان لنا الطريق، ويرشدانا في هذا البحث الذي نجريه، هما ما نطلق عليه الإيحاء والتناظر، ولأن تلك المدرسة المتخصصة في علم الآثار القديمة لا تحجب عن الإيحاء بنفسها، أستطيع أن أقول أن تلك الآثار قادرة على أن تجعل علماء آثار المستقبل يعيرونها اهتمامهم.

إنها ليست مدرسة تجريبية "شريط القياس"، تبني حساباتها دون وعي على مساعدة فلسفة الأرقام التي فقدت مصداقيتها كثيرا والتي شوه بها فيثاغورث الحكمة الشرقية التي لم يفهمها ولو جزئيا، فإن كانت هناك قيمة للمعايير المطلقة، فسوف يكون لعلم الآثار القديمة الذي بني على المسطرة والمزواة قيمة أكبر. لكن المعايير المطلقة والطقوس الثابتة كانت دائما الشارة والعلامة الدالة على روعة العوالم السفلية.

وإن ظهرت تعقيدات في تلك الصفحات التالية، فإنني أتوق إلى الانغماس والدخول بقوة في هذا المجال كوني أعددت الكتاب الأول باللغة الإنجليزية في موضوع معقد ومشوش. وللتجول والسفر واستكشاف تلك العوالم المليئة بالإثارة والغموض ومحاولات التعرف على ذلك ورسم صورة جغرافية له وما إلى ذلك، أعتبره مهمة أرى أنها مساوية على الأقل لوضع خريطة موضحة لقارة مكتشفة حديثًا. حيث تضيء ومضات هنا وهناك لتحدد بعض من معالم الطريق. ولكن إن قمنا بدراسة تلك الأنظمة السرية التي بحوزتنا وتطبيقها على الأسرار المتعلقة بأرض النيل فهل بذلك نكون قد أخطأنا. خاصة عند الاعتراف بأن من وضع تلك الأشياء وعرفنا عليها هم المصريون أنفسهم وعلماؤهم وأهل تلك الأسرار في حينها؟

ولأنني مهتم أيما اهتمام بدراسة تلك الأسرار القديمة المطلقة للأسرار الموجودة في مصر، إلاّ أنني كنت غير قادر على نحو طبيعي على نقل كل تلك الأسرار وصياغتها في مجرد كلمات وعبارات بأكثر مما استطاع أسلافنا وأجدادنا في هذه المهمة، وربما يرجع ذلك لسبب بسيط يتمثل في أنه في أي نظام سري آخر لشخصية تتميز بالذكاء، فإنه من المحتمل فقط أن يتم نقل هذه الأسرار من خلال الإدراك والفهم وليس عبر اللغة وهو ما يوقع الإنسان تمامًا في محاولة الحصول على معلومات تتعلق بتلك الأسرار المطلقة. لا أقول شيئا يتعلق بالملائمة لفعل ذلك حيث إنني – وبالمناسبة – أتمتع بالمقدرة التي لم يتمتع بها أحد لما توفر لي من أسباب. فولوج أي باب من أسرار التقاليد السرية وفهمها يعتمد في حقيقة الأمر على الروح وبشكل متباعد كبعد السماء عن فظاظة الألفاظ المنطوقة. ولكنني استرجعت بالفعل – وفق اعتقادي – طقوس الأسرار المصرية على الأقل في بنائها

العام، كما مهدت الطريق لأولئك الراغبين بصدق في الاقتراب من تلك المـــدارس الغامضة التي تحاول في كل زمان ومكان قيادة النفس البشرية عبر طريق واحـــد إلى إعادة توحيد الله.

وأكثر مما قام به الأسلاف والأجداد قبلي، فقد قمت بتوظيف الطريقة المناسبة للتعلم لدى الإنسان في إثبات الحق والبحث عن الدليل المؤيد بطريقة أهملها الكثيرون عند دراسة هذه الأسرار من قبل علماء مهتمين بدراسة هذه الأسرار، وهم يميلون إلى الرغبة في التعلم، رغبتهم في الوحي والإيحاء لهم. ولكنني أشعر أنني لم أجرد الموضوع من السحر المسيطر عليه الذي يدفعك إلى التعجب وهو السر الحقيقي الذي يكمن وراء افتتان الأشياء كما لو كانت لديها الموهبة، ويتمثل في استفهام مفاده ما هو الدافع والإغراء في البحر ليجذب إليه البحارة؟ ودافع تشتيت ظلال العلم والهيبة التي تقف صامدة كأعمدة صلبة أمام تلك الأسرار العظيمة للروح؟. وللتعرف على كل ذلك وما وصل إلينا سيكون قديما ولهيبا ومشجعا. لكن الإله في عليائه قد اختار أن نحاول جاهدين قدر إمكاننا وأن نستمر في تعجبنا كثيرًا، وأن نستمر في التجديد في المساحة اللا محدودة لعناصر الكون الخاصة به بالشكل المخطط له والبراري والمدن السرية والمنازل المحددة لنا والتي ستحاول تأمين الخلود والأبدية للأبحاث من خلال التلقين والاستكشاف والرضا الأبدي عن ذلك الفضول (الغموض) باعتباره صفة لدينا وهو أمر بشري تمامـــا ونمتاز به نحن البشر ونمتاز به نحـــن البشر، إلا أنه تحقق وفق مبـــدأ القوة الإلهية.

الفصل الأول

تصدير

ليس لبلد على وجه البسيطة ما لمصر من سيرة لا تنتهي من الغموض والاكتناف بالأسرار، كيف لا وهي ينبوع السحر، فهي عينها بوتقة من الألغاز ومصدر العجائب والأعاجيب في الطقوس الدينية، وفيها منابع الأسرار الخفية والعلوم العلمية والفلسفة المستقبلية، وكلها مجتمعات بمثابة كهف غائر من حيث المنبت والأصل منذ بزوغ فجر الأسرار والأسحار المكنوفة بالعجائب والفلسفة الناطقة بالحكمة الرفيعة والأفكار النيّرة التي نظرت لها الأحقاب المتعاقبة بعين الدهشة والإكبار.

لكن أعتى الباحثين في الطقوس الدينية المصرية مكثوا أمدًا بعيدًا على رأي واحدٌ يرون فيه مصر مساوية للسحر والعجب، وربما كانت لديهم مبعثًا لصورة ذهنية شفهية تعوزها الحقيقة الواقعة، ذلك بأنه لم يوجد إنسان على درجة من اليقين في الحديث عن الطقوس والعجائب التي احتضنتها جدران المعابد المصرية، وإلى ذلك انتهت كل المساعي والتنقيب والبحث وسبر الأغوار، أي إلى الكهانة الحكيمة.

بيد أن النور بات يتسلل حثيثًا سابرًا أغوار بعض الظلمات التي تكتنف الفلسفة المصرية، متواكبًا مع شعاع الشمس الذهبي الذي أصبحت الغياهب المجهولة في انحسار أمامه. ورغم أننا لم نكن يومًا على دراية كاملة بيقين، فإن القياس يمنحنا أسباب اختيار المتشابهات، وفي ذلك خطوة للانطلاق من المعطيات والمقدمات التي انتهينا إليها. إننا نعلم أن الطقوس الدينية الإغريقية والإليوسينية

والباخوسية والكابيرية ما هي إلا نتاج لأسرار مصر وألغازها وسحرها، وتعويلا على تفاصيلها وإضافة إلى الدلائل المستقاة من الرسوم والآثار، تمكنا من إعادة تركيب الصورة بقياس موسع للطقوس الأوسيرية والإيزيقة المتبعة منذ فجرها، والتمثيلات الدرامية الداخلة في الألغاز المبحوثة، بل وتابعنا بما يزيد على جهود الحدس بخصوص أسرارها اللامتناهية، راجين من ذلك كله إعادة تشكيل الصورة للسحر المصري وألغازه في نهاية المطاف كما لو كان معبدًا قديمًا دفنت أحجاره ثم اكتُشفت بالتنقيب وأعيد تجميعها في صورة بيّنة.

تمثل الأهمية الفعلية والغرض الحقيقي من بحث الطقوس الدينية المصرية في الإعداد للحياة الأسمى ... حياةٌ ذات وجود روحي أرقى وأسمى بعد الموت. يضاف إلى ذلك اعتبار آخر مفاده أنه في أصل الطقوس ومبدئها تجد القصد أقل سموًا وارتفاعًا، وكان الشكل المبكر من التخصيص الأكثر ميلاً للوجود المادي للجسم النجمي في المرحلة التالية، مشمولاً بالحماية عبر الاتحاد بالإله أكثر منه بالرغبة في اتصال روحي أسمى مع الآلهة. إن المصريين الأوائل – شأنهم شأن الشعوب البدائية الأخرى – آمنوا بأن النجاح في الوجود بعد الموت يرتبط ارتباطًا أصيلاً بمقدار الطعام والشراب الذي تتلقاه القرين، أو الـ"كا" في اللغة المصرية للمتوفي من قبل أسرته، فإن أخفقت الأسرة في إمداد الروح بإمدادات متواصلة من الغذاء والشراب، فإنها ستغدو خطرًا حالاً – ربما على شاكلة أساطير مصاصي الدماء المعروفين في البلقان – يضري على أقاربه من أجل الحصول على الغذاء اللازم للبقاء على قيد "الحياة" في العالم الآخر.

ثم أتت مرحلة لاحقة من الإيمان بفكر أرقى من هذا الفكر البربري (الهمجي)، لكن فكرة الوجوب الحتمي لحصول المتوفى على الغذاء ظلت قائمة حتى النهاية. غير أن أفكار البقاء في فردوس مخصوص وأسباب الفوز بالسبيل الأفضل في ذلك العالم بالسحر إنما واكبت تلك الفكرة. ولما كان الدين في مصر

مكرسًا لا لشيء إلا للأسلوب المناسب لبلوغ فردوس "أعلو" **Aalu** تجاوزًا للأخطار الكثيرة المحدقة بالطريق إلى ذلك الفردوس، وعلى ذلك بدت الطقوس الدينية صراحة غرضًا للتوجيه الأسمى بشأن كيفية الوصول إلى العالم الآخر والاستعداد للحياة الأخرى.

أما الخطوة الدقيقة التي تمكن روح الميت من بلوغ حدائق الخلود (الجنة)، وطبيعة تلك الرحلة، فحفتها درجات من البيان والتوضيح، إذ إنه من الضروري في ذلك المكان الأولي توفير وصف أوفى للطبيعة العامة والمغزى من الطقوس الدينية أكثر من التعامل بتوجه منفصل مع اللحظة الحالية. وحظيت أسباب السحر المحيطة بتلك الرحلة بكتابات مغذية للغموض والتعقيد من الكثير من الكتاب، ولربما كان أقلها احتمالا ما طرحه جيفونز **Jevons** في التعامل مع الطقوس الدينية لمدينة إيليوسينيا الإغريقية، وهو ما مفاده أن أي إنسان يتعامل معها بقريحة تعوزها الذكاء والشمول "سيعاني من عدوى القداسة"، الخوف من الخطر الذي سيخلفه الربط بين المقدس والغامض على كلتا الفكرتين(١).

ومثل هذا التفسير نمطـــــي في أكثر الحجج والتأويلات تعقيدًا وغموضًا، وأكثر طرحها مقرون بالمدرسة البحثية الإنسانية، وليس هذا المنحى مغرقًا في العقلانية فحسب، بل إنه يشتّ في الخيال كذلك، والمسار محل البحث جدير بالاعتبار والنظر كونه يسبغ النظرة "العلمية" بهذا المقدار من التوجه المعهود. يرى جيفونز لدى تعامله مع التحول في هالة القداسة لدى إلهة الزراعة الإغريقية الإيليوسينيـــة صـــوب "لغز" أن العلماء المحـــدثين أولوا اليسيـــر من الاهتمـــام لهذا الجانب:

---

(١) **Introduction to the history of religion** مقدمة لتاريخ الدين ص ٦٢-٦٥

لعل هذا الاهتمام الضئيل بهذا الجانب المهم راجع إلى الرأي السائد طويلا منذ زمن – لكنه يتلاشى اليوم – الذي يفيد بأن السمة الأبرز للطقوس الدينية كانت السحر، وأن أهم المشكلات كانت سبر أغوار أسراره. وساد افتراض بأن الحكمة الخفية والعقائد السرية كان تنتقل من كاهن لكاهن في أجواء من التواصل المسبوق بقطع عهود من السرية، لكن الألغاز والخفايا لم تكن بدورها تجمّعات سرية، بل كانت مفتوحة للجميع دون تمييز، وكان من الممكن تدشين التعريف بها كلها في كل الأوساط والمستويات على تباينها. لم يُحدِث الكهنة منظومة ذات هرمية سرية، بل كانوا مواطنين منكشفين على من سواهم دون تعالٍ أو أثار من فوقية في التعليم أو المكانة السياسية أو الاجتماعية بما يتيح لهم الاستئثار بأي معرفة دينية رفيعة[1]، أضف إلى ذلك – كما أسلفنا – أن العالم الإغريقي كان منفحتًا لاكتساب كل ما تراءى لهم تعلمه. بيد أن الكهنة لم يكونوا وعاظًا أو معلمين، ذلك أن واجباتهم الرسمية تمثلت في معرفة الطقوس التقليدية وأدائها. أما بالنسبة لمذهب اللاأخلاقية والمباركة المستقبلية للمشاركين في الطقوس الدينية، فلم يوجد أي تعتيم أو تعمية من أي نوع، فبندار وإسكيليس وسوفوكليس يشيرون إلى ذلك صراحة، فيما يتهكم أريستوفينز عليها، أما التراتيم الهوميرية لديميتر – وهي التراتيم التي كانت مظهرًا من المظاهر العامة إن صح القول – فتشير بدورها إلى الشيء ذاته صراحة وعلانية. ومن ثم، فإنه من غير العجيب أن نجـد عدم اشتراط قسم السرية على المرشح للوسط الكهنوتي".

---

(١) ليس الأمر كذلك كما سنرى فيما بعد، فالكاهن كان يتم اختياره.

إن السبب الحقيقي للسرية – كما يفيد جيفونز – لم يكن الرغبة في الحفاظ على سرية الطقوس الدينية واستعصائها، بل كان "الخوف من الخطر الذي سيخلفه الربط بين المقدس والغامض على كلتا الفكرتين"، علمًا بأن الصمت الملاحظ بعد الانضمام لم يكن بدافع السرية والإخفاء، "بل لمنع انتهاك الحرمة وما يترتب عليه من أخطار"، كما أن السرية التي اكتنفت الاحتفاء بالطقوس الدينية كانت "عارضة وغير مقصودة لأغراض السرية والكتمان"[١].

لكن مبدأ "العكس الصريح هو الحق الصحيح" واضح وجلي في طرح الكثير من الكتاب الذين انضموا بأنفسهم إلى ممارسة الطقوس الدينية، فهذا هيرودوت يذكر صراحة أنه "من المخالف لصحيح الإيمان بالنسبة له أن يكشف الأسرار، وأن تلك الطقوس الدينية – كلها دون استثناء – معروفة له، بيد أن شفتيّ تحرسان السكون الديني". ولنسلط الضوء على كلمة "الديني"، فهي لا تنضوي بالضرورة على خطر التدنيس أو انتهاك الحرمة، وإنما تشير بقوة إلى شيء أخطر وأنكى في نتائجه – ألا وهو الخوف من استنزال سخط الآلهة بالكشف عن الأسرار التي اختاروا عدم الإفصاح عنها إلا للمؤهلين والمستغرقين في العلوم الدينية والعقيدة، لا طرحها على العامة دون تمييز. يضاف إلى ما سبق النقمة التي صبها العامة على إسكيليس وأريستوفينز لكشفهما عن الأسرار المرتبطة بالطقوس الدينية الإغريقية في أعمالهم.

وفي سياق مماثل، تعرض الكهنة القائمون على حفظ الطقوس الدينية لعقيدة جوروباري **Jurupari** على شواطئ نهر يوبيز في البرازيل للتشهير والتعريض جراء عرضهم مآثر الممارسات التأليهية على يد مبشرين فرنسيين، حتى إنهم قرروا ذبح كل امرأة بلغت العاشرة في القبيلة كون أسرار جوروباري محظورة على النساء. أما السبب المسوق في هذا الصدد فهو أن جوروباري كان "غاضبًا"، لكن مسألة التدنيس لم تكن واردة، كما أن رموز الأسرار الخفية للإله قد كشفت،

---

(١) Introduction to the history of religion مقدمة لتاريخ الدين ص ٣٦٠

ومن "الطبيعي" أن يسخط لذلك أيما سخط، ذلك أنه كان من المجافي للصواب إطلاع من لم يُقدّر لهن الاطلاع على تلك الرموز المقدسة لقدسيته[١].

إن الطقس الديني السري - كما يستفاد من اسمه - مستوجب للامتثال كون الحقيقة واجبة القداسة والترفع عن التدنيس الماثل في إعلانها على الملأ والعامة، فإطلاعهم على قدس الأقداس رمي إلى النزول به لمستوى الممارسة اليومية المعتادة، بل وخلع أهمية أوسع نطاقا على أهميته الرمزية كان ذلك القدس في منزلة أسمى وأرقى منها بسريته، وفي ذلك جريمة واقعة بيّنة، وجرم في حق الروح القدس، وحط من قدره بافتراض أن التجسيد المادي له ما هو إلا عين كنهه التجريدي. ولعل عدم قدرة العقول البسيطة أو المستذلة على إدراك الفارق الأساس بين الرمز والحقيقة التي يصورها إنما هو من الأسباب الفعلية لإخفاء الطقوس الدينية السرية[٢].

في الأسباب السالفة على وجه الدقة يكمن بيان العلة في سعي العقلاء على مر العصور لستر تلك الحقائق السامية اللطيفة والمثل الراقية عن الفاسدين والجهال، فهي المكنونات التي يسفر النظر فيها وحدها عن السمو ببني البشر إلى مستوى يعلو منزلة سكان الأرض. قلة هم من عرفوا السبيل إلى معرفة تلك المكنونات بلا عون أو اعتمادًا على دراساتهم وتأملاتهم، رغم أن كل جيل من بني الإنسان يولد فيه من اقتربوا لمسافة معروفة - بفضل ذكائهم الخارق وسماء أرواحهم - من بوابات تحرس الأسرار، بل وتجاوزتها. لكن العبقرية في تلك المعارف إنما هي تراتبية ترابطية بلا جدال، ذلك أنه كما لا يستطيع إنسان أن ينجح في الإحاطة بالعلم - نظريًا كان أم تجريبيا - فإنه لا يمكن لأحد أن يعرف ما

---

(١) انظر مقالتنا بعنوان (Jurupari) المنشورة في (Hasting's Encyclopedia of Religion and Ethics).

(٢) فهم قدسية الرمز شيء أساسي لمسألة الارتقاء والسمو الحقيقي كما سنرى.

يزيد عن الإدراك العام لذلك العلم الأسمى الذي يُلتجأ إليه لغياب لفظة أفضل من "السحر" أو "الفن العظيم".

وقد تغلغل هذا الفن في الطقوس والمراسم في التعبد بمصر، فمن يشكك والحال هذه - إلا من أعماهم الغرور والحماقة والعوالم الصغرى والكبرى بتداخلاتها المربكة - في ذكاء الروح في تجسدها على الأرض؟ وكما هي الحال في الممارسات اليومية، نجد رجالا بالآلاف يمكن ملاقاتهم ينتهكون - عن عمد وبلا تورع - وينكرون المواهب الخارقة في الموسيقى والشعر والحس الفني، متحدثين بلغة ساقطة مع مديريهم ومحقرين شأن تلك المقدسات وصولا إلى استخداماتهم الشخصية الدنيئة التافهة، كذلك الحال في عالم "السحر" بطبيعته الأسمى التي لا تشكل منها تلك الفنون سوى ظلال وفروع، إذ نجد الكهنة المزيفين الأدعياء على علوم حديثة زائفة يُسلمون أنفسهم لاختبار الماديات وحدها، مغفلين تمامًا كل ما هو سام وروحي، وهذا المغفل في الواقع محل احتقارهم وكراهيتهم نظرا للطبائع المانعة المتأصلة فيهم. وعندما يصل تاريخ القرن المنصرم لمرحلة التدوين، فإنه لن توجد مخطوطة تأريخية - على الأرجح - بهذا الوجه الكئيب في صفحات تاريخ العالم تضاهي هذه المرحلة في أطوارها التي شهدت إقدام البشر - في هرطقة حمقاء - على التنحي عن النظر في الكون كلغز عام، بل وعزموا على النظر إليه من منظور المادة وحدها. لكن ردة الفعل على هذه الهرطقة لا يكمن أن تظل بعيدة، وهي تنذر بعصر أرقى من الفهم وخضوعًا أوسع نطاقا في صورة تحديات لأبراج قلعة العلم المتهاوية القائمة على رمال من عنصر المادة الملموس التي سيثبت أنها الأهون والأوهم بين كل عناصر الكون.

في هذه الهاوية من الخطايا لم يكن لكهانة مصر أن تنحني للسبب الذي جمعت له العلم والمعارف الحقيقية وفهم خوارق الطبيعة، علمًا بأنها لم ترتكب الخطأ الذي وقعت فيه الكثير من نظم الاستبصار الروحي المعاصرة،

ألا وهو الإقدام على الإهمال الكامل للعلم، عارفين أن العلم هو صناع "السحر" وقرينه وضرورته.

ولكن العقل المنفتح وحده يمكن أن ينتهج طريق المبتدئين في تلك الأسرار. حقًا إن توماس تايلور الذي يتبع المنهج الأفلاطوني قد أوضح ذلك كثيرًا عندما قال: "يمكنني أن أثبت أن مراحل التطهير المختلفة الواردة في هذه الشعائر الدينية، وفقا للإطلاع والتحقق، تعتبر رموز تدرج الفضائل الضرورية لعودة الروح. والجزء الأول من الاقتراح فعلاً يحترم مراحل التطهير وينشأ من شهادة أفلاطون في الفقرة التي وردت والتي أكد فيها على أن الشكل النهائي للأسرار يعيدنا إلى المبادئ التي استقينا منها في الأساس. فإن كانت الأسرار رموزًا كما هو مسلم به عمومًا فإن ذلك بطريقة ما يعتبر صحيحًا كجزء من الأسرار، وكطهارة داخلية يكون فيها الشكل الخارجي رمزًا، يمكن الاعتراف بذلك فقط عبر ممارسة الشعائر ومن الواضح بعدها أن تكون مراحل التطهير رموزًا لتطهير الشعائر الأخلاقية. والجزء الأخير من الاقتراح يمكن التعامل معه بسهولة من الفقرة الموجودة فعلاً في كتابات أفلاطون والتي يقارن فيها الإطلاع والتحقق للرؤية المباركة للطبيعة الواضحة وهو توظيف يمكن أن ينتمي وحده إلى طاقات الفضيلة التأملية".(١)

وهذا أمر لا جدال فيه يتضح من لغة الكاتب في تعليقه على أفلاطون وهو يقول "إن الطهارة العامة يجب أن تكون أولاً وبعدها تكون الأمور الأكثر سرية. ولكن في المقام التالي يتم تلقي مجموعة أشياء متنوعة تصب في شيء واحد، وبعدها يكون التحقق. ومن ثم تكون الشعائر السياسية والأخلاقية متشابهة في مراحل التطهير في الأمور الظاهرة (أو العامة). لكن بعضًا من الشعائر السهلة

---

(١) Dissertation on the Eleusinian and Bacchic mysteries رسالة حول الأسرار الباخوسية والإليوزينيـة ص ٧٨-٨٠.

تتخلص من الانطباعات الخارجية وتتطابق مع مراحل التطهير الزائدة. وجدير بالذكر أن القدرات النظرية حول الأشخاص غير الجديرة تعتبر متشابهة لتلك المجموعة ولكن تقلص هذه القدرات لتكون طبيعة غير مقسمة أمر يتطابق مع الإطلاق والبدء. والتحقق الذاتي البسيط للأشكال البسيطة هو أمر مشابه كذلك للنظرة العامة".

من الواضح أن الأشياء المذكورة أعلاه تتطلب بعض التفسير والتأويل نظرا لحالة الغموض التي تكتنفها ولبس اللغة المستخدمة. فمن السهل أن نفهم أن النوع الأول للطهارة يشير إلى "الطهارة العامة" حيث يتعلق بشعيرة الطهارة والتنظيف العام للجسم، بينما يتعلق النوع الأخير بالطهارة السرية أو"الغامضة" للنفس عبر التخلص من المعتقدات والأفكار الشيطانية. فتعتبر "مجموعة الأشياء المتنوعة التي تندمج في شيء واحد بالأحرى مصطلحا فلسفيا غير ملائم لطبقه المفكرين الإغريق بقصد التبسيط، مما يعني أن جميع الطقوس والاحتفالات مرت دون إعادة تلخيصها ومراجعتها، إلا أنه يتم التحقق منها بشكل عام بالتعرف على تأثيرها على الفرد ومدى استفادته منها.

وقد علمنا كذلك أن "الشعائر السياسية والأخلاقية متشابهة في مراحل التطهير في الأمور السائدة/ الشائعة". وهو أمر مبالغ فيه أن تقول إن تنظيف العقل والروح أمران يتم تنفيذهما بنفس الطريقة التي يتم بها تنظيف الجسم فيما عدا أن ذلك يتم على مستوى أعلى وبطريقة رمزية. وكلمة "مجموعة" هي تجميع الأفكار(١) بشكل فلسفي وهي متشابهة للمراجعة والشمول العلوي والسامي ويجب التعامل معها للتعرف على كليهما، على الرغم من أن السبب الأعلى ضروري بشكل طبيعي لشمول مسألة علو المقام الزائد. والتقليص أو التلخيص لهذه الأفكار

---

(١) وعرض الرموز المقدسة.

لتكون في فكرة واحدة أمر يتطابق مع الإطلاق وهو المهمة الكلية للبدء هي الفهم المناسب لحقيقة واحدة. وبالنسبة للحقيقة العظيمة التي تتضمن الحقيقة الكاملة فإن كل الفهم والإدراك وبمجرد الكشف عنه يمثل الأدوات الكاملة للحكمة الإلهية والتي تصبح أصل الإطلاق.

وجدير بالذكر أن أسياد الأسرار المصرية كانوا فعلاً محظوظين بشيء واحد وهو أن نظريتهم اللاهوتية كانت مجهزة ومستعدة أكثر للمعرفة والسمو من تلك الواردة من مدارس أوروبا خلال الخمسمائة عام الأخيرة. وذلك لكونها بسيطة ومتعلقة بالشكل الأولي للدين أو المعرفة الإلهية وهم قادرون بشكل أفضل على إدراك التوجه والمبادئ غير الملوثة للتواصل بين البشرية والألوهية. وبالفعل فإن الطلاب المعاصرين للأديان الحالية هم بطبيعة الدراسة أكثر حظًا من ناحية تقدير التساؤل الكبير للمشاركة الإلهية أكثر من العلم اللاهوتي المجرد. الذي يتم الاطلاع عليه بشكل غير كافٍ بالأفكار الأولية لفكرة الأديان. ومن خلال اعتبار الانطباعات الدينية الأولية فإننا ندرك المعنى الحقيقي وأهمية كل الأديان أكثر من التأملات في اللاهوتية المتقدمة والأكثر ابتذالاً والسطحية والجدلية. بالفعل فإن علوم الدين تقضي على ذاتها وتنكر كل طرق العلم الحقيقية عندما تستمر في اعتبار المادة من أساس التعامل الديني العصري والفلسفة الكاذبة وحدها بغض النظر عن مراجعة الحقائق الدينية الفعلية للدين القديم.

وفي حالة حدوث خطأ فإن الكهنة المصريين يكونون عاجزين ليس فقط بسبب جهلهم المغالطات الحديثة، ولكن خبرتهم واستعمالهم لم يفقد مع مرور الزمن هذه الطرق المباشرة والبسيطة والحقيقية للتواصل الإلهي التي تكتشف النواحي المضيئة المتقلبة للأشياء المقدسة. خاصة كما تم الوصف مسبقًا في الممارسات البطريركية الدينية. بالنسبة للرجل البدائي كان الإله أكثر حقيقية من الحقيقية التي بدا عليها لأتباعه. والتجاهل الحديث للأشياء الإلهية يرجع تمامًا إلى ارتباك الأفكار

التي تعتبر لاهوتية عند الضرورة، وعلمًا قادرًا على إحداث تقدم وترقية بالمعرفة إلى جانب إهمال الطرق المنسية وغير المستخدمة بالعصور القديمة في الإدراك والفهم والعمل والتواصل مع الذات الإلهية. ويلاحظ أن الارتباك الزائد الاجتماعي والأخلاقي بالعالم المعاصر هو نتيجة الجهل وإنكار المشاركة الإلهية والتبعية الشخصية مع الخالق، حيث يكون العالم الأولي مدركًا كما لو كان يمنح البشرية وجودًا أكثر تأكيدًا للفكرة والتنفيذ أكثر من أي شيء آخر.

إن كان هناك أحد الظروف الواضحة أكثر من أي ظرف آخر فهو أن الإنسان البدائي لم يكن على صلة شخصية كبيرة مع الإله الخالق، ولكنه استخدم بشكل كامل كل تعليماته في حياته اليومية. فهي تحكم كل أفعاله واعتباراته بشكل لا شعوري. وبعد العصور الأولية البدائية غير الواضحة فإنه طور مفهومًا واضحًا تمامًا مفاده أن الكون العلوي أو الروحي في مراحله المختلفة بعيد تمامًا عن المادية والاختراق الداخلي وهو مظهر أعلى، لذلك لا يحدث ارتباك فيه. وأصبحت أبوية الإله مدركة تمامًا. ولقد أوضح أندرو لانج **A. Lang** بعد ذلك بشكل حاسم أنه بمعزل عما سبق وفيما وراء الخرافات والأوهام المادية الحيوية والرموز المقدسة وفكرة العبادات الأقل فإن الأشخاص الأوائل كان لديهم تصور طبيعي واضح ومتميز ودقيق بشكل طبيعي "العظيم ليس آدميًا طبيعيًا" والبعض قد أدركوا أنه كخالق إلهي "إله الآلهة جميعا".

وجدير بالذكر أن الحقيقية تمثل ذلك المفهوم الأصلي المبني على الفهم الفطري والمتأصل، وهي تكمن في أصل كل المعرفة الدينية والمعجزة وفي أساس المسيحية ذاتها. وبالنسبة للإله على أنه "إنسان" أي أنه مجرد إنسان يتمتع بصفات الإله، حيث يكون الاثنان واحدًا لا يتجزأ من ناحية الوجود، كبير وصغير، وجود كلي وجزئي للروح العظيمة التي تدرك كل شيء، فجميع الأشياء بالنسبة لها واضحة ومرئية. تمامًا كالحرارة بالنسبة للنار تنمو وتخبو وترسل تأثيرها عن

مركز اللهب وهذا هو الإنسان بالمقارنة مع الإله. والحقيقة البسيطة هي أكثر حسمًا وتأثيرًا من التفاف هذه النظرية اللاهوتية؛ لأن المعنى البسيط يُفهم جيدًا من الكهنة المخلصين والمتعلمين في مصر، كما تثبت ذلك النقوش والنصوص المكتشفة. وذلك يتضح فقط حين تم تخفيض درجتهم وتدنيها من خلال التوسيع غير الضروري وغير اللازم للفلاسفة الكاذبين الذين تم نسيانهم أو على نحو ساخر تم تنحيتهم جانبًا تمامًا كتخيلات الطفولة في العصور الأولى. والوحي والقوة الكاملة للمسيحية هي محاولة لاستعادة ذلك كله.

وأعتقد تمامًا أن ذلك يمثل تدخلاً مباشرًا من التفكير الكبير لتصوير الإنسان إلى إدراك حماقته في كسر كل ذلك وشقائه في جعل ما هو سماوي مقدس أرضيًا، مما يجعل تواصل الإنسان مع الرب من خلال تلك الوسائل السماوية من أسباب سعادة الإنسان في هذا العصر. وكل العقيدة المسيحية ومع كل التوقير فإنها توضح تمامًا هذا المعنى. واستعارة سقوط الإنسان والحاجة الأولية للانبعاث الروحي والحاجة إلى التواصل الثابت هي أمور أسطورية، ليس فقط للراحة في التواصل الإلهي ولكن لتوضيح الحاجة إلى استعادة هذه العمليات التي كشفتها الأسرار وغرست الأعمال السرية التي يتصل بها الإنسان روحيًا وشخصيًا مع خالقه والنموذج الأصلي ومن خلال القوة التي يأمل في النهاية أن تغرس فيه بعد الانفصال الناتج عن العوائق المادية التي تتقلص بالموت.

ولعل ذلك كما لو ذهب القول إلى أن المسيحية في ملمحها الأعلى هي بالفعل استعادة واستمرار الأسرار. فهل هي غير واضحة فعلاً في القصة الرمزية المسيحية؟ ألم تذهب إلى الجحيم أفكار الانبعاث والتجدد الإلهي للروح والتصاريح القوية وكلام الأسرار التي قد يتخيلها العقل؟ ومن الأمور العقيمة تمامًا أن تصف الأسرار المصريين أو اليونانيين على أنهم "وثنيين" على الإيمان بالمسيحية بالحس الصوفي والغامض وكأنها في تماشٍ مع الهبوط والتطور بالأنواع المذكـــورة.

وهذا الأمر يؤسس لنظام أكثر نبلاً وأكثر عملية للإجراء والأخلاقيات كما هو معترف بها، ولكن لنتذكر ذلك في الوقت الذي ننحي فيه الخرافات الدينية التي تتابعت، وبعد كل هذا، من المصدر العام ووجود اتصال بسيط مع الأفكار السامية المغروسة في الذهن من خلال الكهنوت الورع المصري.

هذا وقد أدرك السيد موريت **M. Moret** عالم المصريات الفرنسي الجنسية الطريقة الحقيقية للاجراءات التي من خلالها أثر سحر مصر علي ذلك المرتبط بالمسيحية، وانعكس ذلك في صفحات مؤلفه المعنون: ملوك وآلهة مصر[١] حيث يقول: "ناشدت العقيدة الإيزية بشدة البشر من خلال دعوتها المباشرة للفرد. وقد تعذر على الدين الروماني الرسمي والضعيف ومكتب الكهنوت الرسمي ربط الإنسان مع الإله فقط من خلال وساطة كهنوتية، وتعذر تنفذ ذلك مع الارتياح القلبي أو إثارة الخيال أو الخوض في أعماق التعصب. ولقد فسر أتباع إيزيس المنتشون عند قدم المرأة الإلهة الوحي ليس من خلال الكلمة بل الروح وذلك وفقًا لاحتياجات القلب في تورد الإيمان. من ذلك اليوم الذي انبعثت في الصوفية. وأصبح لإيزيس الكاهن الخاص لها؛ والإله لم يعد بعيدًا وأصبح الوضع على العناية الإلهية البعيدة مما يعني تنازل معكوس معه وهو ما يعتبر بمفهوم أن الصديق الوصي إضافة إلى كونه شعارًا للجمال والمتعة للأبد". وكل شخص "يعرف" الإله أبًا للجميع ويستمر في فعل الأشياء الجميلة بالطريقة الخاصة به.

"والصوفيون أتباع إيزيس هم في الوقت ذاته الزهاد. وللتعرف على الإله يجب أن يعيش الإنسان بوقار وبساطة واحتشام، بل ويزهد في أشياء عديدة تنتمي لهذا العالم. وجدير بالذكر أنه على النقيض تمامًا تكون الفلسفة اليونانية التي علّمت الإنسان أن يعيش حياته (كاربي ديم **Carpe diem** وهي كلمة تعني استمتع بيومك)

---

(١) صفحات ١٩٧-١٩٨.

بل وتطلب الأشياء الجيدة على الأرض وفقًا للعقل والحكمة والاستقامة. وقد يشار إلى الأسرار الشرقية كما قال سيسيرو وغيره، على أنها لهفة للعيش وللاستمتاع بمباهج الحياة. تعد إيزيس لوكاس بأنه سيستمتع بالسعادة لفترة طويلة. لكن السعادة الدائمة هي هبة الحياة التالية وهي الأمل المعقود للمسيحيين بعد ذلك. ومن خلال التأثر بالأديان الشرقية ظهرت شخصية جديدة ترضي ما يطمح إليه البشر. وتعتبر الحياة جذابة ومرغوب فيها في ذلك الجسد الفاني وهي مرحلة إعداد فقط ومرحلة على الطريق للموت. ويتغلب الإنسان للأبد على خوفه بالمجهول. وما هي إلا خطوة واحدة فقط وسوف يستخف بكل متع الحياة وتثبت عيناه على رؤية النعيم الدائم الموعود من المسيح!".

ونظرا لعدم الوعي بالقوة والذات الإلهية، تم الاعتقاد جزئيا وليس كليا بنهاية النوع البشري، وبقاء من يستطيع التواصل مع تلك الذات لامتلاكه لأسباب خارقة للطبيعة ومعرفة غريزية وإيمان بالقلب بقوة البشر، بل واعتقد بالعودة إلى هذا العالم مرة ثانية. ومثل أولئك الناس الذين يبحثون عن فن جديد أو قانون للرواية حيث لا توجد مؤسسة تحفظ ثقتهم وإيمانهم، فلقد كان لكل ذلك ظروف قهرية أجبرت على النضال عبر ظلام وكآبة العصور المميتة غير الرحيمة والتي كان يرشدهم خلالها بوادر آمالهم وبديهتهم الخاصة.

لكن أشعة الأمر الجديد الذي يضيء لنا الطريق في السنوات الأخيرة سقطت على المسار، فثمة ضوء جديد الآن يضيء لنا إيمان ذلك العالم القديم، بداية من عمل طلاب الدين المقارن وعلماء المصريات والمؤرخين نافذي البصيرة وعلماء الآثار والمنقبين الذين اكتشفوا وفسروا المخطوطات والنقوش الأثرية المفقودة، فكل هذه الأشياء لا يمكن فهمها ولكنها المزيد من العوامل الإلهية التي قصدت أن تعيد للعالم الحكمة القديمة التي طال إهمالها. فمن النادر جدا أن يعير الناس أهمية للطبيعة الحقيقية وأهميتها التي تم إخراجها من الظلام أو من المخاض لتكون

واضحة، بداية من التقاليد والمعتقدات الخاصة بأولئك البشر البدائيين الذي ما زالوا يمتلكون في بعض الأحوال أصل السر العظيم. فمن خلال الجهود المتواترة غير الرشيدة للعاملين المحدثين في مجال الفلكلور والعلوم المساعدة له، أخفيت الطبيعة الصادقة للدين وجذوره الحقيقية وأصل الأسرار – ليس فقط التي كانت قادرة في معظم الحالات على تحقيق طبيعة اكتشافاتهم ولا التي امتلكوا البصيرة على إحالتها إلى الاحتياجات المهمة للبشرية أو أخذها لتعتبر مفاتيح لحكمة الماضي المفقودة. ولكن لم يعد الإنسان يتمتع بالإيمان والبديهة للالتماس في الطريق المرسوم بمساعدة أدوات الإضاءة وحدها للنظام المرتب لاكتشاف الحديث ونتائج الدراسة الموجودة عند التخلص من التأمل بمقدار البيانات المتعلقة بالبداية وممارسة السحر الذي يتم إدراكه تمامًا من خلال الغريزة وحدها. وفي الفترة عندما بدأ هيرودوت في دراسة أسرار المصريات طرأ تغيير كبير في ممارسة الأوصياء والشعائر التي يؤدونها بالمقارنة مع ما تم التعرف عليه في أوقات سابقة. ويعتبر ذلك واضحًا بشكل جزئي من مقارنة تصورهم وإخرنفرت المصري منذ عدة قرون كما سنرى. والحقيقية أنه من الواضح كمراقبين معاصرين وطلاب فإن السحر يميل إلى الانحسار تمامًا كالدين في بعض الشعائر والطرق. وبمجرد التوصل إلى وصفة محددة للتوسل والصلاة يكون السحر فعالاً في حالة واحدة ويفترض أنها فعالة في كل الأحوال. ليس كثيرًا لنبرة الصوت التي يتم التلفظ بها حيث تتكرر الإيماءات المصاحبة على نحو تحكمي أو الفعل أو المطلب أو السحر بل وتظل إمكانية فشل الغرض المخصصة من أجله قائمة. والإنسان بدون سبب هو الأساس ويقع بسهولة كبيرة في الخطأ ويكرره على نحو مثير وتافه. وفي كل الأحوال فإن الأكثر احتمالية للأسياد الأوائل يصرون على أن التابعين يجب أن يصروا على توظيف الوصفات الشخصية والكلمات المتنوعة والأفعال التي تأسست لتكون الفضيلة والفعالة. وهذا الإجراء له عواقبه الطبيعية كذلك. وقد أسس الشعيرة الرسمية والتي

هي في وقت ما جمعت لتنمية الحياة المقفرة والتي ليس لها معنى والتي تكون فيها الروح مفعمة بالحيوية والتي تتلاشى فيها الجاذبية الأصلية. وأعتقد إن لم تكن راديكالية فإنه من غير الذكاء أن تفترض مجرد افتراضية أن الشعائر الثابتة ضرورية بشكل مطلق لفعالية السحر أو الجاذبية الدينية أو التعهدات والالتزام والتعهد. ولتحديد ذلك على أنه ضروري مع السحر وفقًا للخطوات الذاتية للعلوم والدراسة، حيث تكون الأسباب ذاتها معروفة للخروج بالنتائج ذاتها. ولكن وكما أعتقد لا توجد تجربة مماثلة قد أصرح بها على أنها مهمة تبعًا للشكل التجريبي. بل إنه من الجحود الدلالة على النزعة لإجبار السلطة الإلهية لإجراء محدد تم التعرف عليه لأي حدث وأعتقد أن القبول الأعمى لهذه النظرية اللاهوتية وأن النظرية هي .سمة وعلامة السحر الأدنى لتكون سببًا مساعدًا إن لم تكن الوحيدة للخسارة والاختفاء العام للأسرار من الحياة الخارقة للطبيعة البشرية. وتنمو الشعائر بشكل مبتذل وتنحل في لغة غير مفهومة، لغة تكون صياغتها قديمة وغير مستخدمة ومبهمة؛ ويكون جانب التحرك فيها مهمًا جدًا، فتجد أنها تغرق في مستنقع وتفقد رنتها وكأنها هراء مشعوذ جوال.

دعني لا أقع في خطأ. فبالطبع أنا لا أعني أن أخمن أن الخبرة الناتجة عن التقدم في السن توحي بتجربة مفادها أن الأشياء الشبيهة يجب تركها في مسار معروف جيدًا. الرمزية أيضًا هي في الحد الأدنى تدوم كالأفكار العميقة والتي تولد من جديد إن تمت الاستعانة بها في الاستعارة، وإن نقلت فكرة حقيقية بشكل كافٍ على نحو عميق. وهي حقًا الطريقة بل والطريقة الوحيدة لنقل الأفكار الغامضة. إلاَّ أنه يجب ترك الأمر للفردية بالسحر. تمامًا كما في عالم الخطابات حيث نقول "النمط هو الإنسان"؛ لذا فإن في السحر توجد فصيلة محددة ونكهة معينة من الشخصية يجب أن تدخل بشكل محتوم بالفعل وتستأنف أو تأخذ مذهب فعال. وليس كثيرًا أن الروح الفردية الكاملة لصاحب المهنة يجب أن تأخذ المنحى العملي.

يُعتقد أن الأمر يتعلق بالنية التي تنقل الأمور المطلقة إلى الواقع العملي بتطابق مع رغبات الإنسان وليس أفعاله ولا أقواله أو حتى إيماءاته. ومرّة أخرى يجب ألا أخطئ، فليس لدي خبرة عملية تضللني، كما سيفعل هو، والقيمة العليا للوحي الإلهي والقول الصحيح أنها تعبر عنه هو نفسه. وتعتبر شعيرة الأسرار، الدنيا تعتبر غنية بالأفعال والفصول والخطب المثيرة والتي لديها منطقها العقلي الغريب وقيمتها الإعدادية الجسدية ويجب أن يكون ذلك المصير المحتوم غير قابل للتحدي. يجب على الشخص ألا ينحي المطبوعات لمجرد المجاز والأقل ضرورية للسبب الجيد والذي لا يمكن أن يتنحى بسبب مختلف الحالات الاستثنائية.

ولكن وكما أكدت فإنه يعتقد أن الهدف والغرض الذي يرجع إليه الغموض الحقيقي والفطري هو في الأساس السحر. ولا ينتج في بعض الأحوال عن السحر شيء أكثر من مجرد التعبيرات المنمقة والمثيرة وحدها والتي هي بالفعل تعتبر بخار ولون الخمر إلاّ أنها لا تمثل العلم اللاهوتي ذاته. ولإثارة وفعل الحقيقة المطلقة في مصلحتها وإن تم استخدام بعض هذه المصطلحات للروح العليا والإله والقوة الخالدة فإن الجوهر المنقول للتحدث يجب أن يتمتع وفقًا لبعض المقاييس والتشبيه بالذات الإلهية بكافة الصفات الأساسية والفضائل أو ما قد ترغب فيه لتنجذب إليه أو تكون جزءًا منه. وليس الخطأ هنا للفرض ومع ذلك فيمكن فهمها من فعل غير الأتقياء بين المشعوذين في الماضي وكما يكون الحمقى بين الصوفيين المخادعين. ولأن في الواقع الحقيقة لا تتطلب تأثيرًا جاذبًا للتعبير عن الإطلاع على الضروريات من جانبها أو من صنعتها، فإنها تتطلب أن يعبر المخلوق عن ذلك رمزيًا وأن يباشر ذلك بشعور واضح وذلك لأن الظروف المادية التي يوجد بها قد تكون كافية على نحو فطري وقد تتفاعل مع دعوته. ولا يمكن أن تستجيب

إيماءات أو أصوات هذا الجوهر؛ ويرجع ذلك ببساطة إلى أنها مصاحبة للمادة والمذكرات الثابتة له والتي تستخدم كأدوات بسيطة ويجب أن يتم تتويجها إن كان عليه أن يطوي الوقت للوصول إلى ما يتضرع ويتوسل إليه.

ولكن في ذلك الوقت وإن وقع كهنة مصر الحكماء في خطأ توظيف الشعائر الدينية على نحو كبير كما كان في بابل ويوكاتان وكل البلاد والأديان يوجد دليل مسهب أنهم استرجعوا من الروح الحقيقية الأسرار القديمة حتى الأيام الأخيرة من الاعتقاد المصري. وتعكس نصوص عديدة الإجلال الاستثنائي الذي تمتعوا به للتبجيل والقداسة والذي أظهره الرجال الحكماء في كل الأوقات لتقلب العابثين ممن يسيئوا فهم الصفات الحقيقية للمظاهر الخارجية والظروف الواضحة والازدراء السيئ الذي قد لا يفهم أبدًا. تمامًا كالرجال حتى اليوم في الحياة العملية والوطنية، فإن السخرية الموجودة في هذه الأصوات والإيماءات التي تستحسن على نحو قوي بالشكل السياسي أو على المسرح، كاليونانيين الساخرين والسوريين من غير العقلاء وضحكهم على ما تعاملوا معه على أنه "المشعوذ المصري". وقد وجدنا حتى أرنوبيوس **Arnobius** المدافع عن المسيحية وهو يسخر بطريقة غير مناسبة برجل حكيم بتصرفات غريبة من الكهنة وهو يتحدث عن الأسرار كما لو كانت شيئًا طفوليًا، بل وفاسدًا وضعيفًا بل ويفشل في التعرف على السر وراء الفعل أو الرمز بسبب عدم المقدرة الفطرية التي تمنع من الوصول إلى مثل تلك الأعماق الروحية.

أما عن الكهنة المصريين فإن المعابد لم تكن أكثر من مقار إقامة للآلهة كبقية الأماكن على الأرض والتخيلات عن حقيقة الآلهة ليست تلك الحقيقة المعروفة عن أنفسهم ولكن أشكال وأوعية في بعض الأوقات والأزمان قد تضع روحها وأفكارها في الإنسان. وعلى نحو مهيب جدًا كانت الحياة والمشاركة في تلك المقاصير للآلهة وربما ليس قبل أو خلال تاريخ البشرية حين كان لديها

إحساس بالقداسة يسري ويتخلل بين المعجبين والواهين أنفسهم. ولم يكن هناك أي تسامح إن وجد مكان يدل على الدنس أو الشر في نطاق المحيطين. ومثل هذه الأماكن كانت مواقع مناسبة لأداء الأعمال السرية وتحقيق الهدف لما يتم تقديمه كتمهيد للروح البشرية للتوافق مع الخالق.

وهذه المقامات المهيبة المحاطة بصمت تام التي يبدو أنها تستنبط هيبتـــــها الكاملة من الهدوء الخالد الأبدي للصحراء المحيطة، كانت سببًا في إيجاد الجو المحيط المناسب والبيئة المثالية لاستدعاء صورة الخالق وأحداث غريبة عن الإله للمشاركة وسمو المعرفة. وقد لا يكون ذلك على النحو المبهر إن كان في موقع العمل ولكن الحكمة في النمو البسيط للروح البسيطة والهادئة والاعتراف أنه للخطوات الأولى لعدم التلقين في أنواع الأسرار، وكان الصمت والظلال ضروريان ومن الأساسيات للتأمل في البدايات تمامًا كعلاقة الشمس والمطر على الزراعة والنباتات. والصمت والكآبة هما الضوء والحياة للأسرار القائمة والبعد والاحتجاب عن العالم المادي للروح النامية والتي تكون كالطفل في رحم أمه ويجب أن يتسم بالإعفاء المطلق من القلق والاضطراب للأشياء المادية إن كانت ستصل إلى النجاة والولادة الصحية.

لذا فإن حركات الصمت للبدء الجديد كانت حقيقية. وكانت القوالب وأدوات التطهير لبدء الأرواح الوليدة التي تقدم نفسها لإعادة الميلاد الإلهي من جديد كانت نهاية وغرض قوالب الاحتواء. وهنا كان المبتدئون ينتظرون حتى يعلموا من خلال صوت الإله نفسه باعترافه باستعداده التام لهذه المنحة الموهوبة. لكن التأثير الهائل والبحث الذاتي عن هذه الأمور كان في الأساس فرديًا؛ حيث كانت المنحة تقوي القلب والروح للباحث الذي سيتم اختياره. ربما أن القارئ في بعض الشؤون الكاتدرائية القديمة، حيث تكون التقاليد المقدسة بين الظلال البيضاء، يجدها تزيد تدريجيًا من الرهبة المحيطة التي تزيد تدريجيًا وتحوطه وترفع من شأنه وبعد ذلك،

ومثل الماء للخمر، وبمقارنة مرور إحساس التبجيل والمهابة لذلك الذي يتنزل على المبتدئ في التدين بإدراك وهو يكرس نفسه وهو يعلم لخدمة الرب بشكل عظيم ومثير، سريعًا ما يتكشف له. حيث يعطي الإله كل عمر كشفه الخاص بما يتلاءم مع ظروفه. ولكن من يجب عليه القول إن مصر القديمة لم تمنح وتجتز الكشف العظيم والسامي لأي نجم معروف؟ وإلى أي مدى يتفق الرجال على القداسة المهيبة والسمو؟ وأن علاقة الأسرار المصرية بإليوزيس أو عبادة أورفيوس كعلاقة الأم بالابنة وهي في الأغلب بداعي الفضيلة لما يمكن اكتشافه من ظروف الأحداث اللاحقة لما يمكن التحقق من معرفته للسابق.

إلاّ أن مجموعات الأسرار المصرية عند الإغريقيين يتم التعامل معها أولاً في هذا الكتاب. ومع ذلك فإنها تبقى للتحقق بشكل عام من موقف الإغريق تجاه الأشياء السرية. في بدايات التاريخ الإغريقي نجد أن الأسرار الأورفية تتكشف وأن تلك المطابقة لهيرودوت والآخرين تعتبر ذات نشأة مصرية. ومن هذه العبادات مدرسة السر الأعظم لفيثاغورس أو بايثاجور كما سنذكره فيما بعد والتي استمدت أفكارها من تجوال الروح ومراحل التطهير الضرورية. ومن خلال التعرف على دراسة هيراقليتوس[1] نكتشف أن الحساب الواضح للأفكار المجازية التي تتوارى خلف الأسرار هي أنواع من الإيمان بوحدة الوجود.

في كتابه "السر العظيم"[2]. يبدو لي ماتيرلينك **Maeterlink** وكأنه يصيب كبد حقيقة الوضع الأسطوري اليوناني، خاصة عندما يقول إن أهم أجزاء الفلسفة القديمة والتصوف القديم، لاسيما التي تناولت مسألة الأسباب العلوية والغيب، "تجاهلتها الصوفية الكلاسيكية وتناستها الفلسفة الكلاسيكية كذلك، وأصبحت تلك

---

(١) ص. ١٠٢.

(٢) ص. ١٣٧.

الأجزاء، كما حدث في مصر والهند، سرًا قدسيًا، كوّن فيما بعد، وبشكل مباشر، العقائد اليونانية والأساطير اليونانية الشهيرة، وكوّن أيضًا الأساطير الإليوزينية التي ما انكشف عنها نقابها حتى الآن". لكن عناصر الغيب، كما هي في الأساطير وفي غيرها، كانت كافية لتقويض أي إيمان بآلهة العوام، "عندما آن الأوان ليفهم سبب خطورة اعتناق مذهب ما على من لا يستطيع أن يدرك حقيقته المقدسة، كان لزامًا عليه أن يبقى بعيدًا، أن يبقى سرًا لا يعرفه أحد. ربما لم يكن في الوحي العلوي شيء غير هذا، لأنه ليس هناك أي سر آخر يمكن للإنسان أن يعرفه أو يمتلكه، فلم ولن توجد صيغة محددة تعطينا المفتاح لفهم ذلك الكون".

وعلى ما يبدو أن أي معتنق لدين جديد، يرى نفسه وكأنه في غمار علم سري عن طبيعة إيجابية، كالتي امتلكها الكهنة المصريون، ومن ثم "يجب عليه أن يتعلم الطرق التي يتحد من خلالها بالإله، أو أن يذوب في العشق والهوى الإلهي" على حد وصف م. ماتيرلينك، وربما بطرق لا شعورية، أكثر تطورًا مما لدينا نحن. ففي أعماقه كل القوى الأسطورية عن النفس الباطنة. ومع ذلك، وبالرغم من أنني أستطيع أن أكتشف دلائل كثيرة تؤكد ارتباط ذلك بالسر المصري، أعترف أنني لا أستطيع أن أكتشف الكثير في حالة المجتمعات الهيلينية التي تتوازى مع الحالة المصرية.

ولا يعتقد م. ماتيرلينك أن الجماعات السرية في اليونان عرفت عن أسرار الوجود العظمى أكثر مما جاءت به الديانات السماوية. فلم يكن بإمكانها أن تعرف الكثير، وحتى إذا عرفت، "فإننا أيضًا في تلك الحالة يجب أن نعرف ما وصلت إليه، لأنه لا يمكن أبدًا تصور أن جوهر هذا السر ينبغي لأحد أن يعرفه. ولا يمكن أن ندعي أن يكون هناك آلاف البشر على مر آلاف السنين قد عرفوا ذلك السر". لكن مما سبق، يجب أن يتضح للعيان أن المعرفة الأسطورية الأولى بكمالها

وبساطتها ضاعت في فترة ازدهار الأساطير الإليوزينية، في القرن السادس قبل الميلاد وما تلاه، وتلك المعرفة في حقيقتها مجرد تجربه عاجزة لإحياء وبعث المعرفة الخفية بعد أن اضمحلت ولم تعد قادرة على كشف حُجب الحقيقة المطلقة. وقد استقرت الحقيقة في أساطير مصر في صورتها الأولى والمنقحة ليس إلا.

لكن م. ماتيرلينك سيصل إليها، بغض النظر عن حراس الأساطير اليونانية وامتلاكهم لأسرار القوى الخفية للطبيعة بشكل يفوق ما لدى علماء العصر الحديث من معرفة. فيا ترى بفضل أية معرفة وصلوا إلى ذلك السمو، إن لم يكن بفضل امتلاكهم السر الأكبر والأبسط، سر الأسرار جميعًا؟ يريد م. ماتيرلينك أن يبرر طرحه هذا بتوضيح تفوق المصريين في العمارة فما كانوا ليشيدوا مثل تلك الصروح العظيمة المذهلة إلا بقوى خفية سرية! لكن ذلك الاستغراق في الأسطورية يمثل درجة كبيرة من الخطر خاصة عند التكلم بعشوائية دون معرفة متخصصة، وهذا ما يقع فيه من يؤمن بالأساطير إذ دائمًا ما يجد نفسه منساقًا إلى مشكلة كبرى تجعله يضع نفسه أسيرًا لفن العمارة في العصور الماضية. ليس هناك سر في الطريقة التي بنى بها المصريون الأهرام أو المسلات، وتلك الطرق يعرفها المتخصصون في علم المصريات. وليس معنى ذلك أنني أنفي عن هذه المباني أو الإنجازات الطبيعة السرية أو الرمزية، ولكن ليس معنى كونها مبانٍ بها أوجه من الإعجاز يجعلنا نقر بأنها مبانٍ شيدتها "القوى الخفية"، وهذا يفند أي رأي من شأنه أن يحملنا على الإيمان بأن مجرد الإعجاز المعماري يعد دليلاً على القوى العلوية التي حلّت لبنائه، سواء كان هذا البناء هرمًا أو غير ذلك. يا له من افتراء يظن به من يؤمن بالأساطير أنه يحمي إيمانه بها، بينما هو من يدمر الأساطير نفسها بمثل هذا الافتراء[١].

---

(١) ولا أستطيع أن أجد دليلاً صالحًا على ممارسة طقوس الأسرار داخل الأهرام. لقد كانت هناك علاقة بين المراسم الجنائزية للفرعون وبين الأسرار وهذا ما يبدو مبررا لمثل هذه النظرية.

ونعود إلى روح الأساطير اليونانية، لنقول إنها لم تكن شيئًا سوى بعض ظلال من الأساطير المصرية، وليتها أخذت منها روحها الحقيقية بل أخذت منها فقط كلمات وممارسات ليس إلا. ومع ذلك، فبأخذها من الأساطير المصرية، أصبح للأساطير اليونانية قيمة خاصة فيما يتعلق بالشعائر والممارسات الدينية التي أخذتها من الكهانة المصرية. ولطالما انتابني شك في أن الأساطير المصرية أعطت تفاصيل أكثر غير الشكل والتقاليد والشعائر والتي إذا نظر إليها من لا يحسن فهما قد يظن أنها مجرد آثار لا توافق العقل.

إن مكانة الأساطير المصرية فيما يتعلق بالتقاليد السرية محددة وقاطعة. ففي الأساطير المصرية، اجتمعت أركان الحكمة والمعرفة الخفية عن العالم القديم، وتبلورت لتُحفظ في هيئة لا تخطئها عين، وتلك الأساطير هي التي حفظت القرون التي تلتها من التشتت الديني والوقوع في حالات أسطورية زائفة. لكن إهمال حراس تلك الأساطير لما بين يديهم ربما بسبب الكفر الذي جاءهم من الخارج، كان سببًا في أن تخبو جذوة الجمال الإلهي في تلك الأساطير ويبقى منها فقط شكلها وطقوسها الدينية. ولذا نجد أن الديانة المسيحية ما هي إلا محاولة عملية لإحياء الفكرة الأساسية وهذه الفكرة لا أشك فيها أبدًا، إذ تسير كل الحقائق في اتجاه تلك الفرضية وتدلل على صحتها. فالفكرة الأساسية هي التوحد البشري بالإله من خلال البعث الأسطوري، كما في الروايات البطريركية، وكذلك في ديانة أوزوريس، وفي الحكمة الهندية، وفي كل ديانات العالم. والطريقة المحددة التي تحققت بها تلك الفكرة العظيمة ستكون هي نقطة البحث في الصفحات التالية حتى نصل إلى توضيح لها، وحتى نستوضح المعجزة القديمة والحديثة لهذا النظام البسيط والعميق الذي يربطنا بالإله، وأن نوضح أن بعث الحقيقة القديمة، التي من أجلها خاض البشر الصحراء وعرفوا معنى الخطأ والصواب، يحتم علينا أن نميت ما جُبلنا عليه وأن نمنح أنفسنا الخلاص من لعنة المادية التي نحيا فيها.

الفصل الثاني

المصادر النصية

تتعدد المصادر النصية التي "تصف" الأسرار المصرية (إن جاز لنا أن نطلق هذا الاسم على كل ما هو رمزي وخفي وليس على كل ما هو معلوم للجميع)، وتأتي هذه المصادر في مجموعتين: مجموعة تتناول تلك الأسرار برؤية "فلسفية" وتاريخية مطولة، مثل كتابات بلوتارخ، ويامبليخوس، وأبوليوس، ومجموعة تتناول تلك الأسرار بطريقة مجتزئة لا بالتفصيل، أو تشير إليها في مواضع معينة للتدليل على فكرة أخرى، مثل كتاب الموتى، وكتابات هيرودوت، وبروفيري، وديودور (الصقلي)، ولاتانتيوس، وأرنوبيوس. وقد عكفنا في المقام الأول، كما سنرى في الفصول القادمة، على المجموعة الأولى، كما تتبعنا معظم الكتابات التي تقع في المجموعة الثانية، وسنوردها في موضعها في هذا المؤلَّف، وحرصنا على ترتيب الكُتّاب وعرض كتاباتهم وفقًا للتسلسل الزمني، باستثناء كتاب الموتى. وسنقوم في نهاية الفصلين اللذين يتعاملان مع هذه المصادر بتلخيص المعلومات الواردة فيهما، حتى يتسنى للقارئ أن يحمل الصورة الذهنية الكاملة لتلك الأفكار والمعلومات، ومن ثم يتمكن من تطبيقها على أية مناقشات أخرى في هذا الخصوص.

ولنبدأ بهيرودوت (٤٨٤ – ٤٠٦ ق.م) ذلكم الفيلسوف والمؤرخ الذي يخبر عن نفسه إنه استنبط الأسرار المصرية بوازع شخصي ورؤية خاصة به، ونراه يذكر تلك الأسرار برؤية تحمل حذرًا بالغًا، بل تكاد يحدوها خوف من كشف

غياهب تلك الأســـرار. وســـأذكر في هذا المقام ما كتبـــه، مـــع قلّته، عمّا يتعلق بالاحتفـــالات والأســـرار، وأورده بتمامـــه كما هـــو دون أي تدخـــل مني في صياغتـــه إذ يقول:

"المصريون لا يحتفلون مرة واحدة في السنة بعيد (شعبي) عام، ولكن أعيادهم العامة كثيرة. أهمها ذلك الذي يتحمسون جدًا لإقامته في مدنية "بوباسطية(*)" لأرتميس. ويليه عيد الإلهة "إزيس" الذي يُحتفل به في مدينة "بوزير"(أبوصير بنا)(**) حيث يوجد بها أكبر معبد لهذه الإلهة وتقع هذه المدينة في وسط الدلتا. عرفت "إيزيس" باسم "ديميتر" في اللغة اليونانية. وثالث هذه الأعياد يُقام في مدينة سايس (صا الحجر بغرب الدلتا) علي شرف الإله منيرفا*Minerva* لأثينا، والرابع في مدينة "هيليوبوليس"(عين شمس بشرق القاهرة الحالية) لهيلوس، والخامس في مدينة "بوتو" (تل الفراعين بمحافظة كفر الشيخ حاليا) علي شرف ليتو، والسادس في مدينة "بر- رعمسيس" لآريس[1] وترى الناس يتصرفون على النحو التالي: تمتلئ القوارب والمراكب بأعداد كبيرة جدًا من الرجال والنساء، ويمسك بعض النسوة بالطبول ويُقرعنّها، بينما يعزف الرجال بالمزامير أثناء إبحارهم، أما باقي الرجال والنساء فيقـــومون بالغناء والتصفيق بأيديهم في تزامن متناغم. وإذا ما بلغـــوا

(*) مدينة بوباسطة أو ما عرف في النصوص المصرية القديمة باسم بر-باستت بالقرب من مدينة الزقازيق الحالية بمحافظة الشرقية أحد أهم المراكز الدينية لعقيدة الالهة باستت المتجسدة بهيئة القطة وعاصمة سياسية لمصر خلال عصر الانتقال الثالث (المراجع).

(**) بوزير (أبو صير بنا) أحد المراكز الدينية المتميزة في ارتباط بالإله أوزيريس ملك الموتي.

(١) من المحتمل أن تكون تلك الأعياد مرتبطة بعبادة آلهة أخرى غير إيزيس أو أوزوريس، وبالنسبة لطبيعة تلك الأعياد فليس لدينا معلومات كافية في الوقت الراهن عنها.

– أثناء إبحارهم – مدينة من المدن، جنحوا بقواربهم إلى الشاطئ، وشرعوا فيما يلي: يقوم بعض من النسوة بما وصفته آنفًا، وبعض آخر من النسوة يصحن ساخرات من نساء تلك المدينة، وتقوم طائفة أخرى من النساء بالرقص، وأخريات يقفن رافعات ثيابهن: وهذا ما يقوم به الناس عند كل مدينة يصلون إليها على ضفاف النهر. وعندما يصل الموكب إلى بوباسطة، يحتفل الجميع بالعيد، ويقدمون القرابين العظيمة، ويستهلكون من النبيذ في هذا العيد أكثر مما يستهلكون في بقية العام كله. ويجتمع الجميع، رجالاً ونساءً وأطفالاً، ويصل عددهم على حد وصف أهل البلاد إلى سبعمائة ألف.

"لقد وصفت فيما سبق كيف يحتفلون بعيد إيزيس في مدينة بوزير؛ وبجانب ذلك، يقوم عشرات الآلاف من الرجال والنساء باللطم بعد تقديم القرابين، وليس من التقى والورع أن أذكر على من يلطمون. وكل الكاريين (من أصول يونانية) الذين استوطنوا مصر يبالغون أيضًا في عمل ذلك، لدرجة أنهم يقطعون جباههم بالمشارط حتى يُعلم أنهم أجانب غرباء وليسوا مصريين. وعندما يجتمع المصريون في سايس (صا الحجر)، حيث تقديم القرابين، يشعلون جميعًا ليلة التضحية مصابيح عديدة في الخلاء على شكل دائرة حول منازلهم، وهذه المصابيح عبارة عن آنية مسطحة مملوءة بالملح والزيت، ويطفو على سطحها فتيل يشتعل طوال الليل، ولذا يُسمى العيد باسم "عيد المصابيح". ومن لا يحضرون هذا الاحتفال من المصريين يترقبون ليلة التضحية، ويشعلون جميعًا بدورهم المصابيح. وهكذا فالمصابيح لا تُشعل في "سايس" وحدها بل في مصر كلها. أما عن السبب الذي من أجله تُعظَّم هذه الليلة، وتُضاء، فلذلك قصة مقدسة يروونها.

"وإلى مدينة هيليوبوليس ومدينة بوتو يذهبون لتقديم الضحايا وحسب. أما في مدينة بر- رعمسيس فيقدمون القرابين والأضاحي ويؤدون الشعائر كما في سائر الجهات. وعندما تميل الشمس إلى الغروب، تنصرف قلة من الكهنة إلى الاهتمام بتمثال الإله.

وتقف أكثريتهم مزوّدين بعصي من خشب. بينما يحتشد عند مدخل المعبد وفي مواجهتهم جمع آخر من الرجال يربو عددهم على الألف، يوفون بالنذور وبأيديهم عصي أيضًا. أما تمثال الإله - وقد وُضع في مقصورة صغيرة من الخشب المُذهَب- فيُنقل ليلة العيد إلى بناء آخر مقدس. وتجرّ الفئة القليلة التي كانت تُركت حول التمثال محفّة ذات أربع عجلات، تحمل المقصورة والتمثال بداخله. وبينما يمنعهم من الدخول الكهنة الذين يقفون عند المدخل، يتقدم الذين يوفون بالنذور لنجدة الإله ويضربونهم، فيدافع هؤلاء عن أنفسهم، وعندئذ تنشب بينهم معركة حامية بالعصي، فتُشج رءوس بل ويموت كثيرون - كما يخيّل إليّ- بسبب جراحهم. ولو أن المصريين أكدوا لي أنه لا يموت أحد منهم. ويقول أهل البلاد إن نشأة هذا العيد ترجع إلى تلك الحادثة: يقولون إن أم "آريس" كانت تسكن هذا المعبد، وكان آريس*Mars* قد تربى بعيدًا عنها، فلما بلغ سن الرجولة، جاء ليتحدث إليها. ولكن أتباعها لم يسمحوا له بالدخول وردّوه؛ لأنهم لم يكونوا قد رأوه من قبل. فرجع آريس وجاء من مدينة أخرى بحشد كبير من الرجال فأخذ الأتباع بالعنف ودخل على أمه. ومن هنا جرت العادة بأن تنشب هذه المعركة في عيد آريس"[1].

---

(1) BK II, 59-64

مرة أخرى، "في سايس أيضًا، في قدس مينيرفا **Minerva**، وراء مكان العبادة وفي ملتقى الجدران تقع مقبرة ليس من التقوى أو الورع أن أذكر اسم صاحبها. وفي النهاية تنتصب مسلة شامخة، وبالقرب منها بحيرة، مزدانة حوافها بالأحجار، مكوّنة دائرة، وكذلك تبدو لي على أنها دائرة تشبه بحيرة ديلوس الدائرية. وفي هذه البحيرة يقومون ليلاً بإحياء مراسم تمثل رحلات صاحب المقبرة، تلك المراسم يسمونها أسرارًا. وفي أثناء ذلك، وعلى الرغم من اعتيادي مثل هذه الأشياء، أجدني مجبرًا على التزام الصمت المطبق"[1].

نأتي الآن إلى بلوتارخ **Plutarch** (٥٠-١٢٠م) والذي ينحدر من أسرة عريقة في بلدة خيرونيا باليونان، وتلقى تعليمه في أثينا على يد أمونيوس الذي ربّاه على أسس دراسات أفلاطون وذخائر الفكر اليوناني. وسافر بلوتارخ إلى مصر وآسيا الصغرى، وأصبح من بعد محاضرًا في روما، وصديقًا لكل من بليني وتاكيتوس. ثم أصبح فيما بعد كاهنًا من كهنة أبوللو في ديلفي. ونتاج بلوتارخ النصي غني جداً، ويمتاز بلوتارخ بأنه استطاع أن يجد وقتًا لكل شيء وللسفر إلى كل مكان أيضًا. ويُعد كتاب بلوتارخ "الحيوات الموازية في العصور القديمة" من أوائل بل ومن أعظم ما كُتب في السير الذاتية، وهو بالفعل كان أفضل هيليني في عصره.

لقد كان بلوتارخ أحد أبطال الحياة، كان رجل مُثل ومبادئ نبيلة، كل همه انصب على الإصلاح الأخلاقي في عصره. فقد كان يرى ما يمكن أن تؤول إليه حياة البشر إذا التزم الإنسان بالتناغم المعتدل. فبالنسبة له بزغت شمس الوجود الحق من سماء الأسرار القدسية. ومن ثم شاقه أن ينظّم الفوضى الاجتماعية والأخلاقية التي سادت في عصره، وكانت طريقته لفعل ذلك طريقة تقوم على انتقاء أفضل الأفكار والمعتقدات، واستعارة أي مبادئ من شأنها الإسهام في بناء

---

(1) BK II, 170-171

الشخصية السوية. وإن بدا من خلال طرحه أفلاطونيًا يتبع خطى أرسطو ومجمع الحكماء والفلاسفة اليونانيين، إلا أنه كان يؤمن إيمانًا قويًا بالعناية الإلهية التي تقدمها له آلهة عليا بعيدة المنال.

ففي رسالته عن إيزيس وأوزوريس نجده وقد بنى رأيه على أسس المذهب الباطني لفيثاغورس أو بايثاجور، لكنه مع ذلك كانت تلميحاته الإلهية أقوى وأعلى. ويتبدى ذلك جليًا عندما نقرأ له وهو يقول: "بينما نكون هنا في الأسفل، تقيّدنا أجسامنا، لا يمكن أن نتواصل مع الإله، إلا بالفكر الفلسفي، فبه قد نلمس الإله كما لو كنّا في حلم. لكن عندما تتحرر أرواحنا، وتدخل في مرحلة الطهر والنقاء، وتصبح كنهًا لا يُرى، ولا يتغير، عندئذ يصبح الإله هو حادي تلك الأرواح والملك الذي تعتمد عليه الأرواح وتخشع أمامه وكلها نهم للجمال الذي لا يمكن أن يصفه بشر".

لقد كان لدى بلوتارخ "رؤية خاصة للروح الأبدية المقدسة، التي لا تنتمي إلى عالم التغير والأقدار". ولأنه أفلاطوني استطاع أن يحقق تصالحًا بين نفسه وبين الأساطير اليونانية والمصرية من خلال تفسير ورع للأسطورة القديمة التي تقول بوجود وسيط من روح عليا أو جن أو نصف إله يقرب الناس زلفى إلى الإله.

وكما يقول ديل Dill[1]: "يبدو أن من صاغوا الأساطير والتشريعات كان لديهم علم مقدس غزير عن الحقيقة المطلقة، التي ألقوا بظلال منها على كتاباتهم التصويرية أو حكاياتهم الرمزية. فالأسطورة تخفي وتكشف في آن واحد سر الإله. فإذا ما استطاع الإنسان أن يفسرها على النحو الصحيح، عندها تتجلى له المعاني الروحية والمادية التي تختفي عن الأعين في تلك الأسطورة. ولذا فإن الفكر

---

(١) Roman Society (المجتمع الروماني) ص ٤٢٣

اللاهوتي الفلسفي لا يأتي بجديد عن الإله لينشره في عصور طغت عليها الخرافات، بل كل ما يفعله هو تفسير وبيان الحكمة الأصيلة التي سبقته بزمان. وفي تلك العملية التي يعيد بها اكتشاف العبادة المفقودة، ينحي جانبًا كل التفسيرات الضالة التي طمست ملامح الهَدي القويم، سواء كان ذلك الطمس بالوقوف عند ظاهر القول، أو الإساءة إلى الأسماء أو تجاهل الحقائق، أو بالوقوف عند الرمز فقط دون الارتقاء إلى الحقيقة الإلهية.

"إن رسالة بلوتارخ عن إيزيس وأوزوريس هي أفضل تصوير لذلك التوجه أكثر من كونها تناول لأسطورة. فإيمان بلوتارخ بوجود الإله، رغم أنه هيليني في المقام الأول، لم يجعله يقصر نظره فقط على آلهة الأوليمب دون غيرها: فآلهة الأوليمب ما هي إلا الأساس العلمي للديانات الإنسانية عامة. فهي تقدم الصيغة العلمية التي تجنح إلى التوحيد. إذ الفكرة الأساسية التي يقوم عليها ذلك المذهب هي أن الآلهة، مع اختلاف أسمائها، كالشمس والقمر، تنشر الضياء على الجميع، لكنها شمس واحدة وقمر واحد وإن اختلفت الأسماء لدى كل جماعة بشرية، وهكذا الإله. فهو إله واحد مع اختلاف أسمائه عند كل جماعة بشرية، يحكم ويرعى كل الخلق. أما الآلهة السفلية في كل بلد فيمكن للفكر اللاهوتي أن يراها على أنها صفات متعددة لإله واحد. لذا نجد أن بلوتارخ، مثله في ذلك مثل هيرودوت، يرى أن صور العبادة في مصر كانت كمثيلتها في اليونان، إذ نور العبادة ينبع من مشكاة واحدة. لقد كان هناك معبد لأوزوريس في ديلفي وكليا، وهو المعبد الذي وجه إليه بلوتارخ رسالته، ولم يكن المعبد مجرد مكان كهنوتي لإله مصري، لكنه كان له مكانته الخاصة بين راهبات الإله ديونيزوس (أو باخوس). وقد كانت رسالة بلوتارخ مناسبة جدًا لأن توافق هوى كل كاثوليكية وكأن الرسالة اللاهوتية تلك مهداة من بلوتارخ إلى كل تواقة للكاثوليكية.

"في تلك الرسالة نرى اللاهوتية الجديدة تكافح في جهاد يائس للتوفيق بين فكرة فيثاغورس، أو بيثاجور كما سنسميه بعد ذلك، وأفلاطون بشمولية الأسطورة

المصرية. فتلك الأسطورة مبهرة ولكنها ليست مثلاً بمنأى عن سوء التطبيق للمهارات الفكرية والتعليمية اللازمة لاستلهام أفكار الحاضر من أساطير الماضي، ومن الخطأ أن نتجاهل مسيرة الإنسانية ونقف عند نقطة واحدة. فالتفسيرات العشوائية للأسطورة، مثلها مثل أي عمل غير تاريخي أو علمي، تجعلنا نتساءل عن كيفية وقوع المفكرين المتعلمين وانسياقهم وراء مثل تلك الأمور غير العلمية. وليس من شأننا أن نسعى للشرح، لكننا نقول إن الأفكار الأكثر رقيًا عن الإله، التي تمثل الفطرة الدينية، لا يمكن أن يحل محلها أي رمز أو رؤية تعبر عنها. فالدين، دون أية مؤسسة، يعتمد على قوته عبر العصور، وعلى ما له من سحر سيطر على أذهان الأولين. أما الرمز الديني، كرمز فقط، فلا قدسية له خاصة إذا تناقلته الأجيال.

"عند تفسير أسطورة إيزيس، التي ذاع أمرها في الغرب، سيطر على فكر بلوتارخ أمران. أحدهما التفسير الديني التعبدي الذي تناول به أساطير تلك الحكاية، فقد رغب بلوتارخ في إبراز وترسيخ التوجه الأخلاقي والخرافي في تلك الأسطورة، والأمر الثاني رغبته في مناقشة مسألة عبادة الصور المتعددة للإلهة إيزيس وذلك لكي ينمي توجهه الخاص بالنسبة للأساطير بشكل عام. ومع ذلك لا يمكننا تتبعه بدقة في رصده لمختلف المحاولات الفلسفية لإيجاد حقيقة الأسطورة المصرية. فبعض تلك الشروح، مثل تلك المبينة على الأفكار المبهجة، ما كان ليقبلها إذ هي في رأيه شروح كافرة. وبالنسبة لشروح أخرى، والتي تؤسس نفسها على ادعاء مادي، ما كان ليتمسك بها، ومع ذلك فإننا نجده يرفض أي توجه غير إيماني لتعريف الآلهة على أنها قوى طبيعية ونواتج طبيعية. وما يميز تلك الرسالة كإسهام في الفلسفة الدينية هو فكرتها عن الشر والقوى الشيطانية، وعلاوة على كل ذلك مذهبها في توحيد الإله، وهي الحقيقة الأساسية لكل الأديان".

ففي رسالته بعنوان "إيزيس وأوزوريس" يتناول بلوتارخ أساسًا التصويرية والرمزية التي فسر بها الأولون طبيعة أوزوريس وإيزيس. ونجده يرفض أية فكرة

تقوم على أساس غير ديني، كفكرة وصف أوزوريس وإيزيس كملكين، وفي الوقت نفسه يقلل من شأن مصداقية كل القصص والحكايات التي تعارض وجهته، وهذا التوجه أو المنحى الفكري لا يمكن قبوله أبدًا خاصة من وجهة نظر النقد الحديث. وعلى حد إقراره، فإن بلوتارخ يقول بإن أسطورة أوزوريس مبنية على واقع، لكنها استغرقت في التصويرية حتى تعدت حدود التصور.

وقد أوضح لنا بلوتارخ إن اسم إيزيس يشير إلى المعرفة بناءً على التفسير اليوناني. فإيزيس جمعت "المذهب المقدس الذي أعطته لكل من أراد استلهام المعرفة وأراد أن يكون له نصيب في الطبيعة الإلهية، وهو المذهب الذي إذا ما ثابر المرء على مبدأ في حياته وامتنع عن ألوان معينة من الطعام، ودافع كل الشهوات، استطاع أن يكبح كل جموح وشهوة ويحصرها في نطاقها، وفي نفس الوقت يضع النفس في رهبانية صارمة وعبادة تفرض طقوسها على النفس أن تجعل عينها معلقة على نهاية كل شيء، وبذلك تكون النفس معدة لتلقي المعرفة العلوية، لأن النفس عندئذ تكون قد سمت بالعقل إلى جوار الإلهة نفسها وتوحدت بها ولهذا السبب نجد معبد إيزيس، والمسمى باسمها، يشير إلى تلك المعرفة التي تجعل النفس أبدية الوجود، تلك الأبدية التي يمكن أن تكتسبها النفس، إذا وصلت إليها، من خلال طرق واضحة وطاهرة ومقدسة"[١].

ويقول بلوتارخ إن اليونانيين نظروا إلى إيزيس باعتبارها إحدي بنات هيرميس، أو من بنات بروميثيوس، وكل منهما إله له نهج فلسفي، ولهذا السبب تُعرف إيزيس على أنها هيرميسية أي بها تتجلى الحكمة أو العدالة، والتي تمثل المعرفة الإلهية والحقيقية التعبدية، سواء كانت تلك الحقيقة أزلية أو متجددة؛ حيث الأزلية تعني أن يحمل المرء الحقيقة المقدسة داخل عقله ووجدانه ويقدس الآلهة

---

(١) ترجمة صمويل سكوير، كمبريدج، ١٧٤٤، ص ٢، ٣

المنزهة عن كل عيب ونقص ويجعلها أمرًا خارقًا للعادة، أما المتجددة فتتمثل في الاعتياد المقدس لعبادة التماثيل التي تجسد الآلهة، وقد يبدو هذا مظلمًا أحيانًا، ومشرقًا أحيانًا أخرى، لكنه يبقى مذهبًا يميل إلى توضيح الفكرة التي تعلمنا أن نرحب بفكرة الطبيعة الإلهية نفسها، بما يحيط بها من وضوح وغموض معًا. وبالنسبة لأتباع إيزيس ممن يتمسكون بنهجها، نجدهم بعد موتهم يُلفون في الأردية المقدسة، وهنا نسأل أليس هذا من شأنه الإشارة إلى تمسكهم بذلك المذهب المقدس، وأن هذا فقط ما يذهبون به إلى الحياة الآخرة؟ فوحده العابد الحقيقي أو التابع المخلص للإلهة هو من يبحث، بعد أن يعرف وبعد أن تُصاغ نفسه بالطرق المعروفة الملائمة لنهج الآلهة، عن الحقائق الخفية التي تختبيء خلف تلك الآلهة، ويسبر تلك الحقائق كلها بالعقل والفلسفة"[1].

ويتابع بلوتارخ قوله من أن كثيرون هم من يجهلون المنطق الحقيقي وراء الطقوس، حتى المعتاد منها، التي يمارسها الكهنة المصريون، ويكتفون بمظاهرها السطحية فقط، لكن يظل المنطق الحقيقي هو اللازم لتحقيق الطهر المطلق في طلبهم للحقيقة الإلهية. ومثل هذه الملاحظة والفهم للمنطق التطهري لا تأتي من الحكايات والخرافات، ولكن تأتي من الإيمان بسعادة من يحققها بعد موته، وذلك من خلال تتبعه للمسارات التاريخية، أو لتفسير الظواهر الطبيعية.

لكن فلسفة الإيمان نفسه موجودة في الخرافة أو الحكاية التصويرية، وهي ما تظهر في الإشارات الخفية وغير الواضحة إلى الحقيقة. وهذا متضمن، مثلاً، في الجسد الخرافي، وهو نوع من اللاهوت الخفي، ونجده محفورًا على قاعدة تمثال مينيرفا في مدينة سايس، ذلك التمثال الذي يعتبر تعبيرًا عن إيزيس نفسها. "أنا كل ما كان، وكل ما سيكون؛ ولم يتمكن أي بشر ولن يتمكن من كشف الحقيقة خلف

---

(١) ترجمة صمويل سكوير، كمبريدج، ١٧٤٤، ص ٣، ٤

ستاري". "ولكن تكوين أفكار حقيقية عن الطبيعة الإلهية أكثر قبولاً عن أية تضحية أو أية ممارسة تعبدية ظاهرية أخرى"، ومن يدرك ذلك فلا خوف عليه من السقوط في الخرافة التي تحث عليها رمزية الحكايات.

ويفصّل بلوتارخ بعد ذلك التاريخ الأسطوري لإيزيس وأوزوريس بقوله "تم إهمال الأجزاء الأكثر أهمية والأجزاء الزائدة". ريهيا (نوت المصرية إلهة السماء) وهي زوجة هيليوس (رع). ومع ذلك كان كرونوس (جب) يحبها وكانت تبادله العاطفة. عندما اكتشف رع خيانة زوجته غضب جدًا وأنزل لعنته عليها وهو يقول يجب ألاّ تلد طفلها في أي شهر ولا أي عام. والآن لا يمكن إبطال لعنة رع العظيم؛ لأن رع كان كبير كل الآلهة. وفي محنتها هذه دعت نوت الإله تحوت (هيرمس اليوناني) الذي كان يحبها هو الآخر. علم تحوت أن لعنة رع لا يمكن إبطالها إلاّ بحيلة ماكرة إلى حد كبير وقد اكتشف إحداها بصعوبة. وذهب إلى سيلين إلهة القمر التي ينافس ضوؤها الشمس ذاتها وتحداها في لعبة المناضد. كانت رهانات كل منهما عالية إلاّ أن سيلين راهنت على بعض ضوئها وهو الجزء السبعين من كل ظهور لها وخسرت. ومن ثم تضاءل ضوءها وخفت على فترات محددة لذا لم تعد ندًا ومنافسًا للشمس. وقام تحوت باستخدام الضوء الذي أخذه من إلهة القمر بصنع ٥ أيام أضافها إلى العام (في ذلك الوقت كانت السنة تبلغ ثلاثمائة وستين يومًا) وبذلك فإن تلك الأيام لا تعتبر مكملة للعام ولا لاحقة على العام التالي ولا تندرج تحت أي شهر. وفي هذه الأيام الخمسة وضعت نوت الأطفال الخمسة. ولد أوزوريس في اليوم الأول وحورس في اليوم الثاني وست في الثالث وإيزيس في الرابع نيبيت (نيفتيس) في الخامس. وسُمع صوت عالٍ عند ولادة أوزوريس حول العالم، صوت يقول: "لقد ولد سيد الأرض كلها!". تواترت رواية أخرى مختلفة تتعلق بأن رجلاً معروفًا اسمه باميليس يحمل المياه من معبد رع في طيبة سمع صوتًا يأمره بالإعلان عن مولد "الملك الأعظم والأفضل أوزوريس"، وقد نفذ ذلك كما أُمر. لهذا السبب كان تعليم أوزوريس الشاب معهودًا به لدى ذلك الشاب باميليس. ومن ثم كان يحكى عن احتفال تنصيب باميليا.

وتم تحقيق نبوءات أوزوريس بمرور الوقت وأصبح الملك العظيم والحكيم. وازدهرت أرض مصر تحت حكمه كما لم تكن من قبل. وأخذ علي عاتقه مثل كل الآلهة العظام الأخر مهمة حضارة شعبه الذي كان حين مولده في حالة همجية يرثى لها، وانغمس في ممارسات وحشية مثل أكل لحوم البشر وبعض الممارسات الوحشية الأخرى. وقدم لهم قانونا وعلمهم فنون الاقتصاد والزراعة وأطلعهم على الشعائر الصحيحة المناسبة التي يعبدون بها الآلهة. وعندما نجح في ترسيخ القانون والنظام في مصر وهب نفسه لمناطق أبعد ليستمر عمله في الحضارة والمدنية. لذا فقد كان نعم الإله وكانت طرقه التي يستخدمها تتميز بالرضا واللطف فيما يتعلق بغرس المعرفة والعلم في العقول البربرية الهمجية؛ حيث كانوا يعبدون كل ما هو أرضي ومادي حين قدم إليهم.

وكان له عدو واحد لدود، ومع ذلك فهو أخوه ست (المقابل له تايفون اليوناني). وخلال غياب أوزوريس حكمت زوجته إيزيس البلاد بدرجة لم تسمح للإله ست الشرير أن ينجح في مخططه نحو السلطة واعتلاء عرش مصر. ولكن حين عودة الملك استقر ست على خطة ليزيح أخاه وينصب نفسه ملكا. وللوصول إلى النهاية المرجوة توحد مع أسو Aso ملكة أثيوبيا واثنين وسبعين من المتآمرين الآخرين. وبعد قياس سري لجسد الملك صنع تابوتا فخما حديثا ومزخرفا والذي سيحتوي فيما بعد جسد أوزوريس. وحدث بالفعل أن دعا ست المتآمرين من أتباعه وأخاه الملك إلى وليمة كبيرة. وفي الوقت ذاته كانت الملكة إيزيس دائما حريصة علي تحذير أوزوريس من ست، إلاّ أنه لم يضمر الشر نحو الآخرين ومن ثم لبى الدعوة لحضور الوليمة.

عندما انتهت الوليمة أحضر ست الوعاء (الصندوق/ التابوت) الجميل إلى صالة الطعام، وقال ما بدا أنه نكتة وقال يجب أن تكون هذه لمن تناسبه. وجرب كل الأفراد التابوت ونزلوا فيه إلاّ أنه لم يلائم أيًا منهم حتى حان دور أوزوريس.

وببعض الريبة والخوف من الغدر وضع الملك نفسه في الوعاء العظيم. وفي لحظات انقض المتآمرون وحركوا الغطاء وبدأوا في دق المسامير لاحكام الغطاء، بل وزادوا في ذلك أن أنزلوا الرصاص المغلي عليه خشية وجود فتحات هنا أو هناك. ثم دفعوا التابوت ليطفو على مياه نهر النيل في في منطق مياه الفرع التانيسي(*) **Tinaitic mouth**. وحدث كل هذا في العام ٢٨ من حياة أوزوريس، ويقول بعض آخر في العام ٢٨ من حكمه. وعندما وصلت الأخبار إلى إيزيس حزنت حزنًا شديدًا وقطعت خصلة من شعرها ووضعتها على ثوب الحداد. وهي تعلم جيدًا أن الموتى لا يرتاحون إلاّ إذا دُفنت أجسادهم ضمن شعائر الجنازة وقررت أن تجد جثة زوجها. وبعد وقت طويل من بحثها لم تجد شيئًا لذا فقد سألت كل شخص قابلته هل رأى أي منكم تابوتًا مزخرفًا ومغالى في زخرفته. وفي مرة حدث أن سألت بعض الأطفال صادفتهم وهم يلعبون على شاطئ النيل وأخبروها.

أن التابوت قد حضر إلى منطقة الفرع التانيسي في النيل من جانب ست وشركاه. ومنذ ذلك الوقت كانت النظرة من قبل المصريين إلى الأطفال أن لديهم ملكات خاصة نحو معرفة الغيب والتنبؤات.

بدأت الملكة (إيزيس) رويدًا رويدًا تتعرف على مزيد من المعلومات من الأرواح الشريرة والتي من خلالهم عرفت أن التابوت وصل إلى شواطئ بيبلوس(**) (جبيل حاليًا) ودفعته الأمواج إلى إحدى الشجيرات كثيرة الأغصان

(*) الفرع التانيسي بمنطقة شرق الدلتا أحد أفرع نهر النيل السبعة التي انتشرت عبر دلتا نهر النيل لم يعد منها حاليا سوي فرعي دمياط ورشيد (المراجع)

(**) بيبلوس (جبيل) في لبنان حاليًا والمعروفة في النصوص المصرية باسم **Kpni** أحد أهم المرافئ البحرية علي ساحل شرق حوض البحر المتوسط . وعكست الآثار المكتشفة والعديد من النصوص علاقات مبكرة لمصر الفرعونية مع المكان من بينها بقايا معبد حاتحور هناك، ونصوص سنوهي والكاهن الأول لأمون المدعو ون آمون من عصر الانتقال الثالث.(المراجع)

والتي تعتبر من الأشجار الرائعة وقد خبأت تابوت أوزوريس بداخلها. وكان ملك هذه البلدة ميلكارثوس مشدوهًا ومعجبًا بجمال وروعة هذه الشجرة وقطعها وصنع منها دعامة من جذعها ليدعم بها سقف قصره. وفي داخل هذه الدعامة كان التابوت في الداخل يحتوي جسد أوزوريس. عجلت إيزيس من رحلتها وأسرعت إلى بيـــــبلوس حيث استقرت بنفسها بجوار عين للشرب. ولم تنطق بكلمة لكل من اقترب منها، فقط كانت تتعامل مع فتيات الملكة بكرم زائد وتضفر شعرهن وتعطرهن بأنفاسها أكثر من عطر الزهور ذاتها. عندما عادت فتيات الملكة إلى القصر سألتهم الملكة عن شعرهن وملابسهن وعطرهن الرائع وأجبنها بأنهن قابلن امرأة غريبة جميلة. دعت الملكة أستارت أو أثيناس إلى إحضار المرأة إلى القصر ورحبت بها بكرم وحفاوة وعينتها ممرضة لإحدى الأميرات الشابات.

أطعمت إيزيس الطفل بإصبعها الذي أخذ يمتصه. وفي كل ليلة وعندما يخلد الجميع إلى النوم كانت تكوم سجلات كبيرة بالقرب من النيران وتدفع الطفل داخلها وتغير نفسها إلى طائر يصدر صوته وتنشد ألحانًا حزينة على زوجها الميت. ووصلت بعض من هذه الممارسات الغريبة إلى سيدة القصر من خلال بعض الفتيات التي قررت ما إذا كان لهذا الكلام حقيقة أم لا. لذا فقد أخفت نفسها في مكان كبير وعندما جن الليل أغلقت إيزيس الأبواب وكدست الكومة بالقرب من النيران، وحشرت الطفل بين ألواح الخشب المتوهجة. فاندفعت الملكة مصدرة صيحة عالية وأنقذت طفلها من ألسنة اللهب. استنكرت الإلهة ذلك بشدة مدعية أنها بفعلها هذا في الأمير الصغير فإنها حرمته من الخلود. ثم كشفت إيزيس عن هويتها لأثيناس المنكوبة وأخبرتها قصتها وتوسلت إليها بأن تعطيها تلك الدعامة التي أقامتها للسقف. وعندما أجيب طلبها قطعت الشجرة وفتحتها وأخذت التابوت الذي يحتوي على جثة أوزوريس وانتحبت كثيرًا بصوت عالٍ عليه حتى أن أحد الأمراء مات رعبًا. ثم أخـــذت التابوت عبر البحـــر إلى مصر وصحبها في رحلتهـــا

الابن الأكبر للملك ميلكارثوس. وكان قدر الطفل أن يتعرف على العديد من التقاليد المختلفـــة. وعُبدت الشجـــرة التي احتفظت بجثة الإله وحافظت عليه لفترة طويلة في بيبلوس.

وفتحت إيزيس الوعاء بمجرد الوصول إلى مصر وبكت كثيرًا على رفات زوجها المخلص. لكنها الآن تفكر في ابنها حربوكراتيس أو حورس الطفل الذي تركته في بوتو وتركت التابــوت في مكان سري وذهبت للبحــث عن الطفــل. في غضون ذلك كان ست يصطاد في ضوء القمر واكتشف التابوت المزخـــرف وفي غضب شديد قطع الجثة إلى أربع عشرة قطعة ثم بعثر أشلاءها علي طول وعرض البلاد.

وبمجرد علمها بما حدث لجثة الإله أخذت إيزيس قاربًا من أعواد البردي وارتحلت مرة أخرى بحثًا عن رفات زوجها. وطيلة رحلة بحثها لم تلمس التماسيح القارب لأن التماسيح أدركت أن القارب يحمل الإلهة. وحالما تجد إيزيس في مكان ما قطعة من جثة زوجها المغدور أوزوريس تقوم بدفنها وببناء ضريح لتعليم المنطقة، ولهذا السبب نجد العديد من مقابر أوزوريس في مصر.

وبعدما عاد الإله أوزوريس من العالم الآخر وأظهر نفسه لابنه حورس طلب منه الانتقام لموته. بعدها هاجم حورس ست مع أتباعه بعد صراع امتد لعدة أيام وانتصر في المعركة على المغتصب، بل وأسر ست نفسه وأُخذ إلى السجن. لكن قامت إيزيس بتحريره من أسره وإطلاق سراحه بعد ذلك، الأمر الذي أغضب ابنها حورس وأفقدها إخلاصها وبدلاً من وجود تاج علي رأسها وضعت خوذه في شكل رأس الثور عليها.

يحذر بلوتارخ كليا الراهبة الدينية التقية الذي وهب لها كل شيء له بشأن وجود اختلاف كبير بين هذه الرواية من قصة أوزوريس وما تناوله الشعراء

والكتاب من أكاذيب حول شخصية أوزوريس. وهو يمثل انعكاسًا للحقيقة كما يمكن إثباته من موقف الكهنة المصريين بشأن المراسم المرتبطة بموت أوزوريس. وتظل تلك الفكرة مقترحًا إضافيًا لنا إلى جانب الهواء المقدس للأسى والحزن والذي يظهر في التضحيات المقدمة. كما كان من الشائع وسلطة المعابد في مكان واحد ليمتد التأثير إلى أماكن عدة وأماكن الكنيسة العادلة والمفتوحة وفي مكان آخر للكنائس الصغيرة والمظلمة والكنيبة والتي تشبه جميعها الكهوف الغامضة المخصصة لاستقبال الموتى".

والنظريات العديدة الحالية المتعلقة بطبيعة قصة أوزوريس هي المحددة سلفًا. الأول أن الآلهة لمّحت لها بالأسطورة التي صورت النجوم، والثاني أنها كانت أرواحًا طبيعية أو من الجن التي جسدت أوزوريس أخيرًا والتي توحدت نفسها مع إيزيس الأرض، بينما كان ست يمثل البحر حيث فقد النهر نفسه أو كبديل عن ذلك، أو أوزوريس عبر عن الرطوبة كسبب للميلاد والظهور وأتحدث هنا عن المبدأ الذكوري. ست على الجانب الآخر يمثل الرشد والشر وكل شيء يبحث عن المنزلة الرفيعة وهلاك النعمة. ومع ذلك تظل هناك نظرية أخرى تشبّه أوزوريس بالشمس وست بمصدر العجز والشر. يشير أحد التفسيرات المسهبة بشكل أكبر إلى ست على أنه الشمس وأوزوريس إلى القمر المدار القمري وفقًا للنظرية القديمة على أنه يزيد الإنتاج بينما تكون الشمس مدمرة حيث يتصور الأمر في مناخ مثل مناخ مصر. إيزيس وفقًا للنظرية اللاهوتية هي التأثير الناتج عن القمر والتي هي خنثى حيث إنها أنثى حين تتلقى تأثير الشمس (ست) وذكر حيث تبدد مبادئ الوفرة. يشير التفسير الأخير إلى مدفن أوزوريس إلى أنه ظاهرة خسوف ويؤكد على أن أسطورة أوزوريس انتهت في تابوت يدل على خسوف القمر.

يقترح بلوتارخ بطريقة جيدة؛ وهي أنه ليس أيًا من الفرضيات يجب أن تؤخذ بشكل منفصل ولا أن تتضمن توضيح التاريخ السابق بل يجب الأخذ بها

جميعًا". ومن خلال تفسير ست على أنه مدمر من حيث المبدأ. إلاّ أن العالم قد نشأ نتيجة القوى المتناقضة وأن الخير مسيطر والعامل السيئ الأساسي يستحيل تدميره كلية. وأما عن أوزوريس يجب علينا أن نفهم قدرات الروح العامة مثل الذكاء والأسباب فكل ذلك من الصفات الدائمة في الطبيعة. والجزء غير المنطقي والعاطفي للطبيعة يمثله هنا ست.

وكما يقول بلوتارخ، فإن المصريين قد قدموا صورة سرية للطبيعة الكونية كامنة في الزاوية القائمة للمثلث، بحيث يمثل الجانب الذي يضمن الزاوية القائمة الطبيعة الذكورية التي جاءت منها الأنثى، ويمثل الضلع المقابل للزاوية القائمة نسل كل من الذكر والأنثى، أو أوزوريس وإيزيس وحورس. وعلى نفس النهج تم تصميم حية إيزيس لتمثل أن كل شيء في الطبيعة يجب أن يكون في كبد مستمر، يكتسبه من أعماله.

وكذلك فإن الرداء المقدس لكل من أوزوريس وإيزيس له مكانته المهمة، فأردية إيزيس مصبوغة بالعديد من الألوان التي تبين ارتباطها بمختلف ألوان الطبيعة. أما أردية أوزوريس، فهي من نمط واحد بلون واحد عميق يعكس التمسك بالمبدأ، والذكاء الخالص دون أن تشوب أي من المبدأ أو الذكاء شائبة.

ويذكر لنا الفيلسوف بروكلس **Proclus** (٤١٢-٤٨٥ م) في تعليقه على كتاب أفلاطون "تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات" مقالة يامبليخوس عن الأسرار ووصفها بأنها جاءت إجابة على رسالة بروفيري (٢٣٣-٣٠٦ م) التي أثارت شكوكًا لاهوتية. وفي رد على ذلك، يفترض يامبليخوس، وهو فيلسوف سوري توفي عام ٣٣٩م، أن اسم وعبادة أي كاهن من الكهنة المصريين، وليكن مثلاً آب أمون، يتكون من حرف مضاف إلى الإله نفسه.

وقد توجهت رسالة بروفيري إلى الكاهن المصري أنب، وتسائل عن طبيعة وحالة الآلهة. وفي رده على تلك الرسالة، يطلب يامبليخوس من بروفيري أن ينظر إليه على أنه شخص وجه إليه تساؤلاته، "وبعد كل شيء، لم تبع كلامه أي طائل". والذي يهمنا من ذلك كله هو الأجزاء التي تشير إلى الأسرار المصرية، وسنقوم هنا بذكرها منفصلة في هذا السياق.

ففي الفصل السابع من مقالة يامبليخوس، نجده يلفت الانتباه إلى الرمزية الأسطورية للمصريين. إذ يقول عنهم "إنهم يظهرون صورة خاصة من خلال الرموز الأسطورية والأفكار السرية المبهمة، مثلهم مثل الطبيعة نفسها، تعبر أن أسبابًا مبهمة من خلال ظاهرة واضحة. لذا نستطيع أن نجد المصريين- بعد فهمهم لنظرة الطبيعة العليا لهم على أنهم كائنات سفلية أقل قدرًا وأن تلك الطبيعة العليا ترغب أن تعمهم بالصلاح من خلال حمل المصريين على تقليدها- يذكرون ضمنًا نوعًا من اللاهوت الأسطوري في قلب الرمزية نفسها". ولكي نفهم التفسير الفكري للرموز وفقًا لمفهوم المصريين، فإننا يجب أن نتناسى الطبيعة المادية ونسمو بالنفس إلى حالة الحقيقة الفكرية المطلقة. ولا يمكن أبدًا أن تكون هذه الحجب، التي تحتجب بها كل الأسرار الغامضة، قد نبعت من مجرد حماقات لا معنى لها.

فالمصريون آمنوا بالإله الواحد، الذي أوجد نفسه وبه تتجلى كل أوجه الخير، ومنه نبع كل شيء، وهذا الإله، وفقًا لهيرميس، كان اسمه نيف، وهو رب الأرباب. ثم حلت روح هذا الإله في قالب نصف إله ونصف بشر مثله آمون أو بتاح، ومن هنا جاء نوعان طبيعيان من "الحاكمية" أي حاكمية من الشمس والأخرى من القمر، وقسمت الآلهة إلى أقسام، وكل قسم له حاكم، سواء كثرت هذه الأقسام أو قلت. لذا فكل هذا التعدد يقع تحت وحدة واحدة. "والمصريون لا يقولون بأن كل الأشياء ذات طبيعة مادية ملموسة، فهم يفصلون بين حياة الروح وبين الحياة الفكرية القادمة من الطبيعة، ليس فقط في الكون وإنما بداخل النفس، ويسمحون

للفكر والعقل أن يحيا في النفس، ومن هنا يقولون بأن الجوهر نفسه من صنع النفس. ولذا جعلوا من ديميرجوس موجد العالم المادي، واعترفوا بوجود القوى الحيوية، قبل وجود السماوات، وتلك القوى موجودة في السماوات. كما أنهم أيضًا آمنوا بأن هناك عقل قدوس يهيمن على العالم، وعقل كلي في العالم ككل، وآخر يحكم كل مدار من مدارات العالم. وكل هذه الأشياء لم يصلوا إليها بالعقل وحده، ولكن بالفكر الكهنوتي الإلهي، الذي أهلهم للارتقاء إلى مستويات أعلى سموًا في كنه الكون، وكل الأفكار التي تكونت عن الإله وعن ديميرجوس لم تستخدم المادية ولم تفترض وجود أشياء أخرى سوى معامل الزمن.

وهذا التأليه الذي يُعبر عنه أسطوريًا بهيرميس، نجده في النقوش المقدسة بمدينة سايس في مصر، تلك النقوش التي تتحدث عن ألوهية الملك آمون وشرح هذه المسألة، ويبدو أن هذه الألوهية هي التي قدمت اسم الإله، تلك التسمية التي تسود العالم بأسره. لكن هناك أيضًا تنظيمات مساعدة لنفس الأشياء، "لذلك أرى أنك لا تنتهج الصواب بإرجاع كل الأشياء لدى المصريين إلى أسباب طبيعية. لأنه، وفقًا لهم، هناك العديد من المبادئ والأمور الجوهرية، وهناك أيضًا قوى عليا يعبدونها بمظاهر تعبدية منافقة".

وهنا يطرح يامبليخوس أيضًا سؤالاً بخصوص توحيد الآلهة، وهو الأمر الذي تتمركز عليه الأسرار كلها، إذ نجده يقول: "إذا كان جوهر وكمال الخير موجود في الآلهة، وإذا كانت القوة الأولى القديمة لتلك الآلهة تتمثل في الكهنة معنا، وفي كل من يتمسك مثلهم بالطبائع العلوية، وإذا كان همهم هو التوحد بتلك القوة، عندئذٍ يكون سعي الجميع هو سعي نحو بداية ونهاية الخير، وإذا كان الحال كذلك، فإن البُغية هي تأمل الحقيقة واكتشافها وامتلاك العلم العقلي الأصيل. كما أن معرفة الآلهة يصحبها تحول إلى أنفسنا، ويصحبها أيضًا معرفة حقيقة أنفسنا. . . . ولذا، من الأفضل، بالتوافق مع طلبك، أن أوضح لك الطريق إلى السعادة، وأوضح

لك أين يكمن جوهرها. ومن هنا تتبدى الحقيقة، وفي نفس الوقت تتبدد كل الشكوك. ولهذا أقول إن الإنسان الرباني، وهو من توحد بالآلهة من خلال رؤاها، ومن ثم دخل في روح أخرى، والتي تتكيف مع الجسد البشري، يصبح مقيدًا بحدود ما تقتضيه الطبيعة البشرية وجريان القضاء والقدر عليه[1]. لذا من الضروري أن نضع في الاعتبار كيفية تحرره من تلك القيود. وليس هنالك من سبيل لفك تلك القيود سوى معرفة الآلهة. ومعرفة الخير بشكل علمي هي فكرة السعادة، تمامًا كما أن نسيان الخير والجنوح إلى الشر هو فكرة الشر نفسه. ولذا، فإن الخير مصدره إتباع الإله، أما الشر فهو طبيعة بشرية، والخير يقيس جوهر الفهم بطرق مقدسة، أما الشر الذي يلغي المبادئ، لا يمكن قياسه تمامًا مثل فكرة الجسد. وكذلك الخير هو معرفة الأب أما الشر فهو البعد عنه، ونسيان الإله الأب، وذلك الإله في غنى عن أن يعرفه أحد. والسعادة تحفظ الحياة الحقيقية للروح، وتعيدها إلى أبيها، أما الشر ينزل من قدر الإنسان، بمعنى أن نزول القدر ليس دائمًا وإنما متجدد. لذلك يجب أن تفهم أن هذا هو السبيل الأول للسعادة، بمعنى حمل النفس على التوحد مع الإله. أما العطاء الكهنوتي للسعادة فما هو إلا بوابة للوصول إلى ديميرجوس، أو إلى عرش، أو إلى قصر الخير. ففي المقام الأول تكون للسعادة قوة تطهير الروح، وهي قوة أقوى بكثير من قوى تطهير الجسد وأكثر كمالاً، بعد ذلك تكون تلك السعادة سببًا في القوة العاقلة الحاملة للنفس على الدخول في الخير، والتحرر من كل قيد الطبيعة المؤقتة؛ وفي المقام الأخير، يأتي التوحد بالآلهة التي تمنح كل الخير. "والأكثر من ذلك، أنها بعد أن تربط الروح بأجزاء كثيرة من الكون، ثم بالقوى الإلهية ككل والتي تنفذ من خلالها، تقود الروح وتودعها في ديميرجوس وتصبح الروح في غنى عن كل ما هو مادي، وتتوحد بالحكمة الأبدية. وما أعنيه هو أن السعادة تربط الروح بالإله الواحد القيوم، وبكل القوى الفكرية والمعبودة

(١) أي الروح كا

التابعة للإله، ومن ثم بقوة الإله نفسه التي تسمو بالروح إلى الحقيقة المطلقة، والكمال الإلهي، وكل القوى العملية الأخرى؛ ومن ثم تصبح الروح الكهنوتية كاملة التوحد مع طاقات وأفكار القوي جميعًا. ثم تدخل الروح في قلب الإله نفس كلية، وهذه هي نهاية سلم سمو الروح إلى الملكوت الإلهي عند المصريين".

ويجب هنا أن نضيف أن يامبليخوس أوضح أن اعتقاده وإيمانه بالمعرفة الإلهية وحده لا يكفي لتحقيق التوحد الإيماني الحقيقي بالإله. وإنما تحقيق ذلك التوحد يأتي الارتقاء والسمو إلى مكانة القوى العلوية بتنفيذ ما تنقله من رموز ومقتضيات إلهية أخرى تنفيذًا كاملاً، وهذه نقطة مهمة جدًا.

الفصل الثالث

(تابع) المصادر النصية

قد نستلهم من أسطورة التحولات، المعروفة باسم الحمار الذهبي للفيلسوف الأفلاطوني ذي الأصول اللاتينية والمؤرخ أبوليوس المكتوبة في القرن الثاني بعد الميلاد التفسيرات الكاملة عن الأسرار (الطقوس السرية) المصرية بشكل مباشر. فقد صيغت الكلمات في شكل روائي يحكي كيفية تحول لوكاس باتراس إلى حمار بفعل السحر ثم تحرره من ذلك بقوة إيزيس. ثم أصبح بعد ذلك من أتباع الإلهة، وأضحى من الواضح أن الجزء الذي يتعامل مع عبادته هو سرد للسيرة الذاتية ويشير إلى أبوليوس ذاته حيث أسهب في توضيح حقيقة أن النص الأصلي القديم للأسطورة، لوكاس أو الحمار، لم يذكر الأسرار ويبدو ويتضح من ذلك كيف تحولت الرواية العامة والرائجة إلى أغراض تعليم الأسرار عبر العبادة.

وأبوليوس كان متعبدًا وفق أسرار إيزيس في المجمل، وتلك الأسطورة سوف تخدم الهدف الذي أرمي إليه، ولذا سأقتبس فقرات مطولة عن الطريقة التي أصبح بها أبوليوس أمينًا على أسرار الإلهة. وقد علمنا أنه بعد أن تحرر من شكل وجسد الحمار الذي سكن فيه، نصحه كاهن إيزيس بأن "يكتب اسمه بين أسماء جنود الإلهة إيزيس المقدسين"، وأن يسخّر نفسه لخدمة عقيدتها. وهذا بالفعل ما قرر أن يقوم به، ثم أقام في رحاب معبدها الخاص: وها هو يقول: "بالنسبة لي فقد نذرت نفسي لخدمة الإلهة التي ظلت حتى الآن محتجبة عني ولم تفصح لي عن أسرارها، وسكنت مع كهانها، منكبًا في تضرع على كل طقوس عبادة الإلهة

القديرة. ولم تخل ليلة ولا منام لي من الرؤى والنصائح من الإلهة، إلاّ أنها أمرت بأن أكون أنا ذلك العبد الذي نذر نفسه لها وبعد كل تلك الفترة، أن أعبدها وفقًا للأسرار العلوية. أما أنا فرغم حرارة رغبتي، كانت تثبطني رهبتي.

بعدما سبرت غور متطلبات عبادتها الصعبة ونذر التبتل الشاق، وضرورة حماية حياة الرهبنة التي تعتريها الفتن. وأن النفس يجب أن تُصان وأن أصون معها حياتي بكل حذر عن الوقوع في مغريات الحياة. ولما فكرت في هذه الأفكار مليًا ليس لمرة واحدة فقط ولكن لمرات، أرجأت الأمر وإن كنت أتعجل وأشتاق. . . . بعد ذلك واظبت بمزيد من الحماس على العبادات، لاسيما وأن النعم الحاضرة كانت بمثابة إرهاص بفيض الخير والنعماء التي تنتظرني في المستقبل. وأخذت رغبتي في السمو إلى الأسرار تنمو باطراد يومًا بعد يوم، ولا تعرف أدنى فتور، وقصدت مرارًا رئيس الكهنة متوسلاً إليه أن يطلعني على أسرار الليلة المقدسة، ليلة الإلهة. لكن ذلك الرجل المعروف برصانته ومحافظته على تعاليم الديانة الصارمة ما انفك بحلم وترفّق، تمامًا كما يفعل الآباء وهم يهدئون رغبات أبنائهم السابقة لأوانها، يصبّرني ويكبح تعجلي، ويطيّب نفسي القلقة المتلهفة بعزاء الرجاء الطيب. وذكر لي أن الإلهة نفسها تعيّن بأمر منها اليوم الذي يمكن فيه للناسك أن يطّلع على الأسرار، وبعنايتها يتم اختيار الكاهن لإمامة طقوس السمو وبتعليمات مماثلة يتم كذلك تحديد متطلبات تلك الشعائر والطقوس. وأخبرني أن مثلي كغيري من المشتاقين يجب أن نتحمل ذلك بجميل الصبر، وأن أتقي اللهفة والكبر، وأن أتجنب كلا الإثمين، ولا أتخلف متى دُعيت، ولا أتعجل قبل تلقي الأمر. "ليس منا نحن الكهـــان من فقد رشـــده، أو قرر موته، ليجـــرؤ - دون أمر من الإلهـــة- أن يعرض نفسه لخطر السمو، فذلك تطاول على الحرمات وانتهاك للمقدســـات، وإتيان بخطيئة مميتة. واعلم أن مقاليد العالم السفلي والخلاص الأبدي بيد الإلهـــة، وأن إقامة طقوس العبور بمثابة الموت الطوعي، وخلاص ممنوح بنعمتها. وبنهاية

الأعمار المقدّرة تستخلص مشيئة الربة من بين المنيخين على البرزخ، حيث ينتهي عالم النور، من يمكن استئمانهم على أسرار الدين الجليلة فتعيد عناية الإلهة إحياء هؤلاء المؤتمنين، وتضعهم على مسار حياة جديدة. ومن ثم يجب علينا جميعًا أن نمتثل للأمر العلوي، وإن كانت مشيئة الإلهة العظيمة خصتني منذ أمد بالشرف الجلي المتمثل في تعييني ونذري لنعيم خدمتها. وأن عليّ الامتناع منذ اليوم، كباقي عبّادها، عن أطعمة الرجس المحرمة، فألج بيسر إلى أسرار ديانتها السمحة".

بعدما قال لي الكاهن ذلك، لم يعد التلهف يفسد طاعتي، بل واظبت أيامًا على حضور شعائر العبادة بمنتهى التفاني والخشوع والصفاء. فما خذلتني رحمة ربتي القديرة، وما عذبتني بطول الانتظار، بل ما لبثت أن جنّ عليّ الليل، حتى تجلّت لي وأخبرتني أن يومي الموعود أوشك أن يأتي، ذلك اليوم الذي ستمن فيه عليّ باستجابة صلواتي. ثم قضت بما يجب أن أحسبه وأنفقه لأداء شعائر الطقوس، وقضت بتعيين كبير كهنتها مثرا للإشراف على طقوس ارتقائي إلى معرفة الطقـــوس والأســـرار الغامضـــة ، وذلك بسبب توافق بُرجَينا بتدبير إلهيّ حسبمـــا ذكرت.

"وأنعشت روحي ومهجتي أقوال ربتي وباقي وصاياها الفياضة، وقبل أن يلوح وضح الصباح، نفضت النوم عن عيني وهرعت إلى صومعة الكاهن الأعلي. فلقيته خرج لتوه من غرفته، فبادرت بتحيته. وكنت قد قررت بإصرار أكثر مما مضى أن أطالبه بتعييني في خدمة الأسرار باعتباري أستحق ذلك الآن. لكنه بادرني حال لمحني: "إيه لوكاس (لوسيوس) **Lucius**، طوبى لك ويا سعدك، فأنت الذي كرمتك الإلهة العظيمة بمرضاتها". واستأنف: "لمَ تقف الآن عاطلاً متثاقل الخطى؟ فقد جاء اليوم الذي طالما تمنيته، يوم تدخل في أوامر وحي ربتنا تباركت أسماؤها وتعددت، وبيديّ هاتين أدخلك إلى أقدس الأسرار الإلهية".

ومد الكاهن الموقر يده بود فقادني في الحال إلى أبواب المقصورة العظيمة وأقام بفائق الإجلال، ووفق الأصول، طقوس الفتح، وقدّم نسك الصباح، ثم أخرج من مكان سري في المعبد أسفارًا خُطّت فيها طلاسم مستغلقة. بعضها كان صور حيوانات شتى، على حواشيها عبارات مقتضبة، وأخرى لفائف ذات عقد معقوفة على شكل الدولاب ولولبية كالعنب، استعصت قراءتها على غير العارفين بها. ومن نفس المصدر أعلمني بما يلزم لغرض إتمام طقوس السمو. وسرعان ما اقتنيت تلك المستلزمات على الفور، بمنتهى الحماس واللهفة التي لم أشعر بهما من قبل، واستوفيت تلك الأشياء بنفسي وأشياء أخرى أحضرها لي زملائي. ولما آن الأوان، قادني كبير الكهنة إلى المغطس القريب، يحفني جمع من العُبّاد، فسلّمني أولاً إلى المغسل العادي مستخيرًا الآلهة من أجلي، ثم طاف حولي ينضح ماء التعميد عليّ، ثم أعادني إلى المعبد، وقد انقضى أكثر من نصف اليوم، ثم أبقاني عند قدمي الإلهة، ثم أسرّ لي بتعليمات ارتفعت روعتها عن متناول الكلم، ثم أوعز لي جهارًا على أعين الجميع، أن أمتنع عن ملذات الطعام، وعن أكل أطعمة بها الروح الحية ، وعدم معاقرة الخمر عشرة أيام متتابعة.

"وبعد أدائي تلك الفرائض حسب الأصول، وبعد التزامي واحترامي لها، جاء اليوم الموعود للموعد الرباني. وبينما تميل الشمس للمغيب حاملة في ركابها المساء، فإذا بجموع الواصلين يأتون، بعد الطقوس القديمة، من كل صوب لتكريمي بالهدايا والعطايا. ثم أزاح الكاهن عني العوام، وغطاني بثوب من كتان غير مصبوغ، ثم أمسك بيدي وقادني إلى قدس الأقداس".

"قد تسأل أيها القارئ النبيه بشيء من اللهفة عمّا قيل وصُنع بعد ذلك. وسوف أخبرك طالما كان من المباح أن أخبرك ويجب أن يعلم الجميع طالما كان من المباح أن يسمع الجميع. غير أن أذنيك ولساني سترتكب إذّاك نفس الذنب، فهذا إفشاء السر، وتانك الفضول الأثيم. لكن ربما كانت تشوقك رغبة ورعة، لذا لن

أعذبك بإطالة حيرتك. اسمع إذن وصدق لأن ما سأقوله لك هــو عين الحقيقــة. لقد قضيت الليل في برزخ الموت ووطأت عتبة بروسربين **Proserpine** ثم وُلدت من كل العناصر وعدت إلى الأرض مرة أخرى. ورأيت في عز الليل الشمس تسطع بنورها الفضي، ومثلت أمام آلهة العالم السفلي والآلهة العوالي وجهًا لوجه وقدمت لهم عبادتي. ها أنا ذا أخبرتك بأشياء يجب أن تنساها بعد أن سمعتها وكأنك لم تسمعها قط".

"وإني مخبرك فقط بما يمكن التصريح به لإفهام غير العارفين دون ارتكاب إثم عظيم. حل الصباح، وبعد قضاء المناسك، تقدمت للسمو وأنا ألبس اثني عشر طيلسانًا، وهذا الزي لا شك ذو دلالة تتصل بأسرار الدين، لكن لا قيد يمنعني من الحديث عمّا رآه وقتها كثير من الحاضرين. أمرني الكاهن بالجلوس على منبر خشبي أقيم وسط المعبد أمام تمثال الربة، وعليّ ثوب من كتان محبور برائع الألوان. ومن كتفي يتدلى دثار فخم على ظهري وحتى الكعبين، وأنا مزخرف في كل مكان، لمن ينظر، بصور حيوانات متعددة الألوان. هنا تنّينات الهند، وهناك عنقاوات أصقاع الشمال النائية، تلك الوحوش الغريبة المجنحة الآتية من عوالم أخرى غير عالمنا. ويسمون هذا الدثار باسم الحلة الأولمبية. بيدي اليمنى كنت أحمل مصباحًا مشعلاً متقدًا، وكانت رأسي مكللة بتاج كبير من السعف الناصع تمتد أوراقه إلى الأمام كالأشعة. وبعد أن تم تزييني في زي الشمس على هذا المثال، أوقفوني منتصبًا في هيئة التمثال، وأزيحت الستائر فجأة، وانتشر الناس من حولي ليشاهدوني، ثم احتفلت بتلقي الأسرار الربانية، فهذا هو مولدي الأسعد، وأقيمت مأدبة مبهجة حفلت بما لذ وطاب. وفي اليوم الثالث أيضًا، أقيمت شعائر مماثلة وفطور شعائري واستكملت طقوس سموي حسب الأصول. بعد ذلك بقيت هناك بضعة أيام أنعم بلذة القرب من الإلهة والتي لا تضاهيها لذة، وكنت مشدودًا إليها برباط جميلها الذي لا تساويه كنوز الأرض".

وبعد انقضاء عام واحد تلقى لوكاس (لوسيوس) الأسرار العظمى الخاصة بأوزوريس ثم ارتقي بدراسة الأسرار حتى ظهر له بنفسه الإله أوزوريس. ولكنه ذكر أنه كان طيفًا واختتم الرواية على هذا النحو المفاجئ.

ترى هل يلقي كتاب الموتى، كما يُسمى، كثيرًا من الضوء حقًا على الأسرار (الطقوس المقدسة)؟ الإجابة هي "نعم" و"لا"؛ حيث لا يمكن توقع أن تكشف صفحاته عن المعلومات الأكثر صراحة المتعلقة بالأسرار حيث لا يزال هناك شك بسيط في أن العقيـدة والأفـكار كانت لدى الرجـال في الأسـاس ممـن كان واجبهم تمجيد الأسرار.

إن كتاب الموتى يعتبر نوعًا من الكتب المرجعية المفيدة والتي من خلالها يمكن لأرواح الموتى المصريين أن تشق طريقها عبر الأخطار الهائلة التي تواجهها في مكان الوحدة والتآكل أمام الإله الأعظم أوزوريس. والآن علينا أن نعرف أن الأسرار تعتبر ذات غرض مزدوج، فمن ناحية هي وسيلة اتصال مع الإله خلال فترة الحياة كما أنها وسيلة للاتصال الشخصي والمباشر مع المعبود مثل الموصوف في النقوش التي تحمل عبارة "السير مع الإله" والتوحد الداخلي معه بعد الموت عبر إعادة الميلاد السحري. كما أن كتاب الموتى في حد ذاته بحث ديني سحري تألف خلال عدة قرون ليضمن وصول الأرواح بأمان إلى روح أوزوريس. وهو يتعامل بشكل نادر مع موضوع التواصل مع الإله خلال فترة الحياة وفقط عند المـرور للملاذ الأخير لأوزوريـس كما لـو كان كتابًا للتوجيـه أو مسارًا لوجهة مقصودة.

واستغرق تطور أو نشأة كتاب الموتى بالفعل قرونًا. واختلفت العملية التي يبحث فيها الموتى عن التوحد مع الإله في مراحل مختلفة في تاريخ مصر إلاّ أن النزعة الإنشائية في غاية الوضوح. ففي متون الأهرام (القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد) نجد أن تصور التألق والمجد بعد الموت

يشار إليه بانبعاث حضور إله الشمس. ثم تركز النظرية على العبادة بعد ذلك وأعني عبادة الإله رع إله الشمس حيث كان الفرعون، وحده دون سواه، ينال التوحد النهائي. وبالنسبة للعوام وحتى النبلاء غير المميزين بعد الحياة في العالم يبدون كالمشرفين المنفردين. والملك، يصبح بعد ذلك هو نفسه الإله رع، أو متوحدًا في رع. وبعدها قد تتقاسم المخلوقات البشرية العادية مثل هذا المصير، لكن مع اختلاف الدرجات المسموح بها.

من المعروف أن متون (نصوص) الأهرام[*] Pyramid Texts كما تُسمى، النصوص الملكية المدونه علي جدران الفن بالأهرام تعتبر الأصول المبكرة لكتاب الموتى وتعطينا فكرة جيدة حول الطريقة التي من خلالها ينجح الملك في التوحد مع الإله؛ حيث يجب أن تتطهر روحه بالاغتسال في البحيرة المقدسة في منازل أهل البركات وتقوم الآلهة الأقل من الإله الأكبر بتأدية مراسم الطقوس وتلف الروح بلفائف الكتان والثوب المزين بالأهداب، أو يجب أن يمر بمرحلة التطهير بالاغتسال بمياه من النيل عند مدينة إلفنتين (أسوان حاليًا). وفي كل الأحوال فإن الهدف من الاغتسال هو أداء واحد من طقوس التطهر، كما أن الاغتسال ظهر كأحد طقوس الدخول الأولي في نيل الأسرار والسمو إلى علاها.

بعد تلك المرحلة يجب على الفرعون أن يعبر بحيرة الليلي (الزنبق/ السوسن) التي طالما باعدت في حياته الدنيا بينه وبين إله الشمس، ومن أجل القيام بذلك يجب أولاً أن يُسبغ عليه خارون المصري نعمه؛ وخارون هذا هو شخص له اسم شرير ولا يُرى له وجه، ولكن له مهابة في قلوب من يمثل أمامه، وذلك لأنه

(*) متون (نصوص الأهرام) هي مجموعة من التعاويذ Spells تنوعت مضامينها بين أفكار بربرية متوحشة إلى أفكار روحانية متقدمة ، وهدفت إلى تأمين رحلة روح الملك المتوفي إلى السماء (الجنة السماوية) بدءًا من عصر أواخر الأسرة الخامسة مثلما هو مدون في هرم الملك وناس. وعثر علي مثل تلك النصوص في أهرامات الأسرة الخامسة والسادسة واستثناء في بعض حجرات الدفن لبعض الملكات من أواخر الدولة القديمة (المراجع).

يجب على المتوفى أن يكون في مواجهة الصورة التي تعم خلفية المشهد من أجل توجيه سارية القارب. ولأنه الملك فيجب عليه أن يتملق أو يجب أن يتخذ شكلاً من أشكال الطيور وأن يحلق عاليًا فوق صفحات المياه ليصل إلى هدفه. وبمجرد أن يصل إلى المكان المقابل على الشاطئ، ينزل إليه عندئذٍ المركب الشمس الكبير ليأخذ الملك إلى مدينة الشمس. وفي كل فترة من هذه الفترات نكتشف الظروف والحالات التي تجلّت بعد فترة وتحولت إلى شعائر الأسرار - القارب الحامل (المعدية) الذي يحمل أيًا من أتباع الدين المعروف لكل أصحابه، كما أنه نوع من الزخرفة الخاصة بالشمس للتغير اليومي للشمس بين السماوات بينما حين نذكر المركب الذهبي للشمس فهو يتألف من دعامات تصل ما بين الأرض والسماء وهي تشبه الأشكال المذكورة في العديد من الكتب المقدسة.

الآن لنتذكر معًا أن الملك الآن واقفا أمام أعتاب مدينة الشمس ويجب عليه محاولة فتح هذه المداخل باستخدام الوسائل السحرية. ويعتبر ذلك تأثرًا بمبادئ الجمال أو السحر مثل تلك التي يتلقاها المعتنقون الجدد لذلك الدين. "يتم فتح الأبواب المزدوجة للسماء وتفتح الأبواب المزدوجة للقبة الزرقاء للسماء إلى الإله حورس". وبما أن حورس تمكن من عبور تلك البوابة، فإن روح الملك المتوفى (المتجسد فيه حورس) لا بد له من اجتيازها أيضا.

يمكنك أن تجد كذلك في متون الأهرام ما يساعدك على التعرف على الظروف والحالات التي تحدث مرة واحدة وتكشف الطريقة بكاملها وتهدف إلى إيجاد علاقة مع الممارسة الحديثة للأسرار. وهنا قد يمكن حمل البشارة لروح الفرعون [الملك] المتوفى في ظل الحضور الإلهي إلى جانب الحكام. ويعتبر الحاكم واحدًا من الموظفين الرسميين بالأسرار اليونانية وبعدها المدينة القديمة إليوسينين والأسرار الخاصة بالكهنة، كذلك ومن الغريب والمثير أن تجد ذلك مدرجًا في النصوص القديمة جدًا والتي يرجع تاريخها إلى عشرين قرنًا قبل ميلاد المسيح.

ومن ثم يعتبر الحاكم في الأسرار هو شكل من الأشكال المحددة والموصوفة قبل نحو فترة تقدر بأربعة آلاف عام!

وتوضح نصوص الملك بيبي: انظروا ،،، إنه قادم" مثلما يصرخ بذلك قائلا الحاجب: أيها الحجاب أسرعوا. وتجتمع الآلهة لتحية الحاكم المتوفى ، وقد جاء ذكر حارس البوابة كذلك واسمه متـــن. وعلاوة على ذلك نرى مكان ذلك الحامي كاتبًا إلــهيًا، وفقًا لبعض النصـــوص، ينبعث من الملك المتوفى نفســه. ومن ثم نحن نرى بشكل عملي أن كل شخص بين العاملين بالأسرار الحديثة المحددة يتمتع بنموذج أصلي في هذه الكتابات الأولية لذا فإنك قد تلمس بعض الشك فيما يتعلق بنشأة هذه الأوصاف.

وبمجرد القبول من قبل الإله رع يستمتع الملك بجولة يومية حول الشمس مع الإله، حيث يبحر في قارب الشمس ويتذوق المتع ويستمتع بالمباهج المجيدة للآلهة. والآن أصبح لدينا دليل غير قابل للشك على أن النظام محدد بشكل واضح في متون الأهرام وأن الأسرار كانت في البداية منفصلة تمامًا بل ومتعارضة منطقيًا مع ما هو موجود في عقيدة أوزوريس الذي كان يُعرف بالإله المعبود للموتى ممن آمنوا ومجدوا العالم السفلي. لكن في الوقت ذاته وجدنا بعض التحول المفاجئ؛ فالملوك الذين ورد في صحائف موتهم تأكيد على حريتهم وانفصالهم عن أوزوريس قد نجحوا بمساعدة آخرين ممن يدعون للتوحد معه. وبالتالي كانت هناك مجموعتان من العقائد فيما يتعلق بعالم الآخرة واحدة تتعلق بالحياة مع رع إله الشمس اقتصرت علي الفراعنة [الملوك] وحدهم والمجموعة الأخرى تتعلق بالمستقبل الموحش مع أوزوريس إله الموتي في مثوى الأموات .ولم يكن الإله أوزوريس مجرد تجسيد للنيل، وإلهًا للزراعة والنمو (الإنبات)، بل كان هو ومجموعة الآلهة المصاحبة له يرمزون إلى كل مصري عادي. فتاريخ الإله

أوزوريس، وزوجته الشقيقة إيزيس، يجسدان بشكل أو بآخر "المواطن يوحنا" المصري، وكان أوزوريس بمثابة النموذج الأصلي للمصري القديم، بينما يقف حورس مثلاً للابن المصري النقي وإيزيس مثلاً للزوجة المخلصة. وعندما يموت كل مصري، أو عندما يأمل أن يصبح في مقام أوزوريس، ومع مرور القرون تظهر رغبة الناس في وضع الإله أوزوريس في مرتبة مساوية للإله رع إله الشمس ومن ثم يعطونه نفس صفات الإله رع في أمل أن يجعل من المحتمل عند المصريين بعد الموت أن يكونوا آلهة في مقام أوزوريس الذي يتمتع وحده بالتوحد مع رع.

وفي الفترة المبهمة التي تلت عصر الأهرام [ما يعرف اصطلاحًا بعصر الانتقال الأول] ظهرت هذه الأفكار وازدهرت، بل وزاد البعض من أتباع دين أوزوريس عليها أشياء أخرى. وهو الحدث الذي يوضح الانصهار والاندماج الكامل للطوائف والعبادات والأديان مع رع وأوزوريس وصورة الإلهين وهما في الاندماج والتوأمة في صورة الإله رع – أوزوريس الذي أصبح الآن يملك صفات الإلهين معًا. لكن صورة أوزوريس منتصرًا في النهاية يمكن أن تثير لدينا فيما بعد تساؤلاً بسيطًا.

من الطبيعي أن نجد شخصيات الرحلة السرية المبكرة التي حدثت مع الفرعون [الملك/ الحاكم] كما هي موضحة في متون الأهرام والتي أصبحت حكرًا على دين أوزوريس، الرجل الحامل بالقارب (المعدية) والمخلوقات السماوية الأربعة أو الخيول والمركب الذهبي والمجموعات الأربعة للدين الأولي.

ومع ذلك فإن في وسط تلك المفاهيم فيما بين متون الأهرام وكتاب الموتى نجد كتابات تعرف باسم "متون (نصوص) التوابيت" **Coffin Texts** وتوجيهات الكهنة للموتى المصريين، إذ كانو يدونون هذه المتون علي جوانب التابوت الخاص

بالمتوفى في طقوس مناسبة ليستفيد منه في رحلته إلى العالم الآخر. ويرجع تاريخ هذه النصوص إلى فترة ما قبل تجميع نصوص كتاب الموتى في كتاب واحد كامل النصوص وهو لا يزال يعرض الميل والنزعة التي كانت تتضح في الكتاب والتي تتعلق برغبة الموتى من المصريين بالبحث عن طريقة للتمتع والراحة في رحلتهم إلى الموقع الذي سيتم فيه ممارسة طقوس التوحد مع الإله أوزوريس. وكانت الرحلة بالفعل رهيبة ويمكن أن نتعرف على ذلك من الشعائر والممارسات الخاصة بالأسرار ومن ثم تجد الاهتمام الزائد والإثارة من ناحيتنا لهذه الرسوم والطقوس. يتوقع الجميع أن يجابه الكثير والكثير من المحن والمخاطر في طريقه؛ حيث الطبيعـــة الماديـــة التـــي تعتبـــر تافهة وباطلـــة إذا ما قيســـت بالوسائل الساحرة والسحرية الأخرى.

قسمت هذه النصوص إلى فصول مثل "كيف يمكنك أن تصبح ساحرًا" و"كيف لا تفقد السحر في العالم الآخر" و"كيف يمكن للشخص ألا يفنى بالعالم الآخر" وهكذا. وهذه الأمور كلها تتعلق بالأفكار الغريبة الخرافية لدى الأشخاص لما يتوقع أن يحدث من حالات ضياع وعقوبات مرعبة وشديدة قد تقع بين ساعة الموت وميادين الحساب الفعلية حيث تكون بسيطة، علاوة على ذلك يتضح أنهم قد يجدون طريقهم بالأسرار التالية. إلاّ أننا يجب أن نفطن ونأخذ في الاعتبار أنه نادرًا ما كانت مسألة الإيمان بسيطة بالنسبة لبقية الرواية الأسطورية أو الرمزية. ولعل تراث هذا الدين بالنسبة إلى الأديان الأدنى كانت متعاقبة بشكل مستنير. ومن الجيد أن نذكر أن بعض المجاز أو الاستعارة قد يكون رمزيًا في هذه الأمور خاصة في وصف الأخطار التي تحيق بالروح الخالدة وبمساواة الروح المتألمة إن لم تكن شخصية متأثرة. بالفعل يبدو من الواضح أنه في الفترة التالية الأكثر تطورًا فيما يتعلق بالأسرار لهذه الأمور المرعبة، وبمجرد قبولها بشكل كامل بالحس المادي، فإنها تعتبر رمزية ويمكن التعامل معها بالحس المادي وهي خطيرة على

الروح بشكل أكبر بكثير من تلك الأفكار الشعبية البدائية من وادي النيل. ومع ذلك فإنها قد تكون أكثر تحقيقًا إن قمنا بمراجعة هذه الأفكار كما وجدت واكتشفت في كتاب الموتى ذاته حيث تجد الاستمتاع المطلق.

يعتبر كتاب الموتى كتاب سحري إلى حد أنه يصف الممارسات والسحر الخاص بكل يوم من أيام المتوفى في حياته الأخروية حيث يوضع مع المتوفى عند دفنه من أجل مساعدته على النجاة من الهلاك في هذه الرحلة التي يقطعها نحو العالم الآخر باستخدام وسائل مثل الابتهالات والأدعية السحرية. ومعظم النصوص المندرجة في العمل كما نعرفها في الوقت الحالي في شكل واحد أو في أشكال أخرى تعتبر أكثر قدمًا إلى ما قبل عصر الأسرات. حتى في بداية تاريخ ٣٣٠٠ قبل الميلاد فإن الكتبة ممن نقلوا النصوص القديمة كانوا في حيرة من محتواها ونادرًا ما تعرفوا على معانيها.

تذكر النقوش المحفورة على تابوت الملكة ختم نفرت زوجة مونتوحتب(*) أحد ملوك الأسرة الحادية عشر (تقريبًا ٢٥٠٠ قبل الميلاد) أن فصلاً محددًا من كتاب الموتى "عُثر عليه في فترة حكم حسب تي وهو ملك حكم في عام ٤٢٦٦ قبل الميلاد" وهذا في حد ذاته أمر كافٍ لنعرف المكانة التي وصل إليها التفكير الديني في العصور القديمة، فهذا الكتاب يعود إلى أربعة وخمسين قرنًا على الأقل قبل الوقت الحالي. كما أن كتاب الموتى عُرف في شكله المجمع الذي هو عليه حديثًا في الأسرة السادسة أي حـــوالي ٣٢٣٣ قبل الميلاد(**)، وعلى الرغم من عدم

(*) مونتوحتب هوالملك نب حبت رع مونتوحتب الذي ينسب له أوائل الأسرة الحادية عشر فضل الانتصار السياسي والعسكري لمملكة طيبة علي مملكة أهناسيا (شمال صعيد مصر) وإنهاء حالة التمزق السياسي وتأسيس عصر الوحدة المركزية الثانية في تاريخ مصر المعروفة باسم عصر الدولة الوسطي(المراجع).

(**) التاريخ المذكور مبالغ فيه ولا يتفق مع ما نعرفه زمنيا لعصر تلك الأسرة حوالي ٢٣٤٥-٢١٨١ق.م (المراجع).

وجود نصوص واضحة عن هذه الفترة إلاّ أن وجود العديد من الفصول الخاصة بهذا الكتاب بمتون الأهرام أثبتت أن الأمر كان شائعًا ومنتشرًا.

وكما لاحظنا وأشرنا سابقًا فإن كتاب الموتى يصبح رفيقًا للمتوفى يستخدمه بمجرد انتقاله إلى العالم الآخر. وكان للسحر دور بل كان النابض الرئيسي للوجود في تلك الحياة الآخرة وما لم يتم إطلاع الروح على الوصفة التي يجب اتباعها والتي تجلب الاحترام للآلهة المتنوعة والأرواح المختلفة وحتى الكائنات غير الحية فقد تكون بلا فائدة. وكانت المنطقة التي تخرج منها أرواح المصريين القدماء تسمى دوات ومعناها العالم الآخر، وقد اعتقد القدماء أن تلك المنطقة تمثل جسد أوزوريس، وكان يشار إليها بالمنطقة الكئيبة والمظلمة وتحتوي على حفر النار إلى جانب الوحوش البغيضة التي تدور حول الأرض وترجع عبر البحر وسلاسل الجبال. وكان القدماء يعتقدون أن جزءًا من تلك المنطقة يقع بالقرب من مصر، وهو الصحراء القاحلة والغابات، حيث إن روح المتوفى لا تأمل في النجاة ما لم يتم إرشادها وتوجيهها بمعرفة بعض الأرواح الكريمة التي تعلم سبل النجاة من يم الهلاك. ففي هذا اليم المظلم، حيث يغطي الظلام كل شيء، ولا تكون الغلبة إلا لسكان هذا المكان الذين يقذفون الرعب في قلب المتوفى الذي حل عليهم في عالمهم، أي عالم الآخرة، لا يملك المتوفى حينئذٍ من سبيل لمواجهة هؤلاء إلا بتمسكه بكلمات ذلك الكتاب، كتاب الموتى، فبه فقط يستطيع أن يظهر لهم مكانته وعظمته التي تتجلى وتفوق قدرهم بكثير.

ووسط كل ذلك الظلام والمكان المروع هناك منطقة الفردوس (أو الجنة الأرضية)، أو ما تسمى سخت حتبت، التي تضم منازل النعيم أو ما تسمى نسخت آلو (أو حقول البوص)، حيث يسكن الإله أوزوريس ومجمع آلهته. ففي البداية كان أوزوريس يبسط سلطانه على هذا الجزء فقط من العالم الآخر، لكنه نجح في توسيع سلطانه وملكوته ليشمل كل العالم الآخر، أو عالم الموتى، ونصّب نفسه ملكًا عليه.

ونجد كذلك إله العالم الآخر المسمى دواتي، لكن هذا الإله مجرد رمز للعالم الآخر ليس إلاّ. والآن فإن أمنية كل الرجال الصالحين أن يفوزوا بالحياة في جوار مملكة أوزوريس فلأجل تلك الغاية نذروا حياتهم قبل الموت وتعبدوا، وقرؤوا في كتاب الموتى حتى يتسنى لها اجتياز موارد الهلاك إلى منازل السعادة والنعيم المقيم. ويمكن الوصول إلى هذه الغاية بأحد طريقتين – عبر الأرض وعبر الماء. والطريق الممتد عبر الماء أقل فزعًا ورهبة من ذلك الطريق الممتد عبر الأرض فالمسار الأرضي الذي تسلكه الروح تقابل فيه شوبًا من الحميم، وماءا كالمهل يشوي الوجوه، وأفواجًا مقتحمة من أرواح الشياطين.

يخبرنا كتاب الموتى أن هناك سبع قاعات في "حقل البوص"، ويجب على الروح المرور منها جميعًا قبل أن تصل إلى الإله نفسه. كما أن هناك ثلاثة حراس يقومون بحراسة باب كل قاعة – حارس الباب والرقيب والسائل. وعلى المتوفى أن يذكر كل إله باسمه وصفاته. كما كان هناك أسماء لكل باب ويجب حفظها وعدم نسيانها. واسم كل إله عبارة عن مجموعة حروف تتكون من عدد من الكلمات. أضف إلى ذلك تقسيم منازل النعيم إلى حوالي ١٥ منطقة وعلى كل منها إله يرأسها. وكانت أولى المناطق تسمى أمننت التي كان يطول فيها مقام الأرواح القادمة من ذرية البشر. والمنطقة الثانية سخت آلو وهي الخاصة بمنازل النعيم ومن حولها الجدران تحيط بها والمكونة من المادة التي صنعت منها السماوات، وفيها يتعامل الملك رع حورأختي مع الأرواح، ويمثل هذا المكان مركز مملكة أوزوريس. والمنطقة الثالثة هي مكان الأرواح ومنطقة النيران. والمنطقة الرابعة بها الثعبان المرعب ساتي تيموي الذي يتغذي علي المتوفى القاطن في العالم السفلي (الدوات). والمنطقة الخامسة مسكونة بالأرواح التي تتغذى على ظلال الضعفاء والأرواح العاجزة. ويبدو من وصفها أنها كمصاصي الدماء. وكانت المناطق المتبقية شبيهة إلى حد كبير بها.

كما نجد كذلك أوصافاً أخرى للعالم الآخر (السفلي) (الدوات) في كتاب البوابات(*) وكتاب الإله الموجود في العالم الآخر[الايمي دوات في اللغة المصرية] وهو يلخص الرحلة التي يقوم بها إله الشمس في العالم الآخر بعد أن ينتهي من العالم الأرضي. فهو يقوم من فوره بعد الغروب باتخاذ شكل أوزوريس وهذا الشكل بهيئة الكبش برأس بشريـــة هنا عبارة عن كساء رأس الرجل. وبقدومه إلى حجرة العالم الآخر الرئيسة يتم الإعلان عن دخوله بترانيم التمجيد ومن فوقه الآلهة الممثلين ومن حوله تنفث الثعابين النيران من فمها وأمامه الآلهة تقوده وترشده تحت الضوء. ثم تفتح كل الأبواب وتُبعث الروح في المتوفى من هواء الأرض الذي يحمله أوزوريس معه ويعود إلى الحياة مرة أخرى لفترة وجيزة. وينعم كل مخلوق في هذا الجزء من العالم الآخر باللحوم والمشروبات بأمر من الإله. أما من يموت في هذا الجزء فهم ممن أخفقوا في تجاوز الاختبارات المحددة للدخول إلى الساحة وكل الموجودين هنا هم المنعمون الذي ينعمون بمرور الآلهة عليهم كل يوم.

عندما تصل الشمس التي هي في شكل أف - رع إلى مدخل الجزء الثاني من العالم السفلي (الدوات) والذي يسمى أورنيس، تنفصل آلهة القسم الأول عن المتوفى ولا يتبعونه بعد ذلك ولا يشاهدونه حتى الليلة التالية. عند هذه النقطة يأتي قارب أف - رع ليتقابل مع قوارب أوزوريس والآلهة المصاحبة له، وفي هذا المكان يرغب أوزوريس في أن يتناول المتوفى الطعام وأن يستمتع بالضوء وأن يستنشق الهواء. وهنا تتشبث الثعابين هاو ونيها - هير كما يفعل معظم آلهة الشمس خلال هذا الوقت الذي يحل فيه الظلام، ولكن الآلهة تتغلب عليهم ثم

(*) كتاب البوابات أو ما عرف في النصوص المصرية "سبخــــتيو" أحد المصادر الدينية من عصر الدولة الحديثة التي استرشد بها المتوفي في رحلته عبر العالم السفلي (المراجع).

يتجهون بالمتوفى إلى حقل آلهة الحبوب، حيث يهجع قليلا. وحينها يصغي إلى صلوات الأحياء لصالح الموتى ويتلقي القرابين التي يقدمونها.

ثم يتابع المتوفى رحلته ويجتاز الإثني عشر قسمًا في العالم السفلي. ونرى في بعضها ما نعتقد أنه العوالم المنفصلة للموتى مثل عالم الإله سوكر(*) وهو الإله الذي ربما يكون أقدم من أوزوريس. وفي هذا المكان يترك قاربه ولا يستخدمه حيث لا يوجد نهر يسبح بقاربه عبر مملكة سوكر المظلمة التي تظهر مغايرة تمامًا لمملكة أوزوريس. ثم يكرر بعضًا من كلمات القوة العظمى التي تدفع آلهة المكان إلى إرشاده وتوجيهه عبر الممرات الخفية والتي ينطلق منها إلى أمهيت حيث يفور ماء المُهل، ولكنه لا يخرج من مملكة سوكر ويستمر حتى يصل إلى القسم السادس، حيث ملوك مصر الأموات و"كاو" أو الأرواح الروحانية (القراني جمع قرينة). وهنا وعند هذه النقطة يتحول بوجهه صوب الشرق ويشق طريقه إلى جبل شروق الشمس، وقبل ذلك يكون قد مضى في رحلته من الجنوب إلى الشمال. وفي القسم السابع تلحق إيزيس والآلهة الأخرى بالمتوفى. ونجد هنا أن طريقه يعوقه الثعبان أبوفيس الخبيث حيث توجه إليه الآلهة سهامها. وتصاحب المتوفى مجموعة من الآلهة إلى القسم الثامن، إلاّ أن مركبه يبحر منفردًا إلى القسم التاسع والعاشر والحادي عشر، وهو يمر فوق سلسلة من البحيرات التي تمثل أغوار الدلتا الشرقية. وفي القسم الأخير نجد أن موقع المتوفى به مكان مضيء تطوقه بعض الآلهة ممن يرتاحون على مقدمة القارب.

ويحتوي القسم الثاني عشر على مقدار كبير جدا من المياه السماوية التي تسمى نو وهنا نجد نوت التي تجسد الحزن. وقبل أن يكمل القارب فإن الثعبان

(*) سوكر أحد أهم الآلهة الجنائزية في مجمع الآلهة المصرية ،، وربما رجح أنه الأصل اللغوي للاسم المعروف لجبانة سقارة الحالية أيضا (المراجع).

العظيم عنخ نترو يمسكه اثنا عشر إلهًا من الآلهة بالحبل ويسحبونه من ذيله، ويخرجون الإله أف – رع بقاربه من فم هذا الثعبان لكنه لا يكون الإله أف – رع بل يتحول إلى خبري (إله الشمس عند الشروق) ويُسحب إلى السماء بشكله هذا بمعرفة اثنتي عشرة إلهًا يقودونه أمام شو إله الجو للعالم الأرضي. ويضعه شو في فتحة جدار نصف دائري يمثل انتهاء الأقسام الاثني عشر وهو الآن يظهر أمام الأعين كموقع مضيء وقد تخلص من شكله الغريب الباهت في العالم الآخر. ثم يتقدم ومن خلفه هتافات الآلهة المصاحبين له الذين يقهرون ويدمرون أعداءه وهم ينشدون الترانيم التي تمجده.

في أحد فصول كتاب الموتى، نجد أوزوريس جالسًا في مقصورة سقفها تغطيه النيران ورموز الحقيقة، وأمامه رمز أنوبيس وأبناء حورس الأربعة والملتهمة المؤتمرة بأمر أوزوريس يقبع أمامه ليحميه، وفي الخلف من مقعد أوزوريس يجلس اثنان وأربعون قاضيًا يحكمون بين الموتى. وفي هذا المشهد يظهر المتوفى أمام الإله، بينما نجد قلب المتوفى موضوعًا في إحدى كفتي ميزان يمسك به أنوبيس، وتحوت وهما كاتبا الآلهة اللذان يقومان بكتابة أعمال المتوفى على طاولة الإله. وبعد ميزان

قلب المتوفى وعرض النتيجة على أوزوريس، فإذا وجد أن المتوفى يستحق النعمة فإنه يمثل أمام الآلهة ويكرر صلواته ويطيل ويقر في صلاته تلك بذنوبه. أما من لا يستطيع أن ينجو من هذا الاختبار والابتلاء وهو ميزان القلب، فإنه يصبح في خطر داهم إذ يكون قلبه عرضة للالتهام من قبل الملتهمة (مما يعنى الفناء الكامل للمتوفى وعدم تمتعه بالأبدية والخلود).أما من نذر حياته لخدمة الإله أوزوريس وغيره من الآلهة، فإنه يظهر في هيئة تشابه تمامًا هيئة كبار المصريين. ووفقًا لكتاب الموتى، فإن المتوفى قد يحول نفسه إلى هيئة أي حيوان كان يرعاه قبل مماته.

وإذا نظرنا إلى حياة المتوفى المبجل الذي كان يخلص في عبادته قبل الموت، فإننا نجدها محاطة بالأسرار، وليس لدينا عنها أي علم سوى المكتوب في مقبرة باحيري، أمير الكاب (موقع بجنوب صعيد مصر) وقد ورد في تلك الكتابات ما يلي: "يا من دخل الحياة وخرج منها بقلب سليم، وأسبغت الآلهة عليه نعمها....أنت الآن روح خالدة الحياة، تسري مشيئتك على الخبز والماء والهواء. ستصير ذاتك أسطورية تتمثل في طائر السنونو، أو العصفور الصقر، أو طائر البلشون، أو في أي صورة تشاء. سوف تعبر في القارب (عبر السماء/ الأرض) سوف تبحر عبر الماء عند فيضان النهر. سوف تبعث من جديد ، ولن تنفصل روحك عن جسدك. سوف تتحاور معك الأوراح الصالحة،،، فعيني هي عينك التي تبصر بها، وأذني هي أذنك التي تسمع بها، وفمك لك، وساقاك لك، ويداك وذراعاك لك تفعل بها ما تشاء، ومن الآن حرام على لحمك الموت، وحرام على أوردتك العطب، ولتتمتع بجميع أعضائك. وقلبك الآن في سموه حيث تسمو أنت فهو ملكي، أما قلبك الذي عشت به حياتك الدنيا فهو لك. لقد ارتقيت إلى السماوات، وستدعى كل يوم إلى مائدة ون- نفر (أوزوريس) للتكريم، وستنعم بما ينعم به الإله من قرابين والقرابين التي تقدم لآلهة القبور".

يمثل هذا الجزء المقتبس من كتاب الموتى صورة تمثيلية واضحة لمرور الشمس عبر العالم السفلي، وطبيعي أن يكون مشهد غروب الشمس قد أثار في فكر الإنسان البدائي فكرة ذهابها إلى العالم السفلي حيث يسكن الضياء لساعات كئيبة، وهذا لأن الشمس بالنسبة للإنسان الأول كانت كائنًا حيًا. فقد تمكن الإنسان الأول من مراقبة الشمس في السماء، واستمد منها الضوء وغيره من المنافع التي كانت كلها موارد خير بالنسبة له. وقد رسخ لديه أيضًا أن مهمة الشمس النهارية، يعطلها أحد الأعداء حتى لا تكون موجودة بالليل، ومن ثم كان لابد من وجود إله للشمس يحميها من الأعداء ومن كل من يتربص بها. وكان هذا العدو الذي يمنع مهمة

الشمس في الليل على صورة تنين يقضي الليل يحارب ضوء الشمس ويتغلب عليه، إلى أن تتدخل آلهة العالم الآخر وتحارب هي التنين وتهزمه وتلقي به في الجحيم وتشرق الشمس من جديد.

ولنلخص الآن ما ذكرناه من مصادر نصية كُتبت عن الأسرار المصرية والتي ذكرناها في الفصل السابق وفي هذا الفصل، ولننظر إلى أين ستأخذنا.

خلاصة ما كتبه بلوتارخ هي أن أسرار عبادة إيزيس تجهّز الإنسان وتعدّه للمعرفة التي تميز العقل العلوي، إذ أن الآلهة تعطي المعرفة لأتباعها الذين يحملون السر المقدس الخاص بالآلهة في أنفسهم، ووحده يستحق لقب العابد الحقيقي كل من يبحث، بعد أن تطلعه الآلهة على السر، عن الحقائق الخفية التي تختبئ خلف هذا السر. وقد تحققت "المشاهدات التطهرية" المرتبطة بالفتوح الإلهية من خلال السعادة الأبدية بعد الموت لتُبقي على قيمة ما تبقى عبر التاريخ، أو لتمثل ظواهر الطبيعة. لكن مثل هذه الفلسفة مبنية على الحكايات الخرافية والرمزية، ولا تعكس إلا ظلال الحقيقة وليست الحقيقة نفسها. ومع ذلك، فإن هدفها أولاً وأخيرًا هو وضع أفكار حقيقية متسقة عن طبيعة الإله.

ربما كونت أسطورة إيزيس، كما أسهب في وصفها بلوتارخ **Plutarch**، خلفية أسرار هذه الآلهة. لكن في الوقت نفسه يحذرنا بلوتارخ أن هناك فرقًا كبيرًا بين قصة أوزوريس التي كتب عنها، وبين قصة أوزوريس الشائعة بين الشعراء، وكتّاب الملاحم، فروايته هو هي "انعكاس لحدث حقيقي"، وهو ما يدلل عليه الكهنوت المصري، والطقوس التعبدية المرتبطة بأعياد أوزوريس.

أما يامبليخوس **Iamblichus** فيقول لنا إنه من المهم جدًا لفهم نظام الرمزية المصرية تجاوز الطبيعة المادية، وكشف الأسرار الروحية التي تختبئ خلف الصور الأسطورية الظاهرة، تلك الصـــور التي قد تبدو ساذجة في ظاهرهـــا.

وذلك لأن المصريين استطاعوا الوصول والارتقاء إلى آفاق علوية بعيدة تفسر كنه الكون والإله، ووصلوا إلى ديميرجوس، "ولم يعتمدوا على المادة ولا على أي شيء يشبهها، إلا فيما يتعلق بالزمان". وقد ذكر هذا السبيل الإلهي من قبل هيرميس Hermes ، أما بيتي، رسول آمون، فقد شرح هذا السبيل. (ويشير هذا بوضوح إلى بعض النصوص الهيروغليفية التي وجدها ذلك الحكيم في معبد سايس، لكنها قد فقدت الآن)، فكنه الخير كل الخير موجود في الآلهة وفي قوتها، ومن ثم أنعمت الآلهة بهذا الخير على الكهنة. فالكاهن هو "الإنسان الرباني" الذي وصل إلى تلك المكانة بعد أن توحد بالآلهة ورآها، ثم دخلت روحه بعد ذلك في روح أخرى، "تستطيع أن تتكيف في حد الجسد البشري وتسري عليها أحكام القدر. ثم بعد ذلك تأتي رحلة الموت التي تخلصه من هذا الحد البشري، وقيود الجسد". وهنا يأتي دور معرفة الآلهة، فمعرفتها هي السبيل الذي تسمو به الروح في الحياة وبعد الممات، لأن المعرفة العلمية للخير هي طريق النجاة. كما أن خداع الشيطان للإنسان يؤكد في حد ذاته فكرة وجود الشيطان والشر، ومن هنا نعرف أن الخير من الإله، أما الشر فهو من الشيطان، بمعنى أن معرفة الخير هي معرفة الأب (الإله)، ومعرفة الشر والخوض فيه هي البُعد عن الإله. والخير هو الذي يحقق الحياة الحقيقية للروح، أما الشر فهو ما يهوي بالروح إلى العذاب المقيم.

والخير هو باب الوصول إلى رب الأرباب، أو الوصول إلى بوابة قصور النعيم. والمرحلة الثانية بعد المعرفة هي التوحد بالقوة المطلقة، ومع رؤية الخير، يحدث التوحد بالآلهة. والأكثر من ذلك أنه بعد عرض الروح على طبقات الكون، تذهب الروح إلى رب الأرباب، ومن ثم تتوحد بالإله الأبدي الوجود.

ننتقل بعد ذلك إلى المبحث الذي قدمه أبوليوس **Apuleius** الذي قدم فيه قضية مهمة جدًا عن شعائر الأسرار المصرية. لوكاس (لوسيوس) أو التحولات، حيث يستطيع لوكاس بطل الرواية الذي خط اسمه بين العباد المقربين

(الجنود المخلصين) للإلهة إيزيس، والذي أقام (سكن) في معبدها، ونذر نفسه لخدمتها، وقطع العهد على الحفاظ على الأسرار قد زارته – وفقًا للرواية كما عرضنا – الإلهة إيزيس في منامه، وأعطته البشارة أنه سيصل إلى الأسرار، لكنه يجب عليه الانتظار والصبر إلى الوقت المعلوم. وكما رأينا في تلك الرواية أن الرغبة في السمو بمثابة الموت التطوعي ليحدث الميلاد من جديد. ويبدأ حساب المدة الزمنية التي تمر من تلقي أمر الإلهة إلى تحقق السمو. ورأينا أيضًا كيف أن الكاهن قد علم لوكاس كتبًا بعينها مكتوبة باللغة المصرية القديمة ، وعلمه أيضًا ما كان يبدو وكأنه طلاسم أو تعاويذ لا يمكن لأحد أن يفهمها إلا من يؤتى ذلك العلم الرباني. بعد ذلك رأينا لوكاس (لوسيوس) وهو يغتسل ويتطهر، ثم يأتي الكاهن وينضح عليه الماء وكأنه يعمده، ثم أسبغ بعد ذلك عليه الأسرار المقدسة، وكتب عليه الصوم لمدة عشرة أيام. ثم جاء المساء وتلقى لوكاس (لوسيوس) الهدايا والعطايا بمناسبة سموه، ثم لبس بعد ذلك طيلسانًا، ورداءً من الكتان، ثم حضر إلى قلب المكان المقـدس. ثم يموت الجسد البشري القديم، ويدخل في حضرة بروسبرين، ويولد من جديد عبر كل العناصر ويعود ثانية إلى الأرض. لقد رأى الشمس وهى تشرق على موت الليل، ورأى الآلهة وقدم لها طقوس العبادة وجهًا لوجه. وفي الصباح، تتم المراسم، ويتزين بالطيلسان المزخرف بشتى الصور والرموز، ويقف في مقصورة ومعه قنديل في يده، وعلى رأسه تاج من سعف النخيل. ويلتف الناس من حوله وينظرون إليه ويطيلون النظر، ويتبع ذلك المشهد مجيء مائدة كبيرة، ويتحقق سموه إلى الملكوت الأعلى في اليوم التالي بعد أن يكون كسر صيامه.

ويتضمن كتاب الموتى الذي سبقته إلى ذلك نصوص (متون) الأهرام الطريقة التي نجح بها ملوك مصر في أن يحققوا التوحد بالآلهة. فبعد موت الملك، تذهب روحة لتتطهر في البحيرة المقدسة، أو الاغتسال بماء النيل، ثم يعبر المتوفى

بحيرة الليلي (الزنبق/ السوسن) في مركب الشمس. ويصعد في مركب الشمس إلى الشمس ويصل إلى مدينة الشمس، بعد أن يفتح أبوابها بالابتهالات والتراتيل السحرية، ويعلن عن مجيئه حراس المدينة. ثم تأتي بعد ذلك متون التوابيت ، وتصف ما تلاقيه الروح بعد رحلة الخلود. وفي كتاب الموتى **Book of the Dead** نفسه نجد تلك الأفكار السابقة قد تقلصت وانحصرت في مركب الشمس كطريقة للوصول أو صيغة أخرى محددة تصير إليها الروح بعد الموت. وليس من الضروري الآن أن نعيد تمثيل وفهم تلك الصورة في هذا المقام، فسنقدمها بالتفصيل في الفصول التي تتعامل مع الأسرار التعبدية حيث سنراها جلية في كتابات أبوليوس فيما بعد.

ولنحاول هنا أن نصل إلى فهم وصياغة لما كتبه بلوتارخ ويامبليخوس لنصلح أي عوج في أفكارنا عمّا كتباه فقد تعامل الأخير مع الأساس الروحي أو "الكهنوت" الخاص بالأسرار بشكل علمي متسق. لقد عاش بلوتارخ في الفترة الزمنية التي كان فيها لا يزال يعيش المصريون الأوائل أصحاب تلك الديانة أو الأسرار، وبالفعل سافر إليهم، أما يامبليخوس، فقد كان كاهنًا، ولأنه كذلك، فقد كان لديه علم ومعرفة بالأولين كالإليوزينيين وغيرهم من أصحاب الأسرار، واستطاع بعقله المفكر أن يجمع ويستنبط الكثير عن الأسرار المصرية، والتي كتب عنها بصورتها التي بقت في عصره وهو القرن الرابع.

ففي كتابات بلوتارخ نجد ما يلي:

١) أن عبادة إيزيس كانت تحضيرًا لنيل معرفة العقل الأسمى.

٢) وأن أتباع إيزيس، الذين يحملون المذهب المقدس "مقيدون داخل أرواحهم"، يدرسون تاريخها أو أسطورتها ويبحثون عن الحقائق الخفية.

٣) وأن "مراقبتها التطهرية" أو الأسرار تهدف إلى الإبقاء على المعنى القيم لمسارات التاريخ، وتمثل ظاهرة الطبيعة.

٤) وأن تلك الفلسفة تختبئ خلف صور خرافية ورمزية، وهدفها هو تكوين أفكار حقيقية عن الطبيعة الإلهية.

أما في كتابات يامبليخوس نجد ما يلي:

١) أن الرمزية المصرية قائمة على أساس روحي.

٢) من خلال الكهنوت المقدس لتلك الرمزية يستطيع المرتقون إلى منازل سمو الأسرار في مصر، مع مراعاة الزمن الملائم[1]، أن يحلقوا في فضاء التوحد الإلهي.

٣) أن كل الخير يكمن في الآلهة، وأن قوة هذا الخير ممنوحة للكهنة.

٤) وأن الإنسان الرباني، الذي توحد من قبل بالآلهة بعد أن رآها، يسقط من الناحية الجسدية، وتأخذ روحه صورة أكثر بشرية تسري عليها أحكام القضاء والقدر.

٥) وأن التحرر من تلك القيود تتحقق فقط بالمعرفة العلمية عن الآلهة.

٦) وأن الخطوة الأولى لتلك الحرية هي المعروفة بباب رب الأرباب، والخطوة الثانية هي التوحد بالقوة العاقلة التي هي قوة الإله، ورؤية تلك القوة، والخطوة الثالثة هي التوحد بالآلهة نفسها. والآن أصبح من الواضح من تلك الكتابات أن بلوتارخ ويامبليخوس يكملان بعضهما، إذ أن كتابات بلوتارخ أكثر منهجية ووصفية للعقيدة، أما يامبليخوس فكتاباته نفسية ومعرفية وتنصب على الأثر الواقع على الروح. ولكي تتضح الصلة بين الأمرين يجب أن نوضح المزيد من الأوجه، وسنجد ذلك التوضيح مفصلاً في الفصل بعنوان فلسفة الأسرار.

---

(١) بالطبع يشير هذا إلى الطرق الفلكية التي ألمح إليها يامبليخوس.

الفصل الرابع

أصل الأســـرار

ربما كان طول الأمد وتقادم الزمان سببًا في ضياع أصل الأسرار المصرية، وإن كنا نميل إلى أكثر مما هو مقصود من وراء ذلك المصطلح، إذ أن منشأ تلك الأسرار كان الممارسة الدينية أو إن شئنا التعبير بالمصطلحات الحديثة كان الممارسة البطريركية مع عموم الآلهة، ثم اتخذ الأمر منحى آخر بعد أن أصبح له أصول وقواعد تتّبع، وأصبح له ممارسات وشعائر وصور رمزية تتم بإرشاد وهدى الكهنة. وبالطبع، كان ذلك بمثابة ابتعاد عن بساطة الأمر وفعاليته ابتداءً، ومع ذلك ظلت الأسرار قرونًا من الزمان يُنظر إليها على أنها التعبير البشري الأسمى الذي يوجه الروح البشرية إلى غاية الصلاح التي وجدت من أجله.

وإذا نظرنا إلى الشعوب البدائية في آسيا وأمريكا وأفريقيا وأستراليا، سنجد أن أنواع الجنوح إلى الاعتقاد بالسرية أو إحاطة أمور التدين بالأسرار وقصر المعرفة به على أناس بعينهم كان سائدًا في تلك المناطق، ولعل الدليل المؤكد ليس فقط على وجود الدين القائم على الأسرار في كل مكان في العالم، بل على أن نشأة مسألة إحاطة أمر التدين بالأسرار يكمن في بلد النيل، بالرغم من أن هناك افتراضات بأن نشأة أمر الإيمان كان في الغرب، ربما في إسبانيا أو شمال غرب أفريقيا، وحتى إن سلمنا بذلك فلا شك أن أقصى نمو واكتمال لمسألة التدين تلك كان في مصر التي تُعد أشهر رمز في التاريخ لتحقق تلك المسألة.

إن العلاقة بين الأسرار والديانات الخاصة بالمعتقدات الأولية، كالطوطومية والأرواحية [مذهب حيوية المادة] وما إلى ذلك من معتقدات، تلك العلاقة تثير سؤالاً صعب الإجابة. فللنظر مثلاً إلى أبحاث لانج Lang الذي أوضح أن حتى الأجناس البدائية التي بحث فيها علم الإنسانيات (الأنثروبولوجي) كان لديها معرفة بالآلهة، أو بإله واحد يمنح "قواه" أو صفاته الإلهية إلى جماعة ما أو للباحثين عن الحقيقة. ولكن أيًا كان الاعتقاد سواء كان سابقًا على الطوطومية أو الأرواحية أو لاحقًا عليهما، يظل أمر الدين غير واضح. فبعض الآراء المعتبرة ترى أن الطوطومية، وهي عقيدة تقول بوجود علاقة أكيدة كعلاقة الدم والنسب تربط بين كل الأحياء وبين موجودات الطبيعة، ما هي إلا مرحلة متأخرة من مراحل التدين، أو حتى مرحلة متدنية منه، في الوقت الذي يرى فيه البعض الآخر أن تلك العقيدة ربما صاحب وجودها وجود عقيدة الإله الواحد. لكن كل القرائن تشير إلى أن تلك العقيدة، أقصد الطوطومية، سابقة في الوجود؛ لأن طبيعتها تشير إلى انتشارها ووجودها القديم. وإذا ما نظرنا إلى العقيدة الطوطومية، نجدها سابقة ومصاحبة أيضًا لمسار ممارسة الأسرار في مصر القديمة وفي غيرها على مر أجيال عديدة.

لكن يجب ألا يدفعنا ذلك إلى الوقوع في خطأ الاعتقاد بأن مجيء الآلهة المصرية على شكل حيوانات كان بسبب تأثر الديانة المصرية بالطوطومية خاصة في فترة الأسر الراقية، فصحيح أن الديانة المصرية في صورها الأولى كانت شبيهة جدًا بالطوطومية، ولا شك في ذلك، لكن مع الوقت ومع مرور الزمن ورقي الثقافة المصرية، أصبح للديانة المصرية رموزها ومرجعيتها وصورها المميزة التي تميزها عن الطوطومية. وهناك دليل أكثر وضوحًا يدلل لصحة هذه النظرية. فالطوطومية أو على الأقل الجانب "الديني" منها، بغض النظر عن الجانب الاجتماعي، ارتبطت بفكرة التضحية والفداء، وارتبطت أيضًا بتوحد العابد أو الناسك بإله على شكل حيوان يؤكل لحمه في طقوس خاصة معلومة الموعد على

مدار التقويم الزمني. وقد استطاعت تلك الفكرة في حد ذاتها أن تبقي على وجودها في ممارسات الأسرار وفي الديانات الراقية أيضًا، وتتوارثها القرون، وإنا لنجد هذه الفكرة في الديانة المسيحية نفسها، وكلنا يعرف ذلك؛ فتلك الفكرة في أنقى صورها، أو في صورتها الخام موجودة بالفعل في ممارسات الديانات الراقية حيث تمهد الطريق لفكرة الروحانية أكثر من المادية، بمعنى أنها تمهد الطريق إلى فكرة توحيد الإله.

وفي كل الديانات والعقائد، راقية كانت أو بدائية، وفي روحانياتها وممارساتها وأفكارها أيضًا، نجدها تتفاعل جميعها مع بعضها، رفضًا وقبولاً وامتزاجًا مع الوقت. ولكن كل هذه الديانات والعقائد كان بها لمسة من لمسات السحر، إذ كانت أكثر ميلاً إلى السحر في انتقاص قدرها عنها إلى الدين، وذلك الانتقاص يرجع إلى أن بدايتها كانت تعتمد على الخرافة. فالديانات شأنها شأن أي فكر أو علم بدائي تبدأ بشكل تجريبي، لأنها لابد أن تُجرب أولاً، وحتى في عصرنا الحالي، نجد أن الأفكار البشرية وكأنها تقف على رمال متحركة في صورتها الأولى، وأن أساس أية فكرة يمكن أن يتغير هو نفسه عند الضرورة، فما بالنا بالفكرة نفسها؟ لكن السحر، وهو يتلمس طريقه عبر التاريخ، كان له أثر خرافي على الحضارات في مهدها، ويجب ألا ننظر إليه نظرة ساخرة، لأن من يفعل ذلك فهو بالضرورة يسخر من نشأة وتطور الدين أو العلم، والعلم قرين الدين. فقد كان الهدف من السحر، حتى وإن أخطأ الطريق هو الوصول بالناس إلى النور، وطبيعي أن عثرات العمى ليست جرمًا، وحتى الجهل لا يخلو من ومضات الذكاء، فكل فعل سحري، وإن كنا نراه عيبًا الآن، كان خطوة في الظلام نحو المعرفة، التي تمثلت وقتها في آلهة السحر العليا.

وقد وُجدت آثار الأسرار في العصر الحجري القديم [العصر الباليوليثي] في دوردون وفي كل مكان في فرنسا وفي إسبانيا أيضًا وهو ما أوضحه الباحثون من

علماء الآثار القديمة من أمثال أوزبورن وماكاليتسر وأوبريمير وغيرهم من علماء الآثار، ففي الكهوف التي تعود إلى العصر الأورجناسي (المرحلة الثالثة من العصر الحجري) في دوردون تظهر تلك الآثار على وجه الخصوص، فجدران تلك الكهوف تغطيها رسومات الحيوانات – الغزلان والفيلة والأحصنة ومما لا شك فيه أن تلك الرسومات كانت لها دلالة دينية، وكذلك تماثيل أو "أصنام" الآلهة، كان من بينها ما يُعتقد أنه تمثال "الأم العظيمة" وهو تمثال يحمل في دلالته نفس ما يحمله تمثال إيزيس المعروفة لدى اليونان باسم ديميتر من دلالات، وقد وجدت هذه التماثيل بالقرب من مواقع الكهوف. كل هذا يعد دليلاً على وجود فكرة الارتقاء أو السمو داخل الممارسة التعبدية السرية، وأن أصل تلك الفكرة نبع من فرنسا أو إسبانيا في العصر الأورجناسي، أو ربما كان الأصل هو شمال إفريقيا ووصل إلى أوروبا على يد النازحين إليها من تلك المنطقة. وهناك علاقات دينية وثقافية واضحة تربط بين الأجناس القديمة التي تواجدت في جزر البليار وفي كريت، فسكان تلك المناطق في العصور القديمة تشابهت مجتمعاتهم الدينية مع المجتمعات والعقائد التي وجدت في فرنسا. فأكيد أن الإنسان الأول وجد مثل هذه المجتمعات أو القبائل وانخرط فيها.

إنه لا يمكننا أن ننكر وجود الأسرار أو التعبد في المجتمعات القديمة، فذلك أمر حتمي لا جدال فيه، ولكن قبل أن نتعمق في مناقشة تلك المسألة، نريد أن نعرّج قليلاً على مسألة أخرى هي أصل السحر ومنشأه. إن آراء علماء الإنسانيات المعاصرين حول هذه المسألة عديدة جدًا، وقد تمثل ذلك التعدد في أعمال فرازار وماريت وهيبيرت وموس وغيرهم، وبرغم اتساع هوّة الاختلاف بين كل تلك الآراء، نجدها ألقت المزيد من الضوء على مشكلة لا تزال إلى الآن يكتنفها الغموض. فكل من كتبوا عن تلك المسألة يبدو وكأنهم تجاهلوا رابط التسلسل الزمني – أي عنصر المعجزة، وهو منبع ومصدر السحر الحقيقي. ووفقًا لواحدة

من مدارس علم الإنسانيات المتحاربة، فإنها ترى أن كل أنواع السحر في طبيعتها ما هي إلاّ نوع من أنواع العاطفة أو الهزل، فمثلاً عندما كان يريد أحد حكماء القبائل البربرية أن تمطر السماء كان يتسلق شجرة وينضح الماء على الأرض تحت تلك الشجرة آملاً أن ترى آلهة المطر صنيعه هذا فتأتي مثله، وبالمثل عندما يريد البحار الجاهل أن تواتيه الرياح، كان يحاكي صوت الرياح بصفيره حتى تهب الرياح مواتية لما يشتهي. وقد كان مثل هذا النمط سائدًا في العالم كله، ولكننا إذا أردنا أن نخلص إلى نتيجة مبنية على أساس ويدعمها الدليل فليس أمامنا سوى القول بأن تلك الممارسات ليس فيها أي شيء من السحر الذي نتكلم عنه. ويجب أن يكون من الواضح أمامنا، والكلام هنا لفرازار كما أشار، أنه عندما يأتي أحد الهمجيين (البربريين) بفعل ما يشابه أفعال السحر، فإنه نفسه لا يرى فيه أي سحر؛ بمعنى أن ما يفعله وفق تفكيره لا ينطوي على أي عنصر من عناصر الإعجاز؛ فهو يرى ما يأتيه من أفعال على أنه سبب يلزم تحقيقه ليحدث الأثر الذي يريده، تمامًا كما يفعل علماء اليوم عندما يرون أنهم إذا اتبعوا معادلة معينة فإنهم سيحصلون على نتائج بعينها. والسحر الحقيقي يمثل جدلية بين السبب والمسبب؛ لذا نجد أن السحر يبدو على أنه وصف ذو نمط علمي نتج عن عمليات ذهنية تشابه تمامًا القوانين العلمية التي تنتج عن التجارب التطبيقية؛ وأعني أن هناك روحًا من اليقين لا توجد مثلاً في الممارسات التي تحاكي السحر.

ومن السابق لأوانه أن نحاول الآن أن نميز بين أفعال السحر أو الدجل وبين ما أسميه "سحر الإعجاز" في هذه النقطة تحديدًا، لأن معرفتنا بقواعد السحر ضئيلة جدًا ولا تسمح لنا أن نجري هذا التمييز. فهناك تداخل كبير بين النظامين، ولكن من باب اكتمال الصورة، وحتى لا أترك شيئًا مبهمًا أقول إنني أرى أن سحر الإعجاز ذو طبيعة روحانية كاملة، وهو أيضًا ينطوي على عمليات تشابه أعمال السحر العادي. وهنا قد يقول قائل ردًا على ما قلت إن أعمال السحر العادي قد

استغلت بل واستعملت فعلاً إشارات النجوم أو التنجيم وإطلاق البخور وغيرها من أنواع الوساطة التي لها اتصال روحاني ببعض المخلوقات الخارقة للطبيعة، وهنا أود التأكيد على أن النظامين – السحر العادي وسحـر الإعجاز – يتداخـلان؛ ولكن ليس معنى ذلك أنني أرى أن لهما نفس المنشأ.

نذهب الآن إلى السحر المصري، وهو ككل أنواع السحر، يرجع إلى ما قبل التاريخ، وكما يقوم الهمجيون (البربريون) الآن بعمليات خفية، فإن إنسان العصر الحجري المصري قام بعمليات خفية أيضًا، بمعنى أن الهمجي القديم كان يدرك أن هناك جانبًا روحانيًا للسحر. وهنا يجب أن نذكر الروحانية، تلك العقيدة التي تمثل أساس المذهب الروحي، فمفهوم الروح قد أدركه الإنسان القديم في مرحلة مبكرة جدًا من التاريخ، فقد أثارت ظاهرة النوم حيرة الإنسان القديم، وكان السؤال هو إلى أين تذهب نفس الإنسان أثناء ساعات النوم؟ ففي العصر الحجري القديم شاهد الإنسان أخاه وهو نائم، فقد بدا النائم كالميت – على الأقل بالنسبة لإدراكه لما يدور من حوله، فقد كان يبدو أن النائم قد فقد شيئًا وأن فقدان هذا الشيء هو السبب في تلك الحالة؛ ذلك الشيء هو العنصر الحي والحقيقي الذي يمنحه الحياة، فهو حين ينام يفارقه هذا الشيء. واستطاع الإنسان الأول أو الهمجي من خلال خبرته الخاصة أن يعرف أن الحياة لا تتوقف بالنوم، إذ أن النائم يعيد وجوده في الحياة أثناء نومه ولكن في مكان آخر غير واضح المعالم. فعندما يرى النائم في أحلامه شيئًا، أو يرى نفسه تتمثل أمامه على بعد، فإنه يوقن تمامًا أن نفسه قد خرجت من جسده، بمعنى أنه بدأ يدرك أن له كينونتين هما الجسد والروح، وأن هاتين الكينونتين متشابهتين في المظهر لأن الروح تقوم بأفعال تتطابق تمامًا مع ما يقوم به الجسد. والهدف من هذا الاستطراد هو توضيح أن نوعي السحر دخلا في الأسرار المصرية، فقد استخدمت الأسرار المصرية السحر العادي على نطاق واسع، وكذلك سحر الإعجاز أيضًا كما سنرى.

اعتقد اليونان أن أفواجًا من المصريين استوطنوا في مستعمرات على أراضي أرجوليس وأتيكا، كما أكد العديد من الكتّاب اليونانيين أن ديونيسوس وديميتر هما أوزوريس وإيزيس. والأكثر من ذلك، أن المصريين الذين استوطنوا اليونان في الفترة البطلمية قبلوا تلك المقابلة بين الإلهين، وفي القرن الرابع قبل الميلاد تأسس معبد إيزيس في مدينة بيريوس بالقرب من أثينا، وفي عهد خلفاء الإسكندر تزايد عدد أتباع ديانة إيزيس تزايدًا هائلاً.

ففي بعض المقابر في مدينة إليوزيس، موطن الأسرار والعبادة، عُثر على نقوش مصرية بها بعض فقرات مشابهة لفقرات من عقيدة أو ديانة إيزيس مع تمثال الإلهة نفسها[1]. ومن الواضح أيضًا أنه بالرغم من عدم وضوح الأثر المصري المباشر على عمارة المعابد التي شُيدت للآلهة اليونانية، من السهل ملاحظة معبد ديميتر في إليوزيس، وكذلك معبد الآلهة منيا وأزيسيا في أفاسيا بمدينة آيجين، وهما عبارة عن شكل آخر للآلهة ديميتر وبيرسيفون آلهة إليوزيس. وتحكي القصص أن بنات دينوس أحضرن سر شعائر ديميتر إلى إليوزيس من مصر[2]، وأن هذه الشعائر، كما كانت تُمارس في القرن الخامس قبل الميلاد، تكشف عن وجه من أوجه الإلهة المصرية إيزيس كحامية لعلاقة الزواج والأسرة. وقد استوطن اليونانيون مدينة نوقراتيس[*] (الإسكندرية حاليًا) في مصر، حتى إن هناك صورة للإلهة إيزيس وهي ترضع حورس، موضوعة الآن في المتحف المصري بالقاهرة، رسمها أحد اليونانيين ممن استوطنوا مدينة نوقراتيس في أثناء القرن الخامس قبل الميلاد.

---

(١) (Report of the Archeological Society) أثينا، ص ٣٠، ١٨٩٨.

(٢) هيرودوت، الفصل الثاني.

(*) نوقراتيس ليست متطابقة تمامًا كموقع جغرافي علي الإسكندرية ، بل كانت بلدة تقع علي الجانب الغربي من الفرع الكانوبي، وتقوم علي أنقاضها نقرش وكوم جعيف قرب الإسكندرية الحالية ، وكانت أحد التجمعات الرئيسية للتجار اليونان بدء من العصر الصاوي (المراجع).

وفي منتصف القرن الثاني، على حد قول فوكارت **Foucart**، وصلت قوافل من الهاربين (اللاجئين) من مصر إلى أرجوليس باليونان، وأسسوا مملكة قوية دامت ستين عامًا. وقد رسّخوا ديانة إيزيس تحت اسم ديميتر، وعبدوها على أنها إلهة الزراعة والطبيعة الخصبة[1]. ومن الممكن القول بأن هناك تواز بين ديميتر وإيزيس، بل نستطيع قول ما هو أبعد من ذلك ألا وهو إن عبادة ديميتر كانت بمثابة ديانة جديدة على اليونان.

ولنعد إلى مسألة الأسرار الأولى، وربما كان من المناسب في هذا المقام أن نذكر باختصار تلك الأسرار موضحين وجه التطور الطبيعي لطقوس السمو والارتقاء. فكما قلنا من قبل، كان لكل مجتمع بدائي أسراره الخاصة به، ولعل ما يميز تراث قرى وتجمعات الهمجيين هو "بيت الرجال" حيث كانت تُؤدى فيه طقوس تلك الأسرار. وفي ذلك البيت وبين جدرانه كان يمر شباب القبيلة عند سن البلوغ باختبارات الرجولة، وكانت تلك الاختبارات قاسية جدًا، وفي ذلك البيت أيضًا كانت تقبع الأسرار محتجبةً، ولا يمكن الكشف عنها أبدًا للنساء أو الأطفال.

ولكن فوق كل ذلك، وفيما وراءه كان هنالك سر جماعات الكهانة، أو سر الكهنوت الذي لا يعرفه سوى الكهنة الذين يحكمهم نظام من التدرج في مراتب المعرفة، ولا يدخل أحد بينهم إلا إذا كان يريد فعلاً أن يخوض غمار الابتلاءات المرة. وإذا نظرنا إلى مجتمعات الهنود الألجوكيان الذين سكنوا شمال أمريكا، نجد أن نظامهم الكهنوتي كان به ثلاث مراتب هي الوابينو والميد والجوساكيد، والجوساكيد هى أسمى تلك المراتب الثلاث، والتي لم تكن متاحة أبدًا لأي رجل أبيض أن ينال شرفها. وفي الواقع كانت كل قبائل "الإنسان الأحمر" تضم بداخلها مثل تلك المجتمعات. وإذا نظرنا أيضًا إلى هنود الأورينوكو كمثال آخر، نجد أنهم

---

(١) **Les Mystères d'Eleusis** (أسرار إليوزيس) ص. ٣٩

كان لديهم نظام يسمى بوتوتو أو "البوق المقدس"، وكان فرض على معتنقي هذا النظام أن ينذروا أنفسهم للتبتل والانقطاع عن العالم، ولا يفعلون شيئًا سوى الصوم والسير في مناكب الأرض. وفي بيرو نجد أيضًا نظامًا يسمى كولاهوياياس، وفي المكسيك ووسط أمريكا نجد نظامًا يسمى ناجيولاس يتكون من طبقات من الأسرار المنغلقة والطقوس المنظمة، وكانت تلك الطقوس بعيدة عن المؤسسات الدينية العشبية. وفي أستراليا، نجد وجود المجتمعات ذات الطابع السري التعبدي يرجع إلى تاريخ بعيد، والشيء ذاته ينطبق على أفريقيا وأجزاء عديدة من آسيا وأوروبا.

ومن المهم في هذا المقام أن نتفحص الوضع الأنثروبولوجي الخاص بمسألة الأسرار، وهذا في اعتقادي يعتمد كليةً على فكرة أن الإنسان كان أول ما كان "في السماء" مع الآلهة ثم هبط بعد ذلك إلى الأرض بسبب خطيئته أو ربما تمرده. والهدف من الأسرار أو العبادة، في رأيي، هو محاولة إعادة الإنسان إلى موطنه الأصلي في السماء مع الآلهة. وفي كتابات فروبينيوس نجده يقول بأن شعب النيل الأول يذكر كيف أن موطن الإنسان منذ البدء كان في السماء، ثم أثار بعض الناس في السماء غضب الآلهة فأنزلتهم الآلهة من السماء إلى الأرض بحبل ذهبي طويل، ومن استطاع من هؤلاء الهابطين أن يُحسن عمله كان له أن يصعد عبر الحبل مرة أخرى إلى السماء، لكن جاء طائر أزرق ونقر بمنقاره الحبل حتى تمزق الحبل، وانقطع الوصل بين السماء والأرض[١]. وأعتقد أن تلك الأسطورة المصرية الحديثة ما هي إلا "تمثيل" لأسطورة مصرية قديمة، مفقودة الآن، تحكي شيئًا مشابهًا.

فتلك الأسطورة تشرح سبب وجود الأسرار أو العبادات في كلمة واحدة، فهي تشرح فطرة العقل الإنساني التي جُبل عليها، وفي هذا السياق كتب السيد.

---

(١) فوربينيوس، **Childhood of Man** (طفولة الإنسان) ص. ٣٣٥.

أ.ي. ويت **A. E. Waite** متعجبًا: "إذا أخذنا الأوامر الأساسية لكل دين أو التعاليم الرئيسة فيه، والتي وجدت على فترات تاريخية على مر العصور، وتواجدت في العديد من بلدان العالم، وإذا ما حاولنا أن نلخّص أوجه التداخل بين تلك الأوامر، سنجد أنه على الرغم مما تبدو عليه تلك الأوامر من تنوع وتعدد، يظل لها نفس المعتقد والتوجه، وأنه في قلب تعدد وتنوع الطقوس والممارسات التي ميزت التعاليم الحاكمة لكل منها تكمن غاية واحدة. فربما اختلفت الرموز، لكن القيمة الأخلاقية هي نفسها في كل رمز. فبين كل طبقة وطبقة من طبقات الاعتقاد نجد أن الناسك أو المتعبد ينتقل رمزيًا من حياة قديمة إلى أخرى جديدة. فالعبادات القديمة في اليونان كانت توصف على أنها مقدمة إلى الدخول في كينونة جديدة يحكمها العقل والفضيلة، ولكل من هذين الحاكمين إشارة أكثر عمقًا وكمالاً. وترتبط فكرة الحياة الجديدة تلك بفكرة أخرى هي فكرة العودة؛ بمعنى أن الحياة الجديدة هي حياة العابد القديمة لكن عادت إلى جدتها، ويكون العابد هنا بمثابة المتعافي، ولو على سبيل الرمز، الذي يصل إلى حالة من الكمال والطهر، تلك الحالة التي من المفترض أن يتمتع بها العابد روحانيًا هي سابقة للحالة التي تسميها العقيدة اليونانية باسم الهبوط إلى الأرض للتعاقب والاستخلاف. ومن هنا يتضح أن الفكرة الأساسية لكل العبادات هي فكرة ما قبل الوجود، وأحيانًا يتم التعبير عن تلك الفكرة في صورة التناسخ؛ لكنها ليست نفس صورة التناسخ بمعنى أن الروح تحل بعد الموت في جسد آخر".

إذن إذا أقررنا بذلك – وكيف لا وهذا الإقرار واضح جدًا إلا لمن عُمي عليه بأن وجود الإله أمر واضح وطبيعي تدركه العقول في أقل مراحل العقل – فليس علينا إذن أن نشرح، بل علينا أن نصف تطور الاعتقاد لدى العقل البشري، وأن نصف أيضًا الخطوات والأشواط التي قطعها الإنسان البدائي ليضمن عودته إلى السماء وإعادة التوحد بها. سننحي الآن المرحلة الطوطومية جانبًا نظرًا لأنها لا

تفيدنا في بحثنا الذي نحن بصدده الآن، على الرغم من أن ممارساتها وطقوسها استمرت باقية حتى عصر التنوير، وما ذاك إلا لترسيخ مبدأ أن هذه الطقوس والممارسات لا تزال مرتبطة بالشريعة الحديثة ولا يمكن محوها لمجرد الأهواء. وليس هناك ما يمنعنا من القول بأن "هبوط الإنسان" قد حدث أثناء العصور الطوطمية وأن إعادة التوحد بإله على شكل حيوان كان أملاً، وهذا لا ينفي الفطرة التي تجنـــح إلى إعادة التوحد بالسمـــاء؛ فالطوطمية ما هي إلا صورة بربرية لهذه الفطرة.

ثم إن الاعتقاد بأن الشمس هي مدينة الإله التي فقدها الإنسان كان اعتقادًا قويًا لدى العقل البدائي، ففي كل الأحوال كان يشير ذلك الاعتقاد إلى الفردوس المفقود، وإلى أن الوجود الأول كان في الجنة، ومن هنا نجد أن الهدف الأسمى للدين الأول كان إعادة الروح إلى واحة الأمجاد السماوية، إلى واحة الآباء أي الجنة، ولكن السؤال هنا هو كيف يمكن تحقيق ذلك؟ بوسائل السحر أو الوسائل الشبيهة بالسحر. لقد افترض الإنسان البدائي وجود سلم من السهام السحرية التي انطلقت نحو السماء، وظلت تلك السهام مثبتة بقوى خارقة في الفضاء مكونةً سلم يستطيع الإنسان تسلقه والارتقاء به إلى السماء. ففي المكسيك مثلاً كان يعتقد الإنسان البدائي أنه يرفع سارية أو عامودًا، تصعد عليه روحه عبر السحب، في المناسبات التقربية، أما هنود الهايدا فكانوا يعتقدون أن الوصول إلى السماء يتم من خلال بطن الحوت بمعنى أن يلبث أحدهم في بطن الحوت فيصل إلى ملكوت السماء أو موطنه، والطريقة الأخرى التي يمكنه تحقيق ذلك الوصول بها هي الموت، فعندما يموت شخص ما يقوم أهله بذبح طائر معتقدين أن الطائر سيحمل روح المتوفى إلى المنازل المباركة في السماوات، وكان هذا الاعتقاد هو نفسه الاعتقاد السائد في جزر بحر الجنوب وهنود أمريكا ومناطق الشمال الغربي.

ومن الملاحظ أن صورة المركب الشمسي باعتبارها وسيلة الوصول إلى مدينة الشمس (الجنة السماوية) سادت في العديد من البلدان والحضارات، فمثلاً بين قبائل الداياك على جزيرة بورنيو كانت مركب الروح أو التيمبلون تيلون ما هي إلا شكلاً آخر من أشكال مركب رع أو أوزوريس في مصر، ولعل منشأ فكرة هذا المركب يعود إلى الاعتقاد في الطائر الذي يحمل الروح، وهو طائر البوقير ذو القرن، والذي يضم متحف برلين أفضل اللوحات التي مثلته، فكانت تلك المركب (تيمبلون تيلون) تنطلق إلى السماء كل يوم حاملة أرواح الموتى، مقابلة في رحلتها النار والعواصف والأنواء التي تهاجمها حتى تصل إلى مرفأ في دنيا الأرواح.

وإذا طالعنا النصوص المصرية نلاحظ أفكارًا مشابهة لتلك الأفكار، إذ هناك مركب أوزوريس الخاص بالموتى، إلا أن هذا الاعتقاد لاحق في دخوله على الفكر الأسطوري المصري، لأن متون الأهرام ومتون التوابيت الأولى قد خلت من ذكر مركب الروح هذا، بل كانت تلك المتون تنص على أن الروح تأخذ شكل طائر لتصل إلى العالم الآخر، وإن كان هناك ذكر لمركب ما كبديل عن صورة الطائر تلك. لكن في كل الأحوال فإن مركب الشمس المصري، الذي يشابه التيمبون تيلون، نشأ أصلاً من فكرة الطائر. وقد خلت أيضًا أساطير إليوزيس اليونانية والعبادات الهيلينية الأخرى من تلميح يشير إلى مسار تقطعه مركب الروح، بل أشارت، كما هو الحال في الطقوس المصرية، إلى الارتقاء في العالم السفلي، أو الخروج من منطقة الظلام والكآبة إلى منطقة النور والسعادة.

من أين إذن جاء الاعتقاد بأن الروح يجب أن تجتاز جسر لهيب جهنم قبل أن تفوز بالدرجات العليا؟ بالنسبة لي لا أرى إجابة لهذا السؤال سوى ما حدث من خلط بين الأسطورة البدائية القائلة بالارتقاء المباشر من الخروج الأرضي إلى واحة الآباء السماوية وبين الصورة الرمزية التصويرية لميلاد وموت إله الحبوب (الإنبات) أوزوريس أو الإلهة بيرسيفون أو بروسيربين التي سكنت تحت الأرض

لمدة نصف عام، وقد استدل العُبّاد بأن الوجود تحت الأرض كان ضروريًا لخلاص هذا الإله أو تلك الإلهة، ومن ثم ضروري للروح أيضًا أن تسلك نفس المسلك. وبالنسبة لي لا أرى أي ضعف في هذه النظرية لاسيما وجميعنا يعرف أن ديانة أوزوريس قد ذابت أو توحدت في ديانة رع إله الشمس. وأود أن أضيف أنني أعتقد في أن الأساطير المصرية والإليوزينية قد وعتها الشعوب التي أدركت مسألة الوجود في المناطق الرملية والصخرية والمستنقعات- وواضح أنها تجسد تلك الرحلة الموحشة للبحث عن أوزوريس وبيرسيفون، وهذه الرحلة كونت جزءًا من الأسرار، هو الجزء الجلي أو الظاهر منها. ومن المهم لنا أن نفهم الإشارات الكلية للأسرار اليونانية، تلك الأسرار التي يمكن أن نعتبرها قد وُلدت من بطن أرض مصر، ومن المهم أيضًا أن نفهم، وهذا أمر ضروري، في تلك المرحلة من البحث ليس فقط مظاهر الطقوس والشعائر لمختلف العقائد والديانات والتي سنصفها فيما بعد، بل أيضًا فهم القوانين الدينية والنفسية التي تنطلق منها تلك الطقوس والشعائر.

وقد ارتبط ظهور الأسرار والعبادات في اليونان بتجدد الفكر الذي طالما كان أهم ما يميز أي دورة دينية. فمنذ ظهور الدين لأول مرة في تاريخ هيلاس، وحتى الآن، سواء على المستوى القبلي أو القومي، والتنظيم الديني أمر تميل له كل أجناس البشر في هذا الكون. ففي القرن السادس قبل الميلاد برزت طقوس وعقائد جديدة لم يكن الدخول فيها مقصورًا على أهل مدينة بعينها بل كان متاحًا للجميع، مواطنين وغرباء، فالكل يمكنه أن ينال رضا كهنة تلك العقائد لنيل السمو وتلقي العبادات والأسرار.

ولم تكن العقائد اليونانية بالضرورة ديانات جديدة، ففيها عُبدت الآلهة القديمة للقبيلة أو العائلة، وإن كان ذلك وفق طقوس جديدة. ولمن يكن جبرًا أو إلزامًا على أي أحد يريد أن يتحول إلى عقائد باخوس في مدينة إليوزيس أن يترك دينه القبلي. وفي الدول السامية في آسيا الصغرى برزت فكرة تجنب مسألة تقديم القرابين

للآلهة كي تمنح الإنسان عطاياها مقابل تلك القرابين، وحل محل فكرة القرابين تلك فكرة أخرى هي التشارك مع الإله.

ويبدو أن تلك النظرية، مصرية الأصل، ووردت إلى اليونان على يد الكهنة القادمين من غرب آسيا والبلاد السامية، فقد جاءت تلك النظرية ومعها رؤية يملؤها الأمل حول الحياة بعد الموت. وذلك لأن تقديم القرابين كان من شأنه استجداء عطف الآلهة على مقدمي القرابين ومن ثم تنعم عليهم بما يفيدهم في حياتهم الدنيا، أما العقائد الجديدة فليس فيها أي قرابين لنعيم الحياة الدنيا، بل بنت أساسها على النعيم في الحياة الآخرة والوجود بعد الموت، وتمثل ذلك عند اليونانيين في الإله هاديس الذي له جحيم تحت الأرض وجنة هي الجزر المباركة أو هيسبريديس التي أعدها لأناس معينين. ومن هنا كان السعي الأكبر بثقة كبيرة من أجل تحقيق التواجد مع الرفيق الأعلى لأنه مستقبل الروح، وإذا عدنا إلى العقيدة الطوطومية سنجد أن الجانب الديني فيها عبارة عن أمل لمشاركة الحياة الإلهية مع الحيوان المقدس، وإن كان ذلك التوجه يميل ناحية ضمان غذاء الروح بعد الموت. أما الآن فقد أتاحت الأسرار قاعدة دينية وإن كانت غير مكتملة إلا أن اليونان قد اعتقدت في مسألة الخلود والذي صاحب في صورته الأولى الفكر البدائي، فقد ارتبط الأمل في عالم مستقبلي بالمشاركة الروحية في تلك الحياة في العالم الآخر. بل واعتمد عليها.

وقد جاء ذلك التأثير الجديد من مصر، وعبر المدن اليونانية في آسيا الصغرى ، وانتشر في اليونان نفسها ومنها عم كل إيطاليا. ففي أول الأمر بدت الطقوس وحركاتها مرتبطة بالطقوس التطهرية، وتلك الطقوس كانت تمارسها طبقة عُرفت باسم آجيرتو أو "الجامعون" وذلك لأنهم كان من عادتهم أن يجمعوا السلع أو المال بعد أدائهم تلك الطقوس، وكان الواحد من هؤلاء الآجيرتو يتنقل من مدينة إلى أخرى ومعه أدواته وهي عبارة عن مجموعة من الكتب المقدسة وحية مستأنسة وطبلة ومرآة سحرية، وكانت كل تلك الأدوات تُحمل على ظهر حمار، وكان ينقله

وكأنه ينقل ساحر في عصر قادم، وكان إذا وصل إلى مدينة أو قرية نصب خيمته حيث تكون هي المكان الذي تُمارس فيه طقوس الأسرار والعبادة، ثم يقرع طبلته بينما يسير أمامه رجل آخر يحمل مجسمًا لمقام أو معبد، ويطوفان أرجاء تلك المدينة أو القرية التي حلاّ بها، ويؤدي الآجيرتو رقصات ويجرح ساقيه أو يقطع من لسانه حتى يسيل الدم فيلفت انتباه الناس، فإذا ما اجتمع حوله جماهير كثيرة ساقهم معه إلى الخيمة، ثم يجلس يقدم المشورة والتعليمات لكل من يرغب في إتباع طريقته أو يجيب على الأسئلة التي تختبر معرفته بالأشياء الأسطورية.

تلك الصورة لا شك كانت الصورة البدائية لكاهن في عقيدة قبلية، وكان يشار إليه بالكاهن المسافر. صحيح أن تلك الصورة لم تدم لكنها كانت البداية، فقد كان يأتي أحد الآجيرتو ويستقر به المقام في مكان ما فيؤسس فيه رابطة دينية، وهذا ما جعل الصورة منظمة وليست عشوائية وأضفى عليها الطابع المؤسسي. وقد كان بالفعل بين المجتمعات اليونانية مثل مجتمع الثياسي والإيريني والأورجيونز أكثر من رابطة له أهداف دينية كانت تختلف عن عقائد الآلهة القومية؛ إذ أن تلك العقائد القومية كانت مقصورة على أهل بلادها، أما الروابط أو الاتحادات الدينية إن صح التعبير كانت مفتوحة أمام الجميع دون تمييز طبقي أو جنسي طالما أن العضو تتوافر فيه صلاحية العضوية بتلك الاتحادات.

وكان لتلك المجتمعات شرائعها أو قوانينها الخاصة التي تحدد شروط الاعتراف بالعضو، ومواقيت التجمع وعدد المشاركين وما إلى ذلك من أمور. وكان هناك الرهبان والراهبات والكهنة ورؤساء المراسم وكلهم كانوا مسئولين عن إتمام الطقوس، وتعليم الأتباع الجدد وإقامة الأسرار والعبادات. وكان المقر المقدس لهؤلاء عبارة عن معبد وقاعة طعام ومكان لإقامة المريدين أثناء فترة تعلمهم وممارستهم للتعاليم والطقوس. وفي كتب الطقوس الخاصة بتلك المجتمعات سواء كانت تلك المجتمعات منغلقة على نفسها أو شبه منغلقة، نجد تفاصيل الطقوس التي

يجب على المبتدئ أن يؤديها بما في ذلك الحركات والإشارات في كل مرحلة من مراحل التلقي.

وكان الإجراء العام بالنسبة للزي (والكلام هنا عن اليونان في أولى مراحل التاريخ) يتم حسب ما يلي: كان المرشح لنيل لقب راهب يقف تحت حماية الآلهة وعلى كتفيه دثار من جلد الظبي، ثم يلي ذلك أداء شعيرة التطهر، حيث يتجرد المتقدم للرهبنة من ملابسه ثم يجثو على ركبتيه، ويُصب عليه الماء ليتهيأ لما يلي من الطقوس. وفي بعض الأحيان كان يتم التطهر بالوحل أو الطين أو بخليط من الوحل ونخالة الدقيق. وأثناء عملية التطهر تلك، يقوم الحضور وهم من التلاميذ الذين يشاهدون المراسم بتشجيع المتقدم للرهبنة بصرخاتهم التي يملؤها الحماس والحب، وبعد انتهاء المراسم يؤمر المتقدم للرهبنة بالوقوف وأن يعلن للجميع قائلاً: "لقد تخلصت من كل الشرور ووجدت الخير". وهذه الجملة تعني أنه قد طهر قلبه واستعد روحانيًا لتلقي الأسرار أو العبادة الحقيقية. وفي العبادات أو الأسرار اليونانية القديمة كانت تلك الشعيرة، شعيرة التطهر، تتم بتقديم وجبة مقدسة، بمعنى أن يقوم المتقدم للرهبنة بتناول وجبة مقدسة عبارة عن لحم الحيوان الذي يتمثل الإله في صورته، ومن ثم يكون حقق مشاركة الإله أو التوحد به.

ونعود إلى طقوس الرهبنة، فبعد عملية التطهر يوضع المتقدم للرهبنة في موكب ويلبس إكليلا من زهور الشمر أو الحور، أو يحمل صندوق الصوفية، أو الغربال المقدس، أو حتى حية على رأسه ويمسكها بكلتا يديه ويطوف الموكب في الشوارع. وعندما يستقر الموكب في مكان، يقوم المتقدم للرهبنة بأداء حركات راقصة ويعلي صوته قائلاً: "إفوي سابوي! هايس آتيس، آتيس هايس!" **Ëvoe Saboe ! Hyes Ahes Ahes Hyes!** ويتضح لنا أن مراسم التلقي أو الارتقاء لم تكن تكمل إلا بتعاليم شفهية أو تأويل وتفسير لطبيعة العبادة أو الأسرار، ولا تأتي تلك التعاليم أو التفسير إلا من الكاهن نفسه. إذن ما هي طبيعة تلك الخطبة أو

الموعظة التي يقولها الكاهن؟ نستطيع من خلال النصوص القديمة المتاحة أن نستبين مواصفات تلك الخيطة ببعض الوضوح.

لقد كانت تلك الموعظة أو "لوجومينا" **Legonena** كما كانت تُسمى عبارة عن تواصل مع العبادة اليونانية وكانت تعد المتقدم للرهبنة بالأمان أثناء تقدمه ودخوله في المجهول، وتعطيه الشجاعة المطلوبة واللازمة لمواجهة المحن والابتلاء الذي سيواجهه في طريقه إلى الحقيقة. ونحن لا نشك لحظة واحدة أن تلك الخطبة مبنية على أساس المعرفة والممارسة الدينية المصرية، ولم يكن لأي كاهن مناص من استعمال هذه الخطبة والسير على نهجها، لأن مثل هذه الخطبة وغيرها من المراسم كانت مثبتة في صميم الشعائر.

ونحن نعرف من خلال القديس سانت هيبوليتوس أن واحدًا من أهم مراسم تلك المناسك كان: "بريموس الإلهي، بريموس الرضيع، الطفل الإلهي". وهذا كان الوحي الشعائري للاسم السري للإله ديونيسوس. ومن هنا قد نتأكد أن الخطبة أو الموعظة "ليجومينا" كانت تحتوي على جمل تعبدية قصيرة من النوع الذي يكمل الوحي الذي يشرح طبيعة العبادات والرؤى.

لقد آمن المصريون حسب أساطيرهم بأن الفضاء بين السماء والأرض هو مكان حدوث التفاعلات والتغيرات المتعاقبة، وجعلوا السماء هي أرضهم التي يجب أن يحيوا عليها، يرويها النيل السماوي حيث تسكن الآلهة العظيمة، وأنواع الأرواح المتعددة، ويسكن أيضًا الجن والشياطين. وحياة الآلهة والجن والأرواح والشياطين في السماء، وكذلك وجود النيل السماوي هناك، كل هذا يشبه الحياة على الأرض، وأن الأرضيين معرضون لقوى الشر، أما السماء فالحرب فيها تمثلها النجوم والكواكب التي كان المصريون يعتقدون أنها، أي الكواكب والنجوم، تشير إلى تقدم سير الحرب بين الآلهة وبين قوى الشر.

ومن تلك المسيرة السماوية أو النجومية كان المنجمون أو الكهنة يقومون بحساباتهم التنجيمية أو السحرية. وقد كانت القصص التي تجسد حرب الآلهة يتم تمثيلها في ساحات المعابد، كالمسرحيات، بحيث تتوافق تلك الحروب مع المتغيرات النجمية التي تحدث في الكون، ومثل هذه المسرحيات كانت تُمثل في معبد أبيدوس، وكانت أيضًا تؤدى في مدينة إليوزيس، وفيها كان الكهنة يقومون بدور الآلهة، فمثلاً كان من ضمن هذه المسرحيات ما يفيد بأن الإله زيوس قد توحد بالإلهة ديميتر، وكان هذا التوحد بمثابة ضمانة مقدمة للناس بأن يحصلوا على محاصيلهم تامة دون نقصان وأن ينعموا بالرخاء كما استمتعوا به في الماضي.

وفي مصر، وفي معبد أبيدوس كان هناك وصف لما يسمى "مسرحية الآلام" التي تجسد أسطورة أوزوريس، ويتم أداؤها سنويًا، ولكن مدى ارتباطها بالعبادات أو الأسرار نفسها يظل أمرًا غير واضح تمام الوضوح، وإن كانت المسرحية تقدم تمثيلاً شعبيًا لتلك الأسطورة. أما المسرحية نفسها فهي مفقودة ولا أثر لها من أي نوع، وليس لها ذكر إلا في اللوح التذكاري للمدعو إخرنفرت، أحد جنود زيزوستريس (سنوسرت) الثالث المحفوظ حاليًا في متحف برلين. وكانت تلك المسرحية تستمر لعدد من الأيام، وكان الناس يشاركون فيها.

وأغلب الظن أن تلك المسرحية كانت مكونة من ثمانية فصول، الفصل الأول عبارة عن موكب لإله الموت القديم وبواووت(*) وهو يمهد الطريق لأوزوريس. وفي الفصل الثاني يظهر الإله أوزوريس نفسه في المركب المقدس، والذي كان موضوعًا تحت تصرف عدد محدود من الحجاج المعروفين، ثم يعترض بعض أعداء أوزوريس مسير رحلته هو والإله ست ورفقتهم، وينشب قتال وعراك

(*) وبواووت أحد الآلهة المصرية ويعنى اسمه فاتح (ممهد) الطريق ويتجسد برأس ابن آوي واقفًا على أقدامه الأربعة، وعبد في أسيوط وارتبط في أبيدوس مع عبادة أوزوريس. واعتبر وبواووت المحارب الذي يتقدم الملوك ويمهد لهم الطريق إلى النصر (المراجع).

يصاب فيه الجميع بجروح، لكن إخرنفرت يسكت، كما سكت هيرودوت، عن ذكر موت الإله، وهو الشخصية المقدسة في الحدث المتحدي، وهذا الحدث يبدو أنه كان في الفصل الثالث الذي كان تصويرًا لانتصارات أوزوريس. أما الفصل الرابع فقد وصف خروج الإلهة تحوت ربما للبحث عن جسد الإله الضحية. ثم يتلو ذلك التحضير لمراسم دفن أوزوريس، ومسير الجماهير إلى المقام المنصوب في الصحراء خلف معبد أبيدوس لوضع جثمان الإله في المقبرة. ثم بعد ذلك يأتي فصل يوضح انتقام حورس من ست وفي الفصل الختامي يظهر أوزوريس، ويستعيد الحياة، ويدخل معبد أبيدوس في موكب انتصار وسط تصفيق الجماهير.

وقد شاهد هيرودوت مسرحية أو أداءً مماثلاً لما ذكرناه منذ ألف وخمسمائة عام، أو ربما كان النص نفسه أو البرنامج الذي حدث بالفعل ويحكيه هيرودوت كما يلي:

(١) "لقد احتفلت 'بموكب وبواووت' عندما قدم ليناصر أباه (أوزوريس).

(٢) "لقد تصديت لمن عادى مركب نشمت، ورميت بأعداء أوزوريس".

(٣) "لقد احتفلت 'بالموكب العظيم' الذي اتبع خطوات الإله".

(٤) "أبحرت في المركب الإلهي، بينما كانت تحوت ... الرحلة".

(٥) "لقد أعددت المركب المســــــمي 'تشرق بحق' إله أبيدوس، في المعبد؛ وارتديت زيه الملكي الجميل عندما ذهب إلى مقاطعة بيكر".

(٦) "لقد قدت طريق الإله إلى مقبرته في بيريك".

(٧) "لقد آزرت وناصرت ون- نفــــــر (أوزوريس) 'في ذلك اليوم' يوم المعركة العظيمة'، ورميت أعداءه على شاطئ ندت".

(٨) "وكنت سببًا في أن يواصل إبحاره بالمركب المســــــمي 'العظيم'؛ لقد حمل جماله وحسنه، لقد أبهجتُ الأراضي الغربية، عندما رأيت

جمال مركب نشمت. ورسوت عند أبيدوس ثم أحضروا أوزوريس، أول أهل الغرب، الإله إلى أبيدوس إلى معبده [حرفيا : قصره]"[١].

الطقوس كما ذكرها أخرنفرت وصفها م.موريت[٢] M Moret بتفصيل أكثر كما يلي: والأسرار أو العبادة محل النظر كانت معروفة باسم بوت عآت، أي في "الموكب الجنائزي الكبير"، وكان يؤديها أشخاص يمثلون الآلهة إيزيس ونيفتيس وتحوت وأنوبيس وحورس. وقد مثل إيخيرنوفريت نفسه دور حورس ابن أوزوريس. فقد جلب مركبًا مصنوعًا من خشب شجر الجميز والسنط المغطى بالذهب والفضة وأحجار اللازورد. وبداخل المركب وضع تمثالاً لأوزوريس مصنــوعًا من الخشب ومعــه التعاويذ التي كانت عبــارة عن حجــر اللازورد، وحجر الملاخيت.

أصبح الآن الموكب جاهزًا، ويمر "جسد" أوزوريس عبر ضفاف نهر النيل في أبيدوس، ويحمل المركب إلى مكان يسمى ندت (مكان غير معروف). ويبحث أنوبيس عن الجثمان ويجده، لكن عندما يحاول أصدقاء أوزوريس أن يحددوا مكان الجسد في المركب تشب معركة بينهم وبين أنصار ست، عدو أوزوريس، وفي هذه المعركة يحقق أصدقاء أوزوريس وأتباعه انتصارًا على أعدائهم. ويستمر الموكب الجنائزي، ويُحمل الجثمان إلى ريبقر [مقر مقبرة أوزوريس]، وهذا هو اسم مقبرة أوزوريس. في تلك الأثناء يستمر حورس في صراعه المرير مع المغيرين عليه، ويظل يحاربهم إلى أن ينتصر عليهم، ويصل في نهاية المطاف إلى ريبيقير حيث يجد تمثالاً يلبث الحلة الإلهية ولكن في صورته الميتة. ثم يعود المركب المقدس بعد ذلك إلى أبيدوس ويدخل الإله معبده ويأخذ مكانه على العرش في قدس

---

(١) بريستيد، Religion and Thought in Ancient Egypt (الدين والفكر في مصر القديمة) ص. ٢٨٩.

(٢) Mystères Egyptiens (الأسرار المصرية)، ص. ٩.

الأقداس. وتلك الحادثة كما هي ممثلة "أسطوريًا" أعطت لأوزوريس بشكل تلقائي وطبيعي مكانة كبيرة جدًا بين العامة من أهل مصر، وقد وجد العديد من اللوحات الجنازية في معبد أبيدوس تحتوي على صلوات وأدعية أرسلها الحجيج؛ حتى يُسمح لهم بعد الموت أن يشاركوا في هذا الموكب الجنائزي. وانتشرت مسرحية الآلام تلك من مدينة إلى الأخرى، وتكرار تقديمها نشر الأمل في الوجود المستقبلي كما نشر أيضًا الاعتقاد بأن القوى السحرية التي استخدمتها إيزيس لإحياء أوزوريس من موته سوف تكون فعّالة مع كل البشر بعد موتهم لتحييهم من جديد.

وقد كتب هيرودوت عن تلك الملحمة المقدسة يقول: "في سايس أيضًا، في قدس مينيرفا(*)، وراء مكان العبادة وفي ملتقى الجدران تقع مقبرة ليس من التقوى أو الورع أن أذكر اسم صاحبها. وفي النهاية تنتصب مسلة شامخة، وبالقرب منها بحيرة، مزدانة حوافها بالأحجار، مكوّنة دائرة، وكذلك تبدو لي على أنها دائرة تشبه بحيرة ديلوس الدائرية .وفي هذه البحيرة يقومون ليلاً بإحياء مراسم تمثل رحلات صاحب المقبرة، تلك المراسم يسمونها أسرارًا. وفي أثناء ذلك، وبالرغم من اعتيادي مثل هذه الأشياء، أجدني مجبرًا على التزام الصمت المطبق". ويبدو من كلام هيرودوت الملقب بلقب أبو التاريخ، أنه اعتبر المسرحية المؤداه في سايس ذات طبيعة تعبدية سرية محمية لا يمكن البوح بها. وفي الحقيقة، من المحتمل أن يكون ما شهده في مدينة سايس الواقعة في الدلتا قد يكون له من القدسية والسرية ما هو أكبر مما لمسرحية الآلام "التي تؤدى في أبيدوس والتي تبدو أنها مخ العبادة في مصر. كما يجب أن نضع في اعتبارنا أيضًا معامل الفارق الزمني بين الأداء الذي وصفها نفرت وبين ما وصفه هيرودوت، فالفترة الزمنية بينهما تشبه الفترة الزمنية ما بين مجيء يوليوس قيصر وحرب الوردتين!".

(*) منيرفا إحدى الآلهات الرومانية الأصل، تعبد لها اليونانيون من القرن الثاني ق.م، وتطابقت مع الإلهة اليونانية أثينا، وكانت إلهة الشعر، الطب ، الحكمة ، النسيج والسحر والموسيقي أيضا (المراجع).

في كتـابه "ملوك وآلهة مصـر" يقدم لنا الـكاتب م. أليكساندر مـوريت M. A. Moret شرحًا مفصلاً عن المسرحية المقدسة التي تؤدى أمام العامة، فيقول عنها إنها كانت تؤدى مع بداية الشتاء في أكبر ست عشرة مدينة في مصر، ويبني رأيه على أساس النصوص والمتون المكتشفة في المقابر والمعابد.

ويتابع فيقول، إن المشهد الافتتاحي يمثل موت أوزوريس، ويتضح فيه تقطيع أوصال جسد الإله ونثرها في كل مكان. ويقدم لنا م. موريت شاهدًا من كتاب "ترنيمة أوزوريس" الموجود المكتبة القومية بباريس يخلص منه إلى أن المشهد التالي هو بحث إيزيس عن أوصال جثمان زوجها الإله أوزريس، يساعدها في ذلك ابنهما حورس وبالمثل كل من الإلهين تحوت وأنوبيس.

"عندما عُثر على أوزوريس، استمرت المسرحية في فصولها التي أوضحت جمع أشلاء جثمان أوزوريس، وأوضح ديودور كيف أعادت إيزيس الحياة إلى كل عضو من أوصال جسد أوزوريس ذلك الإله الذي مُثّل بجثمانه، وأعادت الإله نفسه للحياة مرة أخرى." 'لقد وضعت كل جزء من أجزاء الجثمان في كل موضع تناسب مع العضو في تمثال مصور للإله أوزوريس مصنوع من الشمع والعطور'، وهذا يعطي انطباعًا بالعملية السحرية، تلك العملية التي أولى خطواتها هي عمل صورة أو تمثال لأوزوريس. بعد ذلك ومع تلامس قطع الجثمان الممزق مع ما يتوافق معها من مواضع على التمثال تدب الحياة في ذلك الموضع بعد أن يتلاحم مع الجزء من الجسد الموضوع عليه وهذا وفقًا للعقيدة السحرية. وبعد هذه المراسم الجنائزية المختصرة تقوم أسرة أوزوريس ببعث جثمان الإله بعثًا كاملاً به كل التفاصيل. وتنص الطقوس على أن حورس أقام لأوزوريس تمثالاً كبيرًا (سنسميه هنا باسم 'مومياء') مكونًا من الأجزاء التي مزقها ست. تقول إيزيس ونيفتيس لأخيهما 'ها أنت ذا قد استعدت

رأسـك'؛ 'وصُغـت من جديد بـدنك وجسمـك'، وعادت إليك أوردتـك وشرايينك، و'استعدت ثانية أعضاءك'. وقد شاركت الآلهة في جزء من أجزاء هذه العملية الصعبة، فقد ترأس الإله جب، والد أوزوريس، هذه الطقوس؛ ويرسل الإله رع من السماء الإلهة الصقر والإلهة الصل واللتين تدوران حول رؤوس الآلهة كالتاج، "من أجل أن تضع رأس أوزوريس في مكانها وتصلها برقبته".

"وكانت طقوس ما وصفناه تتم بمنتهى الإخلاص والإيمان، ففي عيد أوزوريس المهيب يُصاغ تمثالان للإله من طين الأرض المخلوط بالقمح والبخور والعطور والأحجار الكريمة، بينما تبارك الأجزاء التي كانت مقطعة وجمعتها إيزيس منفصلة بقدسيتها، وعندما يحضر الكاهن الطمي ليصبه في القالب يتلو هذه الكلمات: 'إني ها هنا لأجمع أشلاء مومياء أوزوريس من أجل إيزيس'.

"وبالقرب من التمثال، الذي يقف الآن وعليه ثوب الكفن الذي من الآن فصاعدًا سيكون الزي المميز لأوزوريس وإيزيس ونيفتيس، يلتف الناس مترنمين بالترانيم الجنائزية وهم متشحين بثياب الحداد، شاعثي الشعر، لاطمين رؤوسهم وصدورهم بضربات متتالية، مولولين بكلمات وجمل حزينة، يتوسلون إلى أوزوريس "أن يعود وتسكن روحه في الجسد المبعوث من جديد"[1].

ويرى م. موريت أن الفصل الثاني، يتكون من مشاهد تصور عودة الروح إلى جسد أوزوريس وبعث الإله من جديد، وعودة أوزوريس أو إعادة ميلاده من

---

(١) يقول م. موريت إن هذه التفاصيل مأخوذة من الفصل بعنوان "عويل إيزيس ونيفتيس" في النسخة الإنجليزية من كتاب أ. فايدمان بعنوان Religion of the Ancient Egyptians (ديانة قدماء المصريين)، ص. ٢١١.

جديد مصورة في صورة رمزية، بحيث نجد التمثال يوضع لمدة سبعة أيام على أفرع شجر الجميز، والرقم سبعة هذا هو رمز للشهور السبعة التي قضاها الإله في رحم أمه، وهذا يضمن لتمثال الإله إعادة ميلاد حقيقية، بعد ذلك يُدفن التمثال المصنوع من تربة الأرض، والقمح والعطور تحت أشجار الجميز المقدسة في يوم عيد الحقول، وهو موعد الإنبات إذ يعيد الإله المليء بالبذور والحبوب من تربة الأرض "الحياة إلى الأرض" من خلال قوة إنبات النبات.

ويوجد في معبد دندرة ومعبد فيلة (فيلاي) نقوش قليلة تصور بعث أوزوريس من جديد، فهناك نجد جسد الإله ممددًا على مخدع جنائزي، بينما تستحث إيزيس ونيفتيس إعادة الروح إلى الهيكل العظمي، وكسوته باللحم بالطرق السحرية كما توضح ذلك حركات أيديهم، وشيئًا فشيئًا تستجيب الساقان والجسد والرأس للحركات السحرية، ثم يتحرك الإله مع استمرار تلك الحركات والاستجابات، فيبدأ بتحريك جانب جسده ثم يرفع رأسه. وكل هذه الطقوس نجدها ممثلة على مدار أحداث المسرحية.

ويدور الفصل الثالث من المسرحية حول محور الحفاظ على الحياة المستعادة، فقد تلون التمثال وارتدى ألوان الحياة وزيها، وتعطر ومسح بالزيوت العطرة، وكل عمل من هذه الأعمال له دلالته السحرية الخاصة. بعد ذلك يجلس الإله إلى مائدة حافلة "بكل ما تنعم به السماء من أشياء صالحة وطاهرة، وبكل ما تنبت الأرض وبكل ما تجود به مياه نهر النيل" وأمامه الخبز واللحم والفاكهة والشراب. وفي ختام كل ذلك يوضع التمثال في المقصورة (قدس الأقداس)، وتُغلق أبوابها، وتُسد تمامًا، فمن الآن وصاعدًا يحيا أوزوريس حياة جديدة. ويمثل ذلك نمط إعادة الروح أو بعثها، فأي إله أو إنسان يريد أن تُبعث روحه من جديد ويعود إلى الوجود ثانية يجب عليه أن يمر بنفس الطقوس.

والواقع الذي أدخلته المسرحية على الأسرار المصرية كان له عظيم الأثر على أصل تلك الأسرار، فكما يقول ماريت **Marrett**، إن الصورة الأولى للدين كانت عبارة عن شيء "يُحتفل به" أكثر من كونه شيئًا يفكر الناس فيه؛ بمعنى أنه كان استلهامًا أكثر منه فلسفة. لكن، ومع ذلك، لا يلزمنا أن نؤمن بأن كنه الأسرار وجوهرها الكلي كـــان مُتضمنًا في طقوس مسرحية أو درامية، ولا يمكن إثبات ذلك حتـــى مـــع وجـــود العديد من المسارح فـــي الأســـرار والعبادات حتى في الأســـرار الإليوزينية.

وما دمنا نتكلم عن الأسرار والعبادات الشعبية، يجب ألا نغفل ذكر طقوس جـــد أو جدو، فهذا الرمز الطوطمي كما يسمى عبارة عن عمود له أربعة رؤوس تمثل أربعة أعمدة منظورة، وتراها بعض العقائد أنها تمثل العمود الفقري لأوزوريس، بينما تراها عقائد أخرى أنها تمثل شجرة الجميز الذي وُضع فيها أوزوريس وفقًا لأسطورة بلوتارخ، وعندما يوضع ذلك الرمز على الأرض فإنه يمثل أوزوريس ميتًا، وعندما يُرفع منتصبا يعود أوزوريس من الحياة الأخري، وفي العيد الذي يُحتفل فيه بعمود جد، يُشد العمود ليُرفع عن الأرض ممسوكًا بحبال، تلك الحبال يمسكها الفرعون نفسه بيديه.

ويتضح أيضًا في تلك الأسرار مدى تأصل المفهوم الزراعي والغذائي، والارتباط الوثيق بين نبل هذين الأمرين. فإذا كان الإنسان يؤمن بمشاركته للإله في العالم الآخر مشاركة كاملة، فمن الضروري أن يحيا هذا الإنسان حياة لا ينقصها شيء، وبها من أسباب الترف والنعيم، وهذا ما تثبته المتون والنصوص المصرية على وجه الخصوص، فالمتوفى يطلب دائمًا من الآلهة إمداده بالخبز والإوز والخمر وغيرها من سبل الإعاشة والحياة. وهنا نجد أن تلك الفكرة تتواجد جنبًا إلى جنب مع الفكر الأكثر نبلاً وهي فكرة التوحد بالإله، وهذا ما لا يخفى على أي طالب يدرس علم الأديان المقارن، فهذا يتأتى من الفترة التي فيها ننظر

إلى الروح نظرة مادية وعادة نتعامل معها، وهذا يخالف نظرة الأجيال المستقبلية لها. لقد تسبب الاعتقاد في مسألة الشبح الجائع في مشكلة اجتماعية ودينية حقيقية، إذ أصبح المسئولون عن المتوفى، خاصة أبناؤه وأقاربه الذكور، يشعرون بمسئولية تقديم القرابين وكل ما يحتاج إليه المتوفى في مقبرته للإبقاء عليه في حالة من الهناء والمتعة، وإذا لم يفعلوا ذلك ستكون النتيجة هي مجيء روح المتوفى ليلاً للانقضاض عليهم.

وهذا الاعتقاد في بدايته نادرًا ما يمكن أن ينتج عنه فكرة التوحد بالإله في العالم الآخر، لكنه دام واستمر، حتى عندما أخذت الروح شكلاً أقل مادية، وإن كانت مسألة تقديم الطعام تعد ضربًا من ضروب الأعمال السحرية التي تتأثر برسم مناظر معينة على جدران المقبرة. إذن نستطيع أن نستشف هنا أن تقديم الغذاء للمتوفى في مقبرته كان بمثابة ضمان ألا تأتي روح المتوفى الجائعة أو الشبح الجائع كما أشرنا إليه وتأكل أهل المتوفى نفسه، أي أنها كانت صفقة أو اتفاق مقايضة، يضمن الأحياء بموجبه حياتهم، ويضمن المتوفى أيضًا حياته في العالم الآخر، لكن هنا تأتي مسألة أخرى، وهي أيضًا واضحة، ألا وهي شعيـــــــرة "أكل الإله"، فهذه المسألة سبقت في وجودها فكرة مشاركة الإله، حتى إن أكل الإله أصبح رمزًا لمشاركة الإله. وما أريد قوله هو أن فكرة التوحد الروحاني بالإله أتت بشكل طبيعي بعد ترسيخ فكرة التوحد المادي بالإله، وكانت الطريق الوحيدة للتوحد المادي هي أن يلتهم الإنسان الإله ويتوحد به في جسده، وكان ذلك متمثلاً أول الأمر في أكل رأس الحيوان الذي يرمز للإله، ثم بعد ذلك عندما تقدم الإنسان وعرف الزراعة تمثل الأمر في أكل الخبز أو القمح، فكلنا نعرف أن القمح هو آخر الرموز التي كشفت عنها الأسرار في إليوزيس، فكان القمح هو إلهة البذور راعية الخبز الذي يمثل أساس عيش الإنسان.

وهناك ثمة ارتباط بين الصفة الزراعية للأسرار تمثل في الشعيرة التي نرى فيها أوصال أوزوريس في مصر وزاجريوس- ديونيسوس في اليونان مقطعة، فتناثر أشلاء أو أوصال الإله يعكس بشكل أو بآخر أو هو الصورة الرمزية لنثر أو بذر البذور، ويدعم هذه النظرية ما فعلته إيزيس فوفقًا للحكاية وضعت إيزيس أطراف أوزوريس في منخل القمح، ومرة أخرى هذا تأكيد على أن تلك الشعائر والطقوس دليل على التضحية بإنسان قربانًا ليمثل روح القمح، وتوزيع أعضائه على الحقول ليخصب الأرض. وهناك دليل آخر على ذلك وهو ما أورده الكاهن مانيتون (المصري الأصل من سبنتوس/ سمنود الحالية بمحافظة الغربية) من أن المصريين كان من عادتهم أن يحرقوا رجالاً من ذوي الشعر الأحمر، وينثرون رمادهم من سلال البذور في دلالة واضحة على التضحية بهم وتقديمهم قرابين من الملوك على قبر أوزوريس، وبالطبع أقرب التأويلات هو أن هؤلاء القرابين يمثلون أوزوريس نفسه، أو هم وكلاء عنه.

وحول هذه النقطة كتب فرازار **Frazer** ما يلي:

> **"وفقًا لأحد القصص نجد رومولوس أول ملوك روما قد تقطع إلى أشلاء على يد الحكماء الذين دفنوا أشلائه في الأرض، وذكرى يوم موته، وهي السابع من يوليو، كانت عيدًا يُحتفل به بأداء طقوس خفية، تلك الطقوس كانت ترتبط بشكل ما بالتخصيب غير الطبيعي للتين. ومرة أخرى نجد الأسطورة اليونانية تخبرنا كيف عارض كل من الملك بينثيوس ملك طيبة والملك ليكيورجوس ملك ثراسيان إيدونياس، إله الخمر ديونيسيوس، وكيف أن هذين الملكين الكافرين قد تمزقا إربًا، الأول على يد سكارى مسعورين، والثاني مزقته الخيول. ربما كانت تلك الحكايات التقليدية اليونانية قد عانت من التحريف بذكرها التضحية بقرابين من البشر، خاصة ملوك الآلهة، متمثلــة في ديونيسيــوس،**

وهو الإله الذي يشترك مع أوزوريس في أكثر من موضع، والذي قيل عنه أيضًا مثل أوزوريس إنه تقطع إربًا وتفسخت أعضاؤه. وقد علمنا أن الرجال في خيوس كانت تقطع أوصالهم قربانًا للإله ديونيسيوس، وبمجرد موتهم بنفس الطريقة التي مات بها إلههم، فطبيعي عقلاً أنهم بذلك يمثلونه. وعندما تخبرنا القصة بأن ثراسيان أورفيوس قد تمزق وتفسخت أعضاؤه على يد سكارى، فإن ذلك يشير إلى أن ذلك الملك قد انحل في شخص الإله، والذي مات نفس ميتته"[1].

ومن هنا نستطيع القول إنه من الطبيعي أن تصاحب الأساطير الأسرار والعبادات، ولكن ليس معنى ذلك أننا نعني أن الآلهة العديدة في مجمع الآلـــــهة المصري، والذين ارتبطت أسرارهم بأساطيرهم، كانوا مجرد أساطير أو كانوا مجرد خيالات من صنع قريحة الإنسان، إن الإنسان الأول لم "يخلق" الآلهة كما يقول الكثير من طلاب علم مقارنة الأديان، وغيرهم من عباقرة الأديان، ويمعنون في هذا الخطأ، إن كل ما فعله الإنسان الأول حقًا، وغالبًا ما كان دون وعي، هو أن أطلق أسماء شبه بشرية على تلك "القوى" أو الظواهر التي آمن تمام الإيمان أنها مظاهر إلهية، ثم بعد ذلك، وربما في مراحل أكثر نضجًا، اعتبر تلك الظواهر آلهة وسيطة بينه وبين الإله الواحد، وكان هذا واضحًا جدًا.

وعلاقة الأساطير بالأسرار تبدو واضحة في أن طبيعة السرد القصصي أو الرمزية التصويرية كانت دائمًا مصاحبة للفكر الديني البدائي، وكما قلنا من قبل، فإن السيد. ماريت قد أوضح في إحدى مقالاته أن الدين كان شيئًا يُحتفل به أكثر من كونه شيئًا يرتبط بالتطور الفكري، كالتطور الفكري الذي وصلنا له الآن وما لدينا من تصور حول مفهوم كلمة "دين"، فالدين وقتها كان تصويرًا أو دراما عن

---

(١) كتاب Golden Bough (الغصن الذهبي)، مجلد ٢، ص. ٩٨-٩٩.

حياة الإله، سواء كان إله المحاصيل، أو إله غذاء الحيوانات، فكلها قصص كانت تؤدى في مواسم متوافقة، فكانت كلها مشاهد دراما راقصة أو احتفالية. فمثل هذه الأساطير الاحتفالية أو الراقصة مثلت ميلاد إله القمح (على سبيل المثال)، ونموه ووصوله إلى اكتمال العمر، وفي موسم أخير، وصوله إلى موته. وجاء الوقت بعد ذلك أن نقبل ليس فقط الرمزية بالوجود الإلهي، بل أن نقبل بحياة الإنسان نفسه، من المهد إلى اللحد، وبالفترة التي قضاها إله الحبوب تحت التربة ممضيًا شهورًا مظلمة في سجنه الأرضي أو "دفنه"، وهذا يشابه مقام الإنسان في هاديس **Hades** (البرزخ أو القبر) وبعثه من جديد تاليا.

ولا يمكننا أن نشك لحظة في أن هذا الجزء من الأسطورة شكّل جزءًا من الأسرار المصرية. وليست الأسرار الإليوزينية وحدها هي التي تقودنا إلى تلك النتيجـــة بهـــذه الطريقة المباشرة، بل أيضًا تقودنا إليها طبيعة الآلهة المصرية المرتبطة بالصورة النيلية للأسرار. لقد كان أوزوريس إلهًا للمحاصيل، إله القمح أو الشعير، وليست الرسومات أو النقوش هي وحـــدها التي تدلل على ذلك، بل تلك العقيدة والشعائر والطقوس التي تتم عند التعامل مع الميت؛ حيث تُغطى أكفان الموتى بطبقة من طين الأرض مغروس فيها بذور القمح، تلك البذور يأتي عليها الوقت لتنبت وتنمو، وهذا ليس فقط مجرد رمز لبعث روح الإنسان، بل أيضًا لترسيخ الصورة الرمزية التي تدلل على إمكانية حدوث البعث.

لم يشعر الإنسان الأول بقربه من الطبيعة والقوى الكونية فحسب، وإن كان ذلك أكثر من الإنسان المتحضر، بل آمن أن تلك القوى تجلّت له كما هو واضح في صورة التربة والنبات والأشجار والمحاصيل، وفي الزراعة بشكل عام. ولننظر إلى أقوال أحد رؤساء الكهنة الهنود في مورافيا إذ يقول: "نحن الهنود لن نموت أبدًا، فأرواحنا كالقمح تُنبت نفسها في كل مكان". فهذه الشهادة البسيطة المحركة للأفكار تمثل إجمالي فلسفة الإنسان الأول البدائي عن البعث باختصار شديد.

إذن أصبح لدينا الآن أفضل دليل ممكن لأن نؤمن، كما هو الحال في الأسرار الإليوزينية وغيرها، أن الأسرار المصرية ضمت في طقوسها وعباداتها وشعائرها ما يصل بين الحياة والموت والبعث ممثلة ذلك في شخص أوزوريس ونبتة (سنبلة) القمح. وقد وضح ذلك جليًا في النصوص التي وصفت مسرحية الآلام التي تجسد مأساة أوزوريس. ففي أحد أجزاء الأسرار الإليوزينية، في لحظة اكتمال الكشف، يمسك أحد الكهنة بأذن مصنوعة من حبوب القمح ويرفعها أما الحاضرين من الكهان، ويؤكدون جميعًا أنها تمثل قلب وعمق العبادة لديهم، فهي تمثل بنفسها كل المراحل التي مروا بها من أجل فهم تلك الأسرار.

وبما أن أعلى درجات التمييز الأدبي تكمن في البساطة النبيلة، كذلك الأشياء الروحية تصل إلى أعلى درجاتها عن طريق الوضوح والطبيعية وعدم التمايز، ولنضرب مثلاً هنا بالزهرة البسيطة التي عندما نقدمها قد تحمل في معناها "المعنى الأعمق للدموع" دون أن نتكلم، وكما أكد باراسيلسوس أن السر الأعظم أفضل من يفهمه هو امرأة جالسة على عجلة الغزل، إذ يكون فهمها لهذا السر أفضل بكثير من فهم عالم متعمق، ومن ثم يتحقق فهم أسرار الإله وطبيعته عندما يُعبر عن تلك الأسرار بصراحة ووضوح أمامنا وليس بالكهنوت، والباباوية، والطبقات الكهنوتية التي توقن هي نفسها أن كهانها ورهبانها أقل فهمًا لعمق الحقائق التي يدرسونها إلا في صورها الرمزية فقط، صور الميلاد والحياة والموت، وصور "الحركات الجبارة" كما يصفها ستيفينسون. وأبرز دليل على أن البساطة هي أفضل الطرق للوصول أن الكنيسة المسيحية كانت تعبر بالأشياء البسيطة والصور الواضحة في أول أمرها لتنقل إلى الناس أعمق الحقائق والأسرار– أشياء مثل الكبش والأم والطفل، والخبز والخمر، وحطب النار والكأس– وهذه الأشياء البسيطة أعمق وأدل في توصيلها للمفاهيم من الرموز الكهنوتية التي تحط من قدر الوجود الروحاني بدلاً من أن تسمو به[1].

---

(١) لا أقصد هنا بأي حال من الأحوال أن أنتقص من قدر توظيف الرمز، ومعلوم أن الرمز له أهميته في ذكر الأسرار، لكن أشير هنا إلى الاستخدام اللاعقلاني وغير المنطقي للرمز نفسه.

وإذا أردنا أن نلخص المواد والحيثيات التي سقناها للتدليل على أصل الأسرار المصرية نجد أن: هناك ثمة ميل إلى جعل مسألة التدين أو التعبد منظمة ومقدسة وسرية بين الشعوب البدائية في آسيا وإفريقيا وأمريكا وأستراليا. وأن ذلك ارتبط بالعقيدة الطوطومية، ولكن ليس بالضرورة أن تكون تلك العقيدة هي أصل الاعتقاد، وأن السحر تداخل في فلسفة وطقوس الأسرار والعبادات، سواء في "شكلها الخفي" وشكلها الروحي، وأن اليونانيين آمنوا بأن أسرارهم وعباداتهم الخاصة مصرية الأصل، ولهذا فإن إثبات هذا الاعتقاد لا يحتاج إلى أي دليل معماري لإثباته.

ترتبط الأسرار بالاعتقاد في هبوط الإنسان [إلى الأرض] من أن الإنسان في البدء كان قاطنًا للسماء أو الشمس، ثم هبط إلى الأرض بسبب خطيئة اقترفها، وتكشف الأسرار عن المسار الذي يسلكه الإنسان ليعود إلى موطنه الأصلي في السماء. وتكشف أسطورة شعب الكخ في بلد النيل عن وجود هذا الاعتقاد، ومن الواضح أن هذا الاعتقاد له أصول مصرية قديمة، لكن فوق كل ذلك يمثل هذا الاعتقاد فكرة معينة في عقل الإنسان. ولقد حاول الإنسان أكثر من محاولة جادة ليعود إلى موطنه الأصلي في السماء، وتمثل ذلك في فكرة مركب الشمس التي تقل الأرواح، وكذلك مركب الروح، فكلها أفكار خرجت من صورة الطائر الذي تسكن فيه الروح لتذهب إلى موطنها في السماء. ونجد هذه الفكرة في الأسرار المصرية واليونانية، إذ تتفقان في أن الروح يجب عليها أولاً أن تمر بمراحل صعبة ومؤلمة وأن تزور مواطن العذاب قبل أن تتمكن من الخروج إلى السمو والوصول إلى النعيم المقيم، وهذا ما أثار الخلط في أسطورة إله الزرع (الإنبات) أوزوريس، والتي تصف الأحداث التصويرية تاريخه كحبة قمح دُفنت في الأرض أو زُرعت لبضعة أشهر في السنة.

وفي اليونان صاحب علوّ شأن الأسرار تجديدٌ في الفكر الذي شارك بدوره في التّجديد الديني أو الثورة الدينية، إذ أصبح التوجه الديني كونيًا لا قبليًا بمعنى شمولية أمر الدين لكل البشر وليس اقتصاره على قبيلة أو فئة بعينها. وظهرت أيضًا فكرة مشاركة الإله لتبرر تقديم القرابين والتضحية، ومن ثم جاءت نظرة الأمل للحياة بعد الموت، وكانت أول صورة لتلك الفكرة متمثلة في الطقوس التطهرية.

لقد اعتقد المصريون أن السماء هي المكان الذي تتم فيه التفاعلات بين أوامر النجوم، والحروب بين الآلهة وقوى الشر. ومثل هذا الاعتقاد كان يؤدى على المسارح في المعابد، كالمسرحية التي تحكي قصة أوزوريس وكانت تؤدى في معبد أبيدوس، لكن إلى أي مدى كانت مرتبطة بالأسرار نفسها يبقى غير واضح، على الرغم من أن هناك دراما مشابهة في سايس تبدو وكأنها تمثل جزءًا من الأسرار.

إذن نستطيع القول بأن أصل الأسرار المصرية يكمن في فكرة هبوط الإنسان إلى الأرض من السماء، وإمكانية رجوعه مرة أخرى إليها التي كان يسكنها قبل هبوطه إلى الأرض، وهذا ما ارتبط بفكرة الرمز "الزراعي" في صورة دفن البذور في موعد محدد من السنة ثم إنباتها بعد ذلك وحياتها، مما يشابه مسألة الموت والبعث، ومروز الروح بمراحل مشابهة هي الدفن والبعث وهذا بالضبط ما حدث مع إله الزرع (الإنبات) أوزوريس عندما قضى وقتًا معلومًا من السنة تحت الأرض منتظرًا بعثه من جديد.

وإذا كنا نبحث عن الموطن الأصلي الذي نبتت فيه الأسرار المصرية، فإني أقر تمامًا بأني أميل إلى النظرية التي تقول إن موطن تلك الأسرار كان فيما قبل التاريخ على أرض فرنسا أو إسبانيا في العصر الأورجانسي أي في الألفية السادسة عشرة قبل عصرنا الحالي. وإني أرى أن عبادة الثور في العصر الأورجانسي

في كريت ومصر وفي أساطير الأسرار في عقيدة كابيري جاءت من شمال غرب إفريقيا إلى مصر "على يد أوزوريس"، وهذا يقوي الاعتقاد بأن العقيدة الأسطورية لأوزوريس والثور جاءت إلى مصر من إسبانيا عن طريق شمال غرب إفريقيا، لكن وبكل صراحة، فإن معلوماتنا حول هذا الأمر قليلة جدًا وهزيلة بالقدر الذي لا نستطيع أن نخرج برأي يحملنا على الإيمان بهذا الرأي، وربما من الأفضل أن ننظر الآن إلى الأسرار المصرية بكل طقوسها وممارساتها على أنها نشأت على أرض بلد النيل، حيث اتخذت صفتها وشكلها المميزين، وأصبحت تلك الطقوس والشعائر بمثابة أم لكل الطقوس والشعائر التي جاءت فيما بعد.

الفصل الخامس

فلسفة الأســـرار

لطالما خذلتنا فلسفة الأســـرار المصرية وعــلم الأسرار المصريـــة معًا. ولا يجب أن ننساق هنا إلى التعمق في النظريات التي يقدمها لنا علماء الأساطير أو علماء الإنسانيات (الأنثروبولوجي). صحيح أن تلك النظريات تفيد في ربط وتفسير العادات الشعبية والشعائر، لكننا عندما نتناول الوجهة الروحية، تلك الوجهة المقدسة الإلهية التي لا يحيط بها تعبير أو وصف، تصبح تلك النظريات بمثابة افتراءات على الآلهة، بل وممارسات مقيتة يبغضها أي صوفي متطلع لمعرفة الحق الإلهي. ويرجع هذا إلى الاختلاف الرئيسي إلى المنشأ العقلي والنفسي وموقف العقل المتصوف الذي لا يقبل أبدًا النتائج السطحية ولغة المادية التي يستخدمها العلماء في تناول تلك القضايا. إذ قد تفلح تلك النظريات وتلك الطرق العلمية المادية في دراسة الحقائق المادية والأحداث التاريخية، لكن عندما نأتي إلى عالم القدسية والروحانيات تصبح لغة العلماء ومنهجهم سبيلاً ليس فقط مستهجنًا بل مرفوضًا رفضًا باتًا.

فملكوت الروح بعيد تمام البعد عن المنازل الدنيوية، ويحيطه السمو الإلهي الذي لا يرتقي إليه إلا ذوو البصائر النافذة، الذين يستطيعون أن ينفذوا بتصوفهم إلى السر المهاب، أما أولئك ممن تطغى عليهم المادية ويغريهم الجهل فلا سبيل لهم للوصول إلى ذلك الملكوت لأنهم أخذتهم العزة بالجهل فقيدتهم حماقاتهم عن

الوصول والنفاذ إلى ذلك الملكوت. فجوهرة المهابة والخشية لا تمنحها الحكمة الإلهية إلا لمن سمت أرواحهم وعقولهم إلى منازل الملائكة وارتفعوا عن طبيعتهم البشرية، فهؤلاء حق لهم أن ينالوا هبة الوحي والهدي إلى سبل المعرفة. ورغم ذلك السمو والارتقاء، يظل من الممكن أن نحاول تفسير الأوجه الروحانية لكن في سياق روحاني فقط، دون غيره من السياقات. فأينما وجدنا الفلسفة الإلهية واضحة في أمر ما، يمكننا أن نقيسها عقلاً على موقف آخر مشابه. فكما قلنا من قبل إن الغرض الأساسي من الأسرار والعبادات هو تحقيق العبودية والتوحد مع الإله في الدنيا وفي الآخرة. ولن يتحقق هذا بمجرد إتباع مذهب أو بمجرد الاعتقاد، إنما يتحقق بممارسة السحر الأعلى. ذلك السحر الذي تعبر الطقوس والصور الرمزية عن شكله الخارجي فقط، فهو أمر رمزي، وفي رموزه وصوره وشعائره وطقوسه وممارساته تكمن الوسيلة الوحيدة المتاحة للإنسان لأن يحقق رغبته الأصيلة ويعبّر ظاهريًا عن المضمون الباطن في تلك الصور ألا وهو الإله الواحد.

ولكن لا يجب أن ننسى أن تلك الصور تعبّر عن الفكر والإيمان، وأن الرجال القدماء الذين أسسوا هذه الشعائر كانوا على وعي تام بأن تمثيل هذه العملية من شأنه أن يحقق الوحدة المرجوة، وأن التمثيل المادي والرمزي لما هو محسوس لا يمكن أن يساعد الإنسان بماديته في أن يحقق استجابة سحرية بالشق النفسي لديه وبالتالي يسمو ككل أي كجسد وروح معًا. كما أن حالة الإعداد طويلة الأمد تعتبر من الأمور الضرورية للتنفيذ الكبير للأسرار المحددة بوضوح والتي تعمل على تأسيس تدارك الأخلاق الأساسية والنية الروحية الكامنة وراء التعبير الخارجي. وليست الفكرة الوحيدة ها هنا هي التغلب على قوى الموت والظلام. لأن ذلك موجود بالفعل في فكرة التوحد مع الإله. وتلك هي المسألة الإلهية التي تقضي بالذوبان الكامل في ذات الإله والتوحد به، فتحقيق ذلك هو الأمل المنشود من وراء

كل الممارسات. وهذا لا يدل على فقدان الشخصية الفردية ولكنه تعويض عن فناء الجسد وحلوله في شكل أبدي الوجود، وعوض عن تفتح بذرة الشخص وتشعبه في تربة هذه الحياة الفانية للانتقال إلى حالة الأبدية والخلود.

ولطالما اقتضت الأسرار المصرية وجود العديد من العبّاد في كل مناسبة عند دخول شخص جديد في تلك الأسرار أو في تلك الدائرة، عندئذ لا بد من توضيح صورة الأسرار والعبادات لهذه الشخص الجديد. ومن هنا نقول بأن وجود مقتضيات الأسرار أمر مهم لفهم طبيعة حياة التصوف والإيمان بها. وكما هو الحال في الديانة المسيحية عندما يأمرنا الرب بتقديم القرابين في أكثر من مناسبة للحفاظ على حالة الاتصال والمشاركة بين الناس والرب، كذلك كان الأمر لدى العقيدة المصرية القديمة أو الأسرار المصرية القديمة؛ حيث كان الاحتفال أمام تماثيل الآلهة له نفس الغرض من تحقيق الاتصال بين الناس والآلهة وتحقيق مردود أخلاقي تمامًا كما في المسيحية.

لذا فإنه من الضروري أن نفهم ما مضمون ما قاله المصريون القدماء عندما تكلموا عمّا نسميه "الروح". فهم يعتقدون أن "با" كما يسمونها هي روح لا تفنى أبدًا، ومكتوب أن تبقى إلى الأبد شرط أن يظل الجسد الذي تسكن فيه محفوظًا من الفناء. وبالنظر في أصل الفكرة، نجد أن الفكرة التي سادت تقول بأن الجزء الخالد والمهم جدًا في الإنسان يكمن في العظام دعمتها الاعتقاد وطرق الدفن التي سادت فترة ما قبل التاريخ. وأطلق المصريون على ذلك الجزء الخالد اسم "كا" أو القريـــــن، وهو عبارة عن روح خفية أو ظل أو شبح يعكس شكل الجسم الحقيقي ولا يمكن للإنسان أن يراه، ولكنه من الممكن أن يسكن في شيء يجذبه إليه كتمثال أو صورة أو مومياء. وهذا المعتقد هو ما أثرى المصريين ودفعهم لبناء المقابر والمعابد على طرز تشبه طرز المنازل، حيث تأتي روح المتوفى لتقيم فيهـــا. ومثل هذه الحياة تكون مادية نقية ويتوقع أن يستمتع المتوفى بكافة الأمور المبهجة في تلك السكنى المجهزة جيدًا.

وعلى الرغم من أن تلك الفكرة سادت طيلة مسيرة التاريخ المصري، صاحبها في فترة من فترات التاريخ مفهومًا أكثر سموًا وارتقاءً، وهو فكرة التوحد مع الإله؛ حيث كان الإله هو آخر مرحلة تصل إليها الروح، وبالتدريج استطاع ذلك المفهوم أن يحل محل، إن لم يكن محا تمامًا، فكرة القرين "كا" تلك الفكرة البدائية التي أشرنا إليها. ومن هنا جاءت المعرفة بأن الإنسان له روح، ولتلك الروح مستقر، وكلاهما لا يمكن تبديله. فبجانب الروح المادية المسماة باسم "كا" أصبح المصريون يؤمنون بروح غير مادية هي "با"، والتي مثلوها على شكل طائر له رأس إنسان، ولا شك أن تلك الصورة هي رمز للطبيعة المحلقة للجزء الأبدي الوجود داخل الإنسان. وتلك الصورة الأبدية الوجود كانت أول الأمر مقصورة على الفرعون نفسه أو الحاكم فقط، لكن سرعان ما أصبحت تلك الصورة هي مآل كل البشر. لكن لا يمكن أن تأتي "با" إلى الوجود إلا عند موت الشخص[1]، أي عند موت شخص ما يجب أن يتحول أولاً إلى "با" حتى يمكن عمل الطقوس الواجبة لتأمين ذلك التحول.

ولكن بعيدًا عن هذا المعتقد وما يتوافق معه، فإنه لا يمكن أن نشك أبدًا في أن المصريين القدماء كانوا يؤمنون بمبدأ تحول الأرواح. وهذا المعتقد، الذي عرفه اليونانيون في القرن السادس قبل الميلاد، جاء على يد فيثاجورس[*] **Pythagoras** الذي قال إنه قد نقله من وادي النيل. ويقول فيثاجورس إن سبب التحول هو الخطيئة، ذلك المصطلح الذي يعود إلى ٣٠٠٠٠ سنة إلى الوراء، إذ أن هدف الروح هو التطهر من تلك الخطيئة، وإذا حققت ذلك، فإنها تتوحد بالروح الإلهية.

---

(١) قد يبدو أن هذا الأمر يربط بين با وبين فكرة التحليق.

(*) فيثاجورس الفليسوف والعالم الرياضي والمصلح الديني الإغريقي (٥٨٢– ٥٠٠ ق.م) تقريبًا ، والذي ينسب له مذهب التناسخ (المراجع).

بمعنى أن طبيعة التحول هذه تمثل دورة بعينها، والروح التي تستطيع أن تهرب من تلك الدورة تصبح روح إله، أو تذوب في الإله الواحد.

وتختلف الفيثاجورية، وهي صورة يونانية منقولة عن العقيدة المصرية في تحول الأرواح، عن المفهوم البوذي أو الهندوسي عن تحول الروح في عدة أوجه مهمة جدًا، خاصة فيما يتعلق بسبب التحول وطبيعته ودورته وحقيقة الهروب منه وطريقة ذلك الهروب. يقول جيفونس Jevones: "والمفاهيم التي أوردها فيثاجورس تثبت أنها مصرية الأصل، وتحمل أوجه شبه كثيرة، ففي الفلسفة المصرية نجد أن التعاليم تقول بأن الروح تعود إلى منشأها الإلهي، ذلك المنشأ التي جاءت منه إلى الإنسان في أول الأمر، ثم بعد الوفاة تعود إلى ذلك المنشأ مرة أخرى، ووفقًا لتعاليم فيثاجورس نجده يقول بأن الروح تأتي من السماء الدنيا وتنتهي إلى السماء الدنيا أيضًا. وكذلك نجد الفلاسفة المصريين قد تبنوا مصطلحات دينية تعبّر عن التعاليم الخاصة بهذه الفكرة، فعندهم مثلاً أن تصبح الروح هي الإله الواحد أو أن تصبح الروح إلهًا من الآلهة هما نفس الشيء؛ إذ أن مصدرهما هو الكنه الإلهي، أما في المعتقد الفيثاجوري فنجده يقول بأنه أن تصبح الروح إله خير أو إله شر هو شيء واحد؛ لأن الروح تذوب في الروح أو تذوب في السماء الدنيا وكلاهما يمثل المكان الذي نشأت منه الروح أصلاً. وبالرغم

من أن العقيدة الفيثاجورية هي اقتباس، دون أن يكون وراءها فكر ومنطق، من العقيدة المصرية التي كانت نتاج تطور فكري على مدى قرون من الزمان، لا بد أن ننظر إلى أوجه التشابه في كل شيء على أنها شيء غريب. ولتوضيح ذلك نقول، في الكتابة الفيثاجورية تُمثل الروح على أنها قلقة مشتاقة لأن تنهل من الماء البارد، وعلى حد علمي، لم أجد أبدًا تعبير "القلق" في أي أدبيات تتعامل مع الروح إلا إذا كانت تلك الأدبيات تتكلم عن العقيدة الفيثاجورية. أما في النقوش المصرية على جدران المقابر المصرية القديمة نجد المتوفى يدعو أن ينهل من تلك المياه،

وربما كان ذلك متوافقًا مع صورة سكب الماء الموجودة في العقيدة الهندوسية، إلا أن العقيدة الهندوسية لم تتكلم عن مخلوقات خارقة تقدم الماء للمتوفى كما هو موجود في العقيدة البيثاجورية. وأعتقد أن صورة الماء تلك انفردت بها العقيدة المصرية، فالصورة التي تقدمها العقيدة الفيثاجورية من أن هناك مخلوق خارق أو "حراس" يقدمون الماء للشبح أو الروح لتشرب ليست موجودة في أي أثر يوناني، لكنها موجودة بل وشائعة في الرسومات والنقوش الموجودة في المقابر المصرية، وأشهر تلك الصور في المقابر المصرية هي صورة الإلهة "نوت" وهي تسكب ماء الحياة على المتوفى وهو راقد داخل شجرة الجميز. ففي الصورة التي نشرها م. شاباس M. Chabas، نجد المتوفى راكعًا أمام أوزوريس يتلقى منه ماء الحياة من إناء مكتوب تحته عبارة "عنـــخ با" أي "لتحيي أيتها الروح". وإذا عدنا مرة أخرى إلى كتاب الموتى المصري نجد أن المتوفى يُرشد إلى أن يحمي نفسه طوال مسار رحلته الطويلة في العالم السفلي بكل أهواله، ليس فقط باستعمال التمائم والتعاويذ، ولكن أيضًا بأن يقول "أنا أوزوريس". وفي العقيدة الفيثاجورية نجد أن الشبح أو الروح تدعي أنها إلهية.

مرة أخرى ليس المعقول أن تكون مسألة وجود إرشاد للعالم الآخر قد جاءت هكذا دون مقدمات في العقيدة الفيثاجورية، في حين أن كتاب الموتى عند المصريين استغرق قرونًا من الزمان ليحدد تلك المسألة وإن قيل إن اللوح الذهبي الصغير لا يجب مقارنته بكتاب الموتى الذي يتناول مئات الفصول، فإن الإجابة هي أن التعاويذ المذكورة في اللوح الصغير لا يمكن أن تكون إلا اقتباس من عمل كبير، وفي مصر كان أهم التعاويذ والتمائم التي تُدفن (مثل الألواح الفيثاجورية) مع المتوفى تلك المأخوذة من كتاب الموتى عند المصريين (والواردة في الفصل ٣٠) والمكتوب فيها:" تعاويذ لتوضع علي قلب المتوفى"[1].

---

(١) مقدمة لتاريخ الدين ص.٣٢٢ – ٣٢٣.

يتابع جيفونس قائلاً "لا يوجد شيء في العقيدة الفيثاجورية لا يمكن العثور عليه في دين وعقيدة المصريين القدماء". وكانت مسألة تحول الروح بمثابة شر يجب على المتوفى أن يتجنبه مهما كلفه ذلك. وإذا كانت الروح آثمة، فيجب أن تمر بآلام الارتقاء من الدرجة السفلى إلى الدرجة العليا. وإذا كانت بلا خطيئة، فإنها تتابع منطلقة في مسار واحد إلى أمجاد التوحد مع الإله.

وهنا تكمن أهمية الأسرار حيث تكون واضحة. فإذا كان لا بد من الهروب من قدر التحول وتجنب القدر المرعب للارتقاء الجبري من الدرجة السفلى إلى الدرجة العليا وهي أمجاد الإله، تُرى هل تكفي الحكمة والفضيلة للنجاة؟ أم هناك شيء آخر لا بد من وجوده وممارسته قبل الموت لتتحقق تلك النجاة؟ الإجابة تكمن في الأسرار والعبادة فالأسرار هي سبيل النجاة من ذلك القدر التعيس. تلك الأسرار المقدسة هي التي يُعبر عنها هنا باسم السحر العظيم. ولا يمكننا الكلام عن كيفية معرفة النسّاك بتلك الدورة أو كيف عرفوها أو كيف نجوا منها، لكن عندما نجد فيثاجور يعلن أنه عرف تلك الكيفية، فهذا يثبت أن النساك والعبّاد كان لديهم الوسيلة التي يستطيعون بها تقييم الحقيقة من هذا المنطلق. والإطلاع على الأسرار أمر من شأنه أن يوفر الحماية للروح من محنة التحول، وهذا ليس مجرد افتراض بل حقيقة ثابتة.

والشيء الذي كان يشغل بال المصري القديم ويثير خوفه هو احتمال عدم فوزه في العالم الآخر وبالتالي عدم نجاته من أهوال ذلك العالم وفشله في تحقيق التوحد بإلهه المعبود، ويتضح هذا القلق والخوف في كتاب الموتى، الذي يوضح الوسائل التي من خلالها يمكن للإنسان أن يحقق النجاة في العالم الآخر، وقد ذكر الكتاب هذه الأمور بشكل كامل وتام. ولكن يظل هناك أمر يلفت الانتباه وهو أن قليل من الناس فقط هم من سيُفتح لهم هذا الطريق. ففي المقام الأول نجد الخلود أمرًا معروفًا من قديم الأزل على أنه سمة ملكية لا تنبغي إلا للحاكم فقط،

ولأن الخلود يعني خلود الحكمة فقليل هم من يموتون. فالفلاح البسيط والرجل الغني الشرير وما يملكه، كلاهما يبدو واسع المعرفة ومؤهلاً للانتقال إلى الأمجاد الإلهية. لكن وحده فقط ذو القلب السـليم والحياة النقية هو من يستطيع أن يتوحد بالإلــه، أما غيره فكان من الصعب عليه أن يمر بتلك الأهوال حتى يحقق هذا الهدف. لذا فإن الأسرار، وهذا أقوى الاحتمالات، والدراما التي تمثل حياة الإله وكذلك إتاحة الفرصة للراهب في أول طريقه أن يمر بنفس المراحل التي مر بها الإله حتى يحقق نهاية كالتي وصل إليها الإله نفسه، كل ذلك يجسد لنا صورة سحرية تفيد بأن هناك عمليات أخرى مرت بدورة التحول منذ ٣٠٠٠٠ سنة حتى يتجنب من يريد الوصول إلى الأسرار مخاطر الانفصال عن الإله. وأرى أن رأيي يستقر عند نقطة مهمة هي بما أن الأسرار تمثلت في الدراما الإلهية، أي مشاركة الإله، فإن الأسرار أيضًا ترتبط بتلك العمليات السحرية التي يستطيع بها من يعتنق الأسرار أن يحرر نفسه من التحول من خلال مروره بالطرق السحرية عبر الدورة كاملة لكن بشكل تصويري ورمزي عقلي. والآن فإن هذا يفترض أن الراهب يتعين عليه المرور من خلال اتخاذ أشكال حيوانات عدة، ومن خلال تلك الدراما التي حددها وقدر لها قدرها كتاب الموتى. ثم إذا نظرنا إلى الحراس أو الأرواح أو الجن المرابطين على أبواب الطرق المؤدية إلى النعيم، والتي يجب على المتوفى أن يعرف أسمائها حتى يستفتح تلك الأبواب في طريقه إلى جنة النعيم، أليست تعبيرًا عن أشكال الحيوانات التي تتمثل بها الروح أو تسكنها في دورة بعثها من جديد؟ وعديد من هؤلاء الحراس له رأس حيوان ويحمل أسماءً لأنواع من الحيوانات مثل آكل الأحشاء (الضبع) أو عيني اللهب (الذئب) وهكذا إلى جانب القطط والصقور والكلاب كذلك. إن لم تدل هذه على مراحل التحول فما الذي يمكن أن يكون دليلاً؟

كما نعرف أنه وفقًا للأسرار اليونانية أن العابد أو الناسك في أول طريقه نحو الأسرار يجب عليه وفقًا لمقتضيات الأسرار أن ينبطــح علــى الأرض،

وذلك أثناء الطقوس، ثم يحبو على يديه وركبتيه. فألا يدل ذلك، ولو رمزيًا وتصويريًا، على المرحلة الأولى وهي الزحف والتي يجب فيها على الروح أن تخضع لمحاكاة الحيوان أو محاكاة الطور الثديي؟ أليس ذلك من ضمن شعائر الأسرار المصرية التي تضم بعضًا من هذه التصاوير؟ في رأيي الشخصي أعتقد أنها تحوي العديد منها، بل وإني متأكد من العثور على عدد مؤكد من الأدلة التي تؤيد هذه النظرية التي تناولتها السيدة جين هاريسون في مقدمة كتابها عن دائرة الوجود كما وردت في أسرار أورفيوس[1] اليونانية لتعليم المريدين الجدد، وكانت على ثقة من أن نشأة تلك الأسرار مصرية لذا نجدها قد أقدمت على ذلك وقدمت رأيها حول بعض أجزاء من ممارسات التعبد التي تقضي بهروب المتعبد من دائرة الوجود إلى التطهر، ثم يحوم حول دائرة الوجود تلك لكن من الخارج وليس من داخلها.... ويدخل، وقد يعبر الممرات ذات السياج المقدس. أما بالنسبة لأداء الطقوس فكلها تتم في الظلام".

ونرى أن النساك اليونانيين ممن هم في أول الطريق يحملون أنفسهم على الخوض في الأسرار متخذين صور حيوانات صغيرة مثل صورة ولد الظبي، أو جرو. وهذا ليدل على أنهم قد ولدوا من جديد على هيئة صغار الحيوانات، بمعنى أنهم مروا أولاً بهيئة الحيوانات إلى أن وصلوا إلى الصورة الإنسانية، وأعتقد أن الاغتسال بالطين يرمز إلى أنهم كاليرقات التي تتفتح وتخرج من الشرنقة إلى العالم الجديد. فإذا لم تكن تلك الصورة تعبيرًا دراميًا عن التحول، فماذا عساها أن تكون؟ والاختلاف الرئيسي بين الأفكار المصرية والهندوسية حول التحول هو أنه في الهندوسية يحدث التحول من هيئـــة الكارما مباشرة إلى الحالة الإنسانية الخالــدة، أما في العقيدة المصرية، فإن التحول يحدث من خلال دورة تتعدد فيها أشكال

---

(١) ص. ٥٨٨.

التغيير والمعاناة. والهروب في هذه الحالة يعتمد على إتمام هذه الدائرة التي تنتهي بحكم أوزوريس لصالح من يكمل الدورة ويتوحد به ويُكتب له الخلود والبقاء الأبدي، أما في العقيدة البوذية والهندوسية لا تعتمد فكرة الهروب من التحول على حكم أي إله، ولا تنتهي بتوحد الروح مع الإله. وهنا يشير جيفونز إلى أنه في كل من الهند ومصر كان بين "الدين السائد والعقائد الصغرى (مثل الطوطومية وغيرها) نوع من التفاعل"، لذا فإن نظرية الجزاء أو العقاب كان لها ما يؤيدها في العقيدة الطوطومية، وكذلك فكرة الارتباط الديني بأرواح الحيوانات في الطوطومية كان لها ما يؤيدها في الدين السائد. ويتابع جيفونز "لكن على الرغم من شيوع الطوطومية في الهند ومصر وفك ارتباط الطوطومية بالرمز الحيواني، وبالرغم أنه في كلا البلدين كان يمكن للروح أن تعود إلى الهيئة الإنسانية، لا نجد هنا أي وجه للشبه. ففي مصر كان التصور في الأساس يعبّر عن وسائل إثابة المتقين والمؤمنين مباشرة ومن ثم بشكل حصري هو أداة لعقاب الأشرار[١] لكنه في الهند كان يتم على كل من المؤمن وغيره: فقد غُرست نظرية الجزاء في التصور بمعنى أن كل إنسان يولد مرة أخرى، فالصالح له ميلاد صالح أما الآثم فله ميلاد آثم كل على حسب عمله. فكل البشر يولدون مرة أخرى إلاّ أن الصالح يحظى بميلاد صالح والسيئ ينال ميلادًا سيئًا وفقًا لأعمال كل منهما ورغباته. أما في مصر فكانت هناك دائرة التحول، مع إمكانية الهروب والإفلات عند إتمام الدورة. لكن في الهند لا توجد هناك دوائر ولا هروب فالشخص الصالح يحظى بميلاد صالح وقد يتسبب السلوك السيئ في ولادته في مرتبة أقل وأدنى سواء تعاملت الروح على نحو صالح أو على نحو سيء فيجب أن تتم إعادة ولادتها مرة أخرى.

---

(١) وهكذا كان الحال مع النظام الطوطومي، فقد كان "المؤمن" يتوحد بالإله أو الحيوان الطوطومي، لكن مع نظم أكثر رقيًا تبدل التوحد بالشكل الحيواني بل أصبح ذلك النوع من التوحد منبوذًا وغير مقبول بالمرة، وحل محله التوحد (وكان هذا هو الأفضل) بإله سماوي.

أما مسألة سمو وارتقاء الروح فقد حظيت أيضًا بنصيب في الأسرار، وكان ذلك واضحًا جليًا في ممارسات اليونانيين واللاتينيين، كما أكد على ذلك كل من فيرجيل وأفلاطون وأبوليوس وبروكلوس. يقول تيلور "إن مصدر وجود الروح هو أيضًا نفس المصدر التي هبطت منه". وهذا المصدر هو الإله ديميرجيوس أو الإله باخوس وهذا وفقًا للفكر الأورفي، وكما يقول أفلاطون في كتابه المعروف باسم (فايدو)، "إن الروح لتهبط، بمشيئة الإلهة بروسيربين، إلى البشر، لكنها تتوزع على أجيال البشر بمشيئة الإله ديونيسوس، ثم ترتبط بالجسد بمشيئة الإله بوميثيوس والإله تيتانيك: ومن ثم فإنها تحرر نفسها من هذا الترابط عندما تمارس قوة هرقل ولكنها تتجمــع في شكل واحد بمساعدة أبوللو ومينيرفا بعد صياغتها بطريقة فلسفية سهلة".

ولكن هذا المعتقد مرتبط برؤية أو بأسباب مجمعة تتسبب في أن يكون ظهور الروح واضحًا كما يقول أبوليوس. "وقد وصلت إلى برزخ الموت ووطأت عتبة بروسربين ثم وُلدت من كل العناصر وعدت مرة أخرى إلى بدايتي. رأيت في عز الليل الشمس تسطع بنورها الفضي، ومثلت أمام آلهة العالم السفلي والآلهة العوالي وجهًا لوجه وقدمت لهم عبادتي". ويلاحظ أفلاطون في كتابه (فايدو) **Phoedrus** كذلك: "لكن أصبح من المباح العمل على خدمة الجمال المشرق العظيم عندما نحصل على هذه المجموعة المباركة وهذه هي الرؤية السعيدة والأمل المنشود. وإننا بالفعل استمتعنا بهذا المشهد المبارك إلى جانب مشهد الإله جوبيتر العظيم، واجتماع الآلهة مع بعضهم، وفي الوقت ذاته أكون ناسكًا في أول الطريق إلى هذه الأسرار، التي هي سيدة كل الأسرار وحق لي قول ذلك، وهذه المجموعات الإلهية التي نحتفل بها جميعًا في الوقت الذي نتمتع فيه بالتكامل المناسب لطبيعتنا وقد تخلصنا من نزعات الشر التي حجبت عنا ذلك النعيم فيما

مضى. وبطريقة مماثلة وبعد هذا السمو الإلهي نشاهد بمنتهى الكمال والبساطة رسوخ الرؤى المباركة، ونسكن النور الطاهر، ونطهر أنفسنا ونتحرر من قيود الجسد وإن كنا نقبع بداخله كما لو كنا محارًا داخل صدفته".

ومن هنا يصبح من الواضح أن أكثر أجزاء العقيدة سموًا هو الجزء المعروف باسم "المشاهدة أو التأمل" والذي نجد فيه الآلهة ظاهرة في الضوء (الشمس)، ويرمز ذلك إلى الرؤى التي تراها الأرواح الناجية رؤيا عين والتي ستنعم بعد ذلك بتلك الرؤيا، ثم ترتقي في سموها إلى أعلى الدرجات، إلى الأمجاد السماوية. ويقول بروكلوس في مقاله حول كتاب أفلاطون بعنوان "الجمهورية" أو المدينة الفاضلة: "في كل العبادات والأسرار، يظهر الإله متخذًا العديد من الأشكال ويظهر في صور شتى: وأحيانًا في صورة نور، لا يمكن تصويره، يظهر أمام الرائي بصورة الإله، وأحيانًا يتخذ هذا النور شكل إنسان، وأحيانًا يتخذ أشكالاً أخرى". يقول أحد كهان الإله زوروستر: "ليس التوسل هو صورة الطبيعة الذاتية الوضوح، فلن يمكن لإنسان أن ينال شرف هذا التوسل والتعبد إلا بعد أن تتطهر نفسه بما يتوافـــق مـــع العبادة ومتطلباتهـــا". والآن مـــا المقصود بصورة الطبيعة الذاتية الوضوح؟.

كتب بروكلوس عن كتاب أفلاطون بعنوان (طيمايوس) **Timoeus** يقول "القمر هو المسئول عن حدوث الموت في الطبيعة، وعن تحقيق الصورة الذاتية الوضوح للطبيعة وكأنها هي مياه التعميد للخلق"، وعن نفس المسألة يتحدث تيلور، وهو أفلاطوني الفكر، فيقول: " إن كانت نفس القارئ تتوق إلى معرفة ما يجب علينا فهمه عن المقصود بالطبيعة التعميدية التي يمثل القمر صورتها، فيجب أن نستحضر أولاً تلك المعلومات المستمدة من دراسة عميقة وطويلة في اللاهوت القديم: والتي تعلمت منها أن الإله الواحد، إله كل العالم، له صور شتى تعبّر عنه، وأن هناك مقامات ثلاثة تحيط بهذا الواحـــد وتعبّر عنه، فهناك مصـــدر الأرواح

أو الإله يونو **Juno**، ومصدر الفضيلة أو الإلهة مينيرفا، وهناك مصدر الطبيعة أو الإلهة ديانا. وهذا المصدر الأخير وهو الطبيعة يعتمد كذلك على الإلهة المعروفة رحيا، والتي يرى الإله الواحد أو إله العالم أن وجودها لازم لأن تلك الإلهة هي التي يتمثل فيها الإله الواحد. وسوف تمكننا هذه المعلومات إلى جانب ما سبق من توضيح معنى المقتطفات التالية من كتاب أبوليوس والتي تحمل المعاصرين على الاعتقاد بأن أبوليوس كان يؤمن بإله واحد فقط. وأول هذه المقتطفات نجده في بداية الكتاب الحادي عشر من قصته المعروفة باسم "التحول" وفيه نجد القمر يتمثل وكأنه يكلمه بتلك الطريقة: "ها أنا ذا جئت إليك يا لوكاس، متأثرة بدعائك، أنا أصل الطبيعة بأكملها وسيدة العناصر كلها، أرومة القرون الأولى والقوة الإلهية العليا، ملكة عالم الأموات والأولى بين آلهة السماوات: أنا التي أسيّر بمشيئتي ذرى السماء النيرات، وأنفاس البحر الشافيات، والصمت الحزين الرائن على غياهب عالم الأموات. في ذاتي يتعبّد العالم كله إلى قوة إلهية واحدة، بأشكال شتى وبطقوس متنوعة وأسماء متعددة، يسميني الفريجيون أم الآلهة البسينتيّة، ويسميني سكان أثينا مينيرفا، وهنالك القبارصة البحارة يسمونني فينوس البافوسية، وسكان كريت الصيادون يسمونني ديانا الديكتني، وسكان صقلية الناطقة بثلاث لغات يسمونني بروسبينة الإستكسية، وسكان سهول إليوس القدامى يسمونني كيريس الأثينية. وهناك فئة تدعوني باسم يونون وأخرى تدعوني باسم بيلونا وأخرى تدعوني باسم هيكيت وأخرى تدعوني باسم ريمنوسيا: بينما الشعوب الذين تضيئهم أشعة الشمس بازغة عند الشروق ومنحدرة مع الغروب كالأحباش بفئتيهم والمصريين الذي ينعمون بالمعرفة منذ الأزل فيقيمون لي الشعائر ويدعونني باسمي الصحيح فأنا الملكة إيزيس". والآن فإن ذلك يقدم لنا معنى أكثر عمقًا وبدائية وطبيعية من رأي تيلور. وتتمثل الدلالة هنا في الاعتقاد الشعبي، والسائد الآن بين كثير من شعوب الأرض، أن القمر هو مصدر الحياة ومستقـــر الأرواح. إذ نجد أن الشعوب الميلازينية تؤمن بوجود مصدر للقوى الخارقة أو السحرية

وتسميها مانا. وهذا مثل الأوريندا عند الهنود في أمريكا الشمالية؛ حيث يعتقدون أنها تعود لتسكن في القمر وتشكل وعاءً لهذه القوة والتي تعتبرها تلك الشعوب البدائية مصدر الحياة والقوة. ومن المعتقد أن معظم آلهة القمر تأتي عند رأس الطفل وقت ميلاده كما تعتقد هذه الشعوب أيضًا أن القمر له قوة كبرى لتسريع نمو النباتات أكثر من الشمس نفسها. كما أن المخلوقات الخرافية كالجنيات لها ارتباط وثيق بالقمر. فالجنيات يقمن بدور القابلة التي تسهل ميلاد البشر. ومن ثم فهن روح الحياة، فالجنيات ينفخن الروح في كل جسد لكي يصبح حيًا، كما يفعلن مع الطفل الوليد. لذا ارتبطت عمليات التحول والتغيير بوجودهن. وهذا من شأنه أن يؤدي إلى بعض الارتباك في الأفكار والمعتقدات، فبشكل أو بآخر نجد أن مسألة تحول الروح كان لها اتصال ما بأسطورة الجن إذ تدخل الجنيّة في.الروح وتمتزج بها وتعود بها إلى الأرض كلما فارقتها بالموت.

الفصل السادس

تابع فلسفة الأسـرار

عندما نطالع أعمال أفلاطون نجده يؤكد على أن كُنه الأسرار وغايتها الكبرى تتمثل في إعادة الإنسان إلى أصله الأول الذي جاء منه. فمنذ القرون الأولى والعصور القديمة وحتى يومنا هذا، نجد أن مبدأ هبوط الإنسان من السماء إلى الأرض كان ولا يزال عماد الاعتقاد. فهناك من الشعوب القديمة، كشعب ويلز القديم وأحد قبائل الهنود في أريزونا، من يؤمن أن الإنسان بذل طاقته للارتقاء من الصورة الدنيا إلى الصورة العليا، وهذا سابق على نظرية داروين في النشوء والارتقاء ومخالف لها في عدة أوجه. لكن يظل المعتقد الذي يتفق عليه أهل الأرض جميعًا هو أن الإنسان هبط بأخلاقه ومبادئه من حالة الطهر والبراءة السامية إلى حالة أدنى.

وبالطبع نجد أن هذا الاعتقاد ارتبط بأفكار عدة منها المعرفة الدنيوية وفكرة تعديل ما هو مقدس، وقصة الهبوط من السماء إلى الأرض وقطع الحبل أو السارية التي كانت تربط السماء بالأرض. ولعلنا نجد في الصلاة، التي وصفها أبوليوس، نوعًا من المخاطبة النفسية التي يخاطب بها الإلهة كريس واصفًا بذلك الخطاب مسألة هبوط الروح:

> **"يا ملكة السماء، سواء كنت كريس المطعمة، التي خلقت ألوان الطعام، يا من في بهجتك بالعثور على ابنتك محوت طعام التوحش، بلوط البشر العتيق، وأنزلت إلى الخلق طعامًا طيبًا هنيئًا، وأنت اليوم**

تزينين أرض إليوسا وتغدقين عليها فيض هباتك؛ أو كنت فينوس السماوية التي خلقت في بدء الكون الحب فجمعت به بين الذكر والأنثى، وأخذت من ذريتهما النوع البشرى بسلسلة تناسل لا نهائية، أنت يا من تُقام لأجلك الصلوات في هيكل بافوس، أو كنت أخت فويبوس التي وضعت على الأرض خلق الأجنة فأنشأت شعوبًا وقبائل، وتقام لأجلك الصلوات في معبد أفسيس، أو كنت بروسيربين ذات الوجوه الثلاثة بنوحها الليلي تكبح جماح الأشباح والحافظة على زنازن الأرض والهائمة بين الغابات، والمسترضاة بشتى العبادات، أنت يا من تضيئين مدننا بنورك الغامر المتألق ببهاء أنوثتك، وتغذين بنورك الدافئ النبات، وترسلين على الأرض نورك الخافت، بأي اسم وبأية طقوس وفي أية صورة تسمحين للناس بأن يدعوا، أعينيني على محني التي بلغت أكبر مدى، وثبتي خطى المتعثر"[1].

يقول تيلور إن اغتصاب بروسيربين[*] **Proserpine** يدل على مسألة هبوط الروح من السماء، وهذا ما يستفاد مما قاله أوليمبيودوروس عن هبوط الروح وفقًا لطريقة بروسيربين، وهذا أيضًا ما أكده سالوست في كتابه **(De Dies et Mundo)** حيث يقول فيه: "وعندما تتكلم الأسرار عن اغتصاب بروسيربين، وهو ما أوضحه أبوليوس، لا يستطيع أحد أن ينكر أن هذا دليل على أن الروح قد هبطت وقد توحدت بظلمة الجسد، وطالما أن مسألة صعود الروح وهبوطها قد تكلمت عنها الأسرار، فلا مناص من أن قصة اغتصاب بروسيربين هي ما يدل على ذلك.

(١) نلاحظ هنا جيدًا كيف أصبحت أحداث الأسطورة "مقدسة" وأصبح من الممكن استخدامها في المناجاة، وهذا يبين ما للأساطير من قوة دينية معينة في الدعاء.

(*) في الميتولوجيا الرومانية، وتعتبر زوجة لبلوتو **Pluto** إله الموتى والجحيم عند الاغريق والرومان، وتطابقت مع مثيلتها اليونانية المدعوة بيرسيفون **Persephone** (المراجع).

ولعل ما يدل على ذلك أيضًا ما ذكره أبوليوس حيث يقول، 'وقد وصلت إلى برزخ الموت ووطأت عتبة أملاك بروسيربين ثم وُلدت من كل العناصر وعدت مرة أخرى إلى بدايتي'".

والسؤال الآن هو إلى أي مدى ترتبط عملية هبوط الروح بفكرة التحـــول؟ في رأيي أن هناك ارتباطًا وثيقًا بين الأمرين وهو ما لم يطرقه أحـــد من قبـــل، فإذا نظرنا إلى الرمزية، نرى أن هبوط بروسيربين يصور بذرة القمح وهي توضع في تربة الأرض، ولمَ لا وبروسيربين كانت إلهة القمح، وكانت أمها كور هي نبتة القمح نفسها. والآن نجد القمح مرتبطًا بفكرة التحول أكثر من كل ما هو مذكور في الأساطير. ولننظر إلى إلهة القمح عند البريطانيين كريدوين وربما كانت صورة أخرى من كور، فقد أخذت تطارد زوجها جويون الذي أجلسته ليشاهد إنائها السحري مصدر الوحي والإلهام، ثم طاردت بعد ذلك زوجها، واتخذت هي وزوجها أشكالاً حيوانية أثناء المطاردة، وفي النهاية نرى جويون وهو يتشكل في هيئة حبة قمح، ثم تبتلعه زوجته كريدوين لتلده من جديد في صورة الشاعر المتصوف تاليسن. والمتمعن في تلك القصة يجد أنها ليست مجرد أسطورة تحول فحسب، لكنها في الوقت نفسه تصوير لإعادة ميلاد المتعبد أو المتصوف عبر أسرار كريدوين. والأكثر من ذلك أن المتصوف تاليسن. والمتمعن في تلك القصة يجد أنها ليست مجرد أسطورة تحول فحسب، لكنها في الوقت نفسه تصوير لإعادة ميلاد المتعبد أو المتصوف عبر أسرار كريدوين. والأكثر من ذلك أن كثيرين من أتباع الإلهة كريدوين يعتبرونها القمر ويسمونها أوجيرفين أمهاد أي "ربة البذور"، وهذا ما يجعلها في نفس منزلة الإلهة كريس[1].

---

(١) انظر كتابنا بعنوان Mysteries of Britain (الأسرار في بريطانيا) ص. ١٦٩.

ولنعد إلى قصة كريدوين وجويون، فقد قاد الجهل جويون وجعله يتذوق ما في إناء الوحي المقدس الخاص بزوجته، فأخذت تطارده، وأثناء المطاردة حوّل جويون نفسه إلى أرنب بري، بينما تحولت كريدوين إلى كلب صيد وأخذت تطارد زوجها حتى ضفة نهر، وما إن وصلا إلى النهر حتى قفز فيه جويون وتحول مرة أخرى لكن إلى هيئة سمكة، ولم تيأس زوجته فتحولت هي الأخرى إلى ثعلب ماء واستمرت في مطاردته، فتحول جويون عند خروجه من الماء إلى طائر، وتحولت كريدوين إلى صقر، وأثناء المطاردة وقع جويون وهو في هيئة الطائر على كومة من القمح كانت على الأرض، فدخل فيها وحوّل نفسه إلى حبة قمح، فحوّلت كريدوين نفسها مرة أخرى واتخذت هيئة دجاجة سوداء بعرف طويل، ونزلت على كومة القمح، وجرحته بمنقارها وابتلعته، ووفقًا لأحداث التاريخ، بعد أن ابتلعته حملت حملاً خفيفًا وفي ميقات مكتوب وضعت حملها فكان الطفل تالييسن الذي عُثر عليه في عصا صيد في مدينة إلفين.

تصور لنا تلك الأسطورة واحدًا من طقوس السمو والارتقاء، ففي أول الأمر تتحول كريدوين إلى صورة أنثى كلب الصيد. ونتوقف عند هذا المشهد لنطالع ما كتبه فيرجيل في الكتاب السادس من "الإنياذة" فنجده يبوح بما يمكن البوح به من الأسرار الإليوزينية فيقول إن أهم الأشياء الذي لا حظها بطل الملحمة عندما قادته الكاهنة إلى نهر التصوف كان عدد إناث الكلب، وكذلك عندما نطالع ملاحظات بليثو حول الوحي السحري لزورروستر نجده يشير إلى أحد الشعائر التي يمر بها من يريد السمو، إذ يكون ذلك بعرض بعض الأشباح في صور كلاب. وهنا نقول إن رمز الكلب له ذكر كبير في الأسرار، فالكلب هو حارس العالم السفلي، ومن ثم نجد أن طقوس السمو التي يمارسها من يريد الارتقاء إلى آفاق الآلهة كانت لا تخلو من ذكر رمز الكلب فيها. حتى ديودوروس وهو يتناول أسرار إيزيس يذكر أن الموكب المهيب كان يسبقه وجود الكلاب، حتى إنه يُطلق على الكهنة اسم "كلاب" الأسرار أي حراسها، كما أنه يرى أن اليونانيين قد استعملوا – عن طريق الخطأ – الكلمة العبرية كوهين (أي كاهن) بدلاً من الكلمة الأصلية اليونانية (كونيه)

أي كلب[1]. ومع ذلك نجد أن كلب الإله جوين آب نود، وهو إله لدى البريطانيين، يماثل الإله بلوتو لدى اليونانيين، وكـــان يُسمى دورمارث أي "بوابة الحـــزن"، ومن هنا نجد أن الأسرار البريطانية شابهت بشكل أو بآخر عبادة أنوبيس في مصر، وكانت لها دلالة مشابهة – وهي نفس المُؤدَّى من القصة التي حكاها أبوليوس عندما كان على عتبات بروسيربين في طريقه إلى السمو.

نعود ثانية إلى أسطورة كريدوين، حيث نجد أن الطامح في نيل المجد قد تحول إلى أرنب، وهو حيوان مقدس لدى البريطانيين، كما يقول سيزار، ولكن قد يرمز الأرنب هنا إلى جُبن وخوف الراهب المبتدئ، وقد تحول هذا الأرنب وتوجه نحو نهر. وهنا مرة أخرى نعود إلى الأسرار اليونانية ونجد أن أول الشعائر هو التطهر الذي كان يُمارس على ضفاف الأنهار، فمثلاً نجد سكان أثينا يمارسون هذه الشعيرة عند آجرا على نهر إيليسوس وهو نهر في أتيكا وتُسمى ضفاف ذلك النهر باسم "الضفاف الصوفية" وماء النهر نفسه يُمسى "إلهًا". ونعود للأسطورة لنجد أن الطامح إلى المجد يقفز في الماء، ويرمز ثعلب الماء هنا إلى الكاهن الذي يحضر ليتمم مراسم التطهر. بعد ذلك تتغير هيئة الطامح إلى المجد ليصبح طائرًا صغيرًا مما يعني أنه راهب صغير، وإننا لنجد الشاعر تالييسن يخبر بأنه اتخذ تلك الهيئة في فترة ما من حياته. بعد ذلك نجد أن خصم ذلك الطامح يتخذ هيئة الصقر مما يذكرنا بالأساطير المصرية. وفي آخر المطاف يتخذ ذلك الطامح إلى المجد هيئة حبة قمح ويخلط نفسه بحبوب قمح أخرى، وهذه الهيئة مقدسة جدًا بالنسبة لكريس أو كريدوين التي تقوم بأخذ تلك الحبة في صميمها وتعيد ولادتها مرة أخرى.

وهنا وفي هذا الجزء من الأسطورة الذي يتعامل مع مسألة هبوط الروح نجد التشابه بين الأسرار المصرية والأسرار اليونانية في فكرة التحول. وفي هذا السياق

---

(١) لقد كان "الكلب" في الأسرار المصرية بالطبع هو أنوبيس، وكان أحد الكهان يرتدي القناع الذي يصوره.

يشير الفيلسوف الأفلاطوني سالوست إلى أن الصورة الرمزية في هذه الأسطورة تتعلق باللاهوت أكثر من تعلقها بالفلسفة؛ وهي في شكلها الطبيعي تتعلق بالعالم الشعري، لكن عندما تتحد صورتها مع جوهرها فإنها تنطبق على الطقوس التعبدية، "لأن الهدف من كل المظاهر التعبدية هو ربطنا بعالم الآلهة". وفي رأيي أراني أعتبر هذا الجزء من أهم الأجزاء التي تضيء لنا الطريق لفهم الأسرار، لأنها في شكلها التي تبدو عليه تكون كالجسر الذي يربط، إن جاز لنا التعبير، بين الطبيعة الإنسانية أو الإنسان، وبين الطبيعة السماوية أو الإله. ومثل هذا الجسر ألمحت إليه الكتابات اليهودية والعبادات الإسلامية، ويتمثل الأمر كرمح يكون الإله في رأسه والإنسان في أوله متخذاً طريقه صاعدًا إلى رأس الرمح كما يُفهم من الأدلة الزوراستية والكابيلاستية.

وفي العبادات المصرية نجد أن هبوط الروح وصعودها من أهم ما يميز تلك العبادات في طقوسها وشعائرها، ويجب أن نفكر هنا في الدراما التي تصوّر هبوط الروح في مسارها من شكلها الإنساني عبر الدورة التي تأخذ فيها الروح أشكالاً أخرى ثم تعود إلى شكلها الإنساني مرة أخرى، ذلك المسار الذي تتحول فيه الروح من الإنسان إلى أقل أشكال الحياة كالأفعى أو الدودة أو أي حيوان ثديي، والسؤال هنا هل صاحبت تلك العملية عملية أخرى فكرية تتماشى معها؟ لا يمكننا الإجابة بشكل قاطع، لكن بلا شك كانت هناك عملية فكرية مصاحبة. فلا شك أن تلك العملية انطوت على تحقير للذات وعلى محاكاة تصويرية أيضًا. فنحن نجد الراهب يزحف على بطنه مثل الثعبان، ثم يحبو على أربع مثل كلب أو ثعلب، ويلتحف جلد حيوان، حتى يتم نضجه ورقيه إلى الصورة الإنسانية، وبالطبع كل هذا تصويري، وبعد رقيّه ينتصب قائمًا في صورة إنسان مكتمل القوام، ويبدو أن ذلك كان من طبيعة العبادات والطقوس، ومن أصل شعائرها التعبدية الظاهرية.

صحيح أن تلك العملية الفكرية تبدو جيدة، لكن تظل أمامنا مسألة أخرى هي صلاحية أو نوعية تلك الفكرة، والتي تتمثل في الاعتبارات المصاحبة للفكرة

والوسائل السحرية التي يتم من خلالها التحرر من الهيئة الحيوانية، وكما قلنا من قبل، إن احتقار الذات كان مصاحبًا للحالة الحيوانية، ولكن هل كان مصاحبًا أيضًا لطقوس معينة أو تعبيرات بعينها؟ تجيب عن هذا السؤال السيدة جين هاريسون في حديثها على اليونانيين إذ تقول: "لقد كان دايوجينيس لارتيوس المسئول عن تمجيد البيثاجوريين يقول إنه كان أول من أكد على أن "الروح كانت تدور في عجلة تغيّر حتمي، تنحط تلك العجلة بالروح في موضع ما، وتسمو بها في موضع آخر". فالشعب الذي رأي في الثعبان روح البطل ما كان ليجد صعوبةً في تكوين مذهب أو عقيدة تقوم علي هذا التصور، فلم يكن لزامًا عليهم أن يقتبسوا تلك العقيدة من مصر، التي كانت تُعرف على أنها موطن عبادة الحيوانات، لكنها أكدت على قداسة حياة الحيوان، أما مظاهر الطقوس التي كان يعرضها الرهبان البيثاجوريون على الهيئة الحيوانية فقد كانت مصرية الصفة والروح أكثر منها يونانية، ونستطيع أن نجد نوعًا من التناغم والتوافق بين فكرة الخلق الحيواني وفكرة الامتهان الواعي للذات على يد الراهب".

من بين الجمل التي يتلوها الراهب الأورفي جملة تقول: "كطفل غشوم وقعت في اللبن". وتوضح تلك الجملة أن الناسك أو الطامح إلى الأمجاد عند اليونانيين كان يرى نفسه وكأنه وُلد من جديد في صورة طفل، وهذا ما يوضح التحول أو التغير من الأصل الحيواني، وهذا بالطبع مأخوذ من الطقوس المصرية. وكما نعرف جميعًا أيضًا أنه في الطقوس الباخوسية نرى المتعبد الناسك يأخذ أول الأمر صورة ولد الظبي. ولا شك أن العملية الفكرية لمسألة التحول هذه صاحبتها هي نفسها تحولات فكرية. فكل مرحلة من مراحل الارتقاء أكيد أنها صاحبتها صلوات وأدعية معينة.

ولكن المسألة الأكثر أهمية هي العملية الفكرية التي من المؤكد أنها صاحبت طقوس ارتقاء الروح، ولننظر مثلاً إلى الدراما التي تصور موت أوزوريس وإعادة

ميلاده مرة أخرى. ولطالما يُساء فهم تلك الدراما ويُنظر إليها على أنها - بل وكل طقوس العبادات بما فيها من شعائر - تهدف باستخدام القوى السحرية فقط إلى التوحد بذات الإله، وإذا سلّمنا بذلك الرأي فستظل العبادات والأسرار جزءًا من الدين والعقائد البدائية، ومن ثم تبدو مجرد "شيء يُحتفل به" ووجه من أوجه الأسطورة، ولا يكون لها بالتالي أية علاقة بما ينطوي عليه الدين من حكمة. والأدلة التي يسوقها يامبليخوس وبلوتارخ تميل نحو هذه النظرية التي تنافي العقل السليم. والدليل على كلامي أن معجزات الروح، أقصد روح إيزيس، كانت تمثل جزءًا من الطقوس، وهو الجزء الذي سبق دراما إعادة الميلاد الحقيقية، وهذا لا شك فيه. ووفقًا للعبادات الإليوزينية نرى الروح تهبط من الفضاء حيث الكواكب والمجرات، وتهبط من مدار السرطان إلى كوكب زحل والذي تقارنه عقيدة كابيلا بنهر كبير عظيم بطئ الحركة، وتارة يُضرب له المثل بالبحر الذي يغتسل فيه المتعبد. بعد ذلك تهبط الروح إلى القمر، ثم تستقر في مناخه، وهذا يمثل الجسد.

وهنا لابد أن نتكلم عن أسطورة باوبو كما يرويها الأب المسيحي أرنوبيوس، والتي تصور التحام الروح بالجسد. صحيح أن الأب أرنوبيوس كان يحكي هذه الأسطورة ليدحض بها مسألة الأسرار والعبادات القديمة، لكنها أسطورة مهمة جدًا لنا للتدليل على ما نحن بصدده . تقول الأسطورة إن الإلهة كريس كانت تبحث عن ابنتها على الأرض، وبينما هي كذلك وصلت إلى حدود مدينة إليوزيس في منطقة الأتيك، وكان يسكن تلك المنطقة وقتها مجموعة تُسمى باسم مجموعة الأوتوخثون، أو الهابطون إلى الأرض وكانت تلك المجموعة تتكون من باوبو وتريبتوليموس، وكان بينهم ديسوليس وهو راعي ماعز، وإيبولوس، حارس الخنازير، وكان معهم أيضًا إيمولبوس وهو راعي غنم ومنه ينحدر جنس الإيمولبوديين ويُشتق منه أيضًا اسم سيكروبيدا، وكان يُنظر له على أنه المبدأ الذي يستلهم منه حاملو الشارة والرهبان المقدسون وحيهم. وكانت باوبو هي رمز الجنس الأنثوي في تلك الجماعة، وهي التي استقبلت كريس وهي مثقلة بحملها من الشرور والآثام،

فقامت باوبو باستضافتها وبذلت كل ما في وسعها لتخفيف أحزانها بمظاهر الخشوع والتملق. ولهذا الغرض كانت تتوسل إليها أن تنعش لها جسدها، ووضعت أمامها ألوان الشراب لتطفئ حرارة عطشها، لكن الإلهة الحزينة كرهت تملقها ووسائل الإغراء التي تقدمها لها باوبو ورفضت فضول تلك السيدة المضيفة لها، لكن باوبو لم تيأس وظلّت تقدم لها كل أشكال التضرع والخشوع، والإلهة كريس الحزينة ترفض كل تلك المظاهر والأفعال ولم تعطها ما تريد، وكلما زادت باوبو في خشوعها وتضرعاتها، زادت كريس من صرامة رفضها. ولما رأت باوبو أن كل ما تفعله لتخفيف أحزان كريس يذهب أدراج الرياح، ولا طائل منه ولا جدوى، قررت أن تغيّر الطريقة التي تحاول بها تخفيف أحزان كريس ذات العقل الذي لا يمكن تملقه بأية محاولة مهما كانت المعجزات. لذا قامت باوبو بنزع جزء من جسدها، ذلك الجزء الذي يخرج منه الأطفال، ويميز كنه المرأة، وتظاهرت بمظهر أكثر طهرًا ونقاءً، وعادت مرة أخرى إلى الإلهة الحزينة، وبينما تحاول أن تخفف أحزان كريس، كشفت نفسها وأظهرت مكان عورتها، فركزت الإلهة كريس نظرها على تلك الأجزاء وسرتها تلك الطريقة الجديدة لتخفيف آلامها وأحزانها، ثم أطلقت ضحكاتها وروت عطشها وشربت من ألوان الشراب التي رفضتها من قبل.

تنتمي هذه الأسطورة بلا أدنى شك إلى صلب الخطاب الغامض الذي يُؤدَّى من خلال المعنى التعبدي، ذلك المعنى الذي لا يشك أحد أنه من تركة الأسرار التعبدية. وكما يقول يامبليخوس: "إن إظهار هذا الجزء من الأسرار يحررنا من الشهوات الحقيرة، من خلال إشباع الرؤية، وفي الوقت نفسه من خلال التغلب على الرغبات عبر القداسة المهيبة التي تصاحبها تلك الطقوس، وذلك لأن أفضل الطرق لتحرير النفس من الشهوات أخذها أولاً بالملاطفة حتى ترضى وتشبع، ثم تصغي النفس بعد ذلك وتقتنع، ومن ثم تذهب عنها شهواتها".

من الممكن أن نصور باوبو، السيدة، على أنها رمز الشهوات أو على أنها النوع الأنثوي للحياة المادية التي من خلالها تتحد الروح مع الجسد الأرضـــي.

وهنا نجد الروح التي كانت تحلق في الملكوت والفضاء قد وقعت في الشباك الأرضية، فتهبط لتولد في عالم مادي، وهي بذلك تعبر من البهاء الإلهي إلى الظلام الأرضي، وتصبح مادية في صورة طفولة جسدية. وهذا ما يدلل عليه ما جاء في الأسطورة إذ نجد كريس أو كور، والتي تمثل الجانب المعنوي أو الفكري للروح، وهي في مسار بحثها أو تطورها في الملكوت المادي تمسك بها باوبو، التي تمثل الحياة المادية، والتي تحاول أن تلاطفها أو تحولها وتجعلها تنسى أحزانها. وبنفس الطريقة يتحول الإنسان ويُعمى عليه ويترك الشأن الإلهي ويغريه بهرج الوجود الأرضي الذي يجعله ينسى سبب وجوده والحاجة إلى النمو الطبيعي. وعندما يقع الإنسان في هذا الفخ لا يلمس إلا ظلال المادة وينسى الجوهر الإلهي. وهنا يتجلى وجه الشبه بين ألوان الشراب التي قدمتها باوبو وبين تجرع الوجود الأرضي الدنس الذي لا يؤدي إلا إلى الفساد والموت[1].

لكن ماذا عن المصري؟ لابد أن مسألة "هيام الروح" قد تبدت له، وأكيد أنه قد مارسها في أشد صورها تركيزًا وألمًا بشكل لا يمكن إلا لراهب فقط أن يفهمه. فالرحلة الذهنية والنفسية عبر عوالم العناصر و"الأفلاك"، وهما مستقري الوجود، كانت هي تجربة آلام السمو والارتقاء التي تركت أثرها الأبدي على الناسك المتعبد. فهذه الرحلة في أعماق ظلمات الروح لا يمكن إلا أن تكون رحلة يملؤها الخوف والآلام التي لا يمكن وصفها أو تقديرها ولا يمكن إلا لمن خاض غمارها أن يعرف طعمها. وليس من الخشية والتقى الإفصاح أو حتى السؤال عن حقيقة تلك الرحلة التي قطعها الراهب بروحه عبر آلام تحقيق الخلود، فقد وجب عليه، بمصاحبة الإلهة إيزيس، أن يخترق عبر مناطق البهاء المرعبة والخوف القديم، بينما هو قابع في حالته المادية الجسدية.

---

(١) ربما أمكن شرح هذا الجزء من الأسطورة علميًا على أنه جهد لكي تصبح ديميتر قادرة على الإنجاب بفعل قوى السحر. وقد سجل هيرودوت أن النساء اللواتي كن يحضرن عيد أوزوريس ربما كن يعرضن أنفسهن على الإله لنفس الغرض.

وعندما يقترب الراهب من الإلهة، التي تهديه وتحرسه، وتعلن الحية الهائجة المذعورة عن حدوث ذلك القرب، والحية هنا رمز الإلهة، فإن هذا الحدث يزلزل أشجع قلب من الخوف، ويبدأ الراهب الساعي إلى السمو رحلته، تلك الرحلة المرعبة التي لم يعرف لها مثيلاً من قبل، فهي رحلة يشهد فيها الراهب تحرر روحه، ولا تحده قيود جسده، وتسمو روحه إلى وديان الملكوت العلوية، ويصل بروحه تلك إلى قمم البهاء والذرى الشُمّ، فتنطبع آثار تلك الرحلة في وجدانه فلا يستطيع أبدًا أن ينسى جلالها أو يمحوه. وبينما ينتقل من وادٍ إلى واد، ويرزح من فيض وعلو إلى آفاق السمو الأكبر والخلود، فأي اضطراب للأحاسيس يعصف به حتى وإن كان أحكم الخلق؟ فمثل هذا الوصول لم يتحقق من قبل لأي مخلوق، فيا لها من مفاجأة، ولا يمكننا أن نصف ما تصل إليه الروح من مراحل الخوف الفزع وهي تقتحم من فوج إلى فوج خاصة عندما تكون الروح غير مجهزة لهذه الرحلة. أما ما يجب أن نستفيد به من هذا المشهد المهيب هو أكبر وأعظم دروس الحكمة وأكثرها نبلاً، ألا وهو الفتح الإلهي الذي يتحقق لمن يصل إلى الدرجات العلا.

أما الغاوون في غيّهم، ممن يذهبون لتلك الرحلة دون تجهيز أو إعداد، فيقبعون في طريقهم المرعب دون نجاة، ويصيبهم الجنون والخبل، وكانت الشرور قد ملأت نفوسهم، فالآن وفي تلك الرحلة يتجرعون الألم والعذاب ولا يكادون ينطقون. فتُرى بعد قراءة تلك السطور ومعرفة هذا السبيل، أي الفريقين تختار، هل ستترك روحك تذهب لتلك الرحلة دون هدى أو صراط قويم تتبعه حتى تتجنب تلك الأهوال؟ أم أنك ستترك التجهيز والإعداد ويلهيك الأمل؟ فهل تجرؤ يا هذا أن تضيع روحك في أعماق المجهول وتتمزق على عتبات البهاء دون وصول إليه؟ فالرحلة نفسها درب من العذاب، تملؤها الأهوال، والعذاب المهين ينتظر لا محالة، ولا أستطيع أن أتكلم أكثر من ذلك، فالصمت في هذا المقام هو أنسب فعل، فهذا المقام يلوذ بالصمت فيه كل عاقل ويلقى السمع وهو شهيد.

ولكن، لا يسعنا الآن سوى القول بأن الأسرار والعبادات ما هي إلا رؤية تتجسد فيها الرغبة بالتوحد مع الإله، وليست هي التوحد نفسه. والآن يعرف المتعبد، بل ويتأكد، أن مآله إلى العلو والسمو والبهاء ينتظره إذا ما أدى الأمانة المقدسة في رحلة حياته التي يقطعها على الأرض. لقد وُلد حقًا من جديد بعد أن أدرك تلك الحقيقة الروحية، وبدأ يحسب لحياته من أول يوم في تلك الحياة الجديدة، ونستطيع الآن أن نثبت بأكثر من دليل أن هناك طقوسًا تصويرية تعبّر حق التعبير عن إعادة الميلاد تلك، يقول م. موريت في هذا الشأن[١]: "في مصر، كان التعبير عن إعادة الميلاد يتم عن طريق إحضار تمثال أو مومياء المتوفى ويوضع في داخل بهيمة القربان أو داخل بقرة خشبية، أو كان الراهب يأتي ليلة الجنازة فيضع نفسه في جلد البهيمة بدلاً من المتوفى، وفي الصباح التالي يخرج الراهب من جلد البهيمة كما لو كان يخرج من الرحم. ونرى هنا أن الأساطير تساعد السحر، فالمتوفى يصبح في منزلة تساوي منزلة إله الشمس رع، ويولد في صورة عجل، بمعنى أنه يصبح ولدًا للبقرة نوت التي تمثل إلهة السماء، وقد ذكر كل من بلوتارخ وأبوليوس وجود تمثال خشبي لبقرة يحمله الكاهن على كتفيه في موكب إيزيس. فهل كانت البقرة الخشبية تعني بالنسبة لأتباع إيزيس ما كنت أعنيه بالنسبة للمصريين، أي أنها تمثل 'الرحم' الذي يولد منه المتوفى ثانية من جديد؟ يقدم لنا أرسطو صورة مماثلة لشعائر الخروج من جلد البهيمة لـــى الجيوجوريين والرومان. كما يصف فيرجيل طريقة للنحّالين تضمن لهم توالد أجيال النحل بشكل تلقائي، فمن خلال الطقوس السحرية يمكن أن تتوالد مجموعة من النحل من داخل جلد ثور القربان، وهذان الكاتبان اليونانيان قد استمدا هذه العملية المعجزة من الطقوس المصرية والأورفية. ومن ناحية أخرى نجد المصريين يألفون فكرة خروج الروح من جلد الأضحية في هيئة نحلة، فهل تلك هي الطقوس التي تكلم

---

(١) Kings and Gods of Egypt (ملوك وآلهة مصر) ص. ١٨٦.

عنها فيرجيل والتي تُقدَّم للراهب بدلالتها الصوفية التعبدية؟ وأيًا كان، فعلى جدران المعابد يرجح وجود صور النحلة والجنين تحيط بهما سنابل القمح رمزية تلك الصور في التعبير عن أسرار الميلاد الجديد".

وقد قيل عن طقوس السمو في الأسرار الإليوزينية إن "الروح في لحظة الموتْ تشعر بنفس الإحساس الذي يشعر به المرتقي إلى الحقيقة في الأسرار العُظمى، ففي اللغة اليونانية القديمة نجد اللفظ والمعنى شيئًا واحدًا، فيُقال مثلاً (teleirtan) بمعنى يموت و(teleisthai) بمعنى يرتقي في العبادات والأسرار. فعند الموت تخطو الروح خطوات عشوائية، وتهيم هيامًا مؤلمًا تضل فيه السبيل الصحيح وتمضي في رحلات الخوف والقلق عبر الظلام، وقبل نهاية المطاف يعتريها الخوف وترتعد من الرهبة، لكن، والحال كذلك، يغمرها النور المُهاب وتدخل الروح إلى منازل الطُهر والمروج الخضراء وتصغي إلى رجع أصوات المزامير والألحان، وتسمع التراتيم المقدسة، وتأتي الأشباح الإلهية فتلهم الروح بالخشية والخشوع". نعود هنا ثانية إلى الإلهة بعد أن وُلد الراهب من جديد، فنجد تلك الإلهة بعد أن هيئت سبيل النجاة لذلك المتعبد عبر تجربة الرعب والخوف والهلع تلك، تتعهد له أن تحرسه وتحميه من الزلات طيلة أيامه التي يقضيها على الأرض، ويتضح ذلك فيما كتبه أبوليوس إذ تقول إيزيس مخاطبة لوكاس: "إنك ستعيش سعيدًا جدًا في حماي مُمجدًا حتى إذا ما وصلتَ بعمرك إلى الأجل فنزلتَ إلى العالم السفلي، هناك أيضًا في ذلك القبو ستلقاني ساطعة بين الدياجير باسطةً ملكي على غياهب إستايكس، وهناك أيضًا في مقامك بالرياض الإليوزينية ستثابر على عبادة ربتك البرّة الحفيّة، وإن أنت بالطاعة المتناهية والعبادة المتفانية والنقاوة المتمادية صرت أهلاً لرضواني، فاعلم أني وحدي بإمكاني أن أمدد عمرك إلى ما بعد الأجل المُقدر لك". وهنا نجد أنه من الضروري والحتمي أن يحيا المتعبد حياة كلها ورع وتقوى حتى ينال الحياة الطيبة المباركة فيما بعد.

لقد غيّرت الأسرار بحق حياة العابد على الأرض وغيّرت أيضا مستقبل حياته. فالمتعبد الآن أصبحت حياته ينيرها نور الحقيقة أمام عينيه، فيحيا في سلام، محققاً النصر على شهواته ورغباته، ويكثر من ذكر تلك الرحلة الرهيبة التي خاضها، ومن ثم فهو مستعد للقاء الموت أينما جاء وفي أي وقت. فالرؤية الإلهية كشفت أمامه بجلاء كل الحقائق، فلم يعد في الحياة شيء خفي عنه، وأصبح بمقدوره وطء أرض الماضي والمستقبل في أي وقت، فقد انعدم الزمن بالنسبة له وأصبح يحلق في ملكوت الحقيقة المطلقة. وأصبحت أفكار الإنسان كلها جليّة أمام ناظريه، فهو بالحكمة والإلهام الإلهي يرى مكنونات البشر. لكن تُرى بعد أن وصل المتعبد واخترق إلى المطلق هل يصبر على الوجود في هذا الكون المادي بعد أن استطاع أن يخترق حجب المجهول ويحقق الوصول؟ فطبيعي بعد أن يشهد المرء بنفسه عجائب الكُنه الإلهي أن يشعر بمدى سفلية الحياة على الأرض، ويصبح لا يطيق المقام عليها طويلاً، ويصبح المتعبد كالشاعر وهو يتبع ما يوحي به عليه شيطان الشعر في مملكة خياله، أو كالملحن عندما يستلهم عوالم الموسيقى في صوت الرعد وفي البهجة وفي العاطفة، ويتوق المتعبد ويشتاق إلى السطوع الإلهي العظيم وإلى الجلال الذي ذاق حلاوة مجده الذي لا يوجد له مثيل على الأرض، ويشتاق كذلك إلى قمم التوحد الإلهي.

نأتي الآن إلى تلخيص ما وصلنا إليه في هذا الفصل مرتبين النظريات والآراء، والتي استطعنا أن نصل منها إلى ما يلي:

(١) لا يمكن أن نعتمد على نظرية علمية فقط، إذا كان هناك مثل هذه النظرية فعلاً، ففهم الملكوت والذي قد يُساء التعبير عنه باسم "الإحساس غير المألوف" هو وحده الذي يمكن أن يفتح أمامنا سبل الفيض الروحاني.

(٢) الأسرار والعبادات ما هي إلى جزء رمزي أو سحر داخلي يمثل النزوع إلى التوحد مع الإله أو الذوبان فيه.

(٣) الفكرة المصرية عن الروح تم التعبير عنها أول الأمر في صورة شبه مادية هي صورة كا، ثم التعبير عنها في صورة روحية تمامًا هي صورة با.

(٤) بجانب ذلك آمن المصريون بعقيدة تحوّل الأرواح، تلك العقيدة التي تختلف عن المفاهيم الهندوسية والبوذية التي اقتصرت على ما كانت عليه منذ ٣٠٠٠٠ عام ولم تتطور. فبالنسبة للمصريين كانت مسألة التحول تمثل شرًا يجب تجنبه، وأن الهروب من ذلك المصير المرعب كان يتم من خلال التعبد بالأسرار. وتحوّل الأرواح سواء لدى المصريين أو غيرهم كان يُعبر عنه من خلال صور درامية تمثل ذلك التحول، والنصوص الموجودة في كتاب الموتى وفي الأسرار اليونانية تدعم تلك النظرية.

(٥) كذلك مسألة صعود الروح وهبوطها مثلتها الأسرار بوضوح من خلال الممارسات اليونانية واللاتينية، وقد انطوت الأسرار اللاتينية على رؤية الآلهة.

(٦) كانت الشمس والقمر رمزين مهمين يراعيهما الراهب.

(٧) صورت الأسرار مسألة "هبوط الإنسان من السماء".

(٨) من المحتمل ارتباط هبوط الروح بفكرة تحوّل الأرواح.

(٩) يقول سالوست "إن الهدف من كل المظاهر التعبدية هو ربطنا بعالم الآلهة". بمعنى أن الأسرار بمثابة الجسر الرابط بين الإنسان الفاني والإله الباقي.

(١٠) العمليات الفكرية التي صاحبت طقوس الأسرار كانت أهم من الطقوس نفسها.

(١١) صاحبت عملية إعادة الميلاد، ماديًا ورمزيًا، عملية التوحد بالإله.

وأخيرًا، إلى أي مدى تدلل الكتابات حول الأسرار المصرية التي استعرضناها في الفصلين الثاني والثالث على صحة الآراء والنظريات؟ لا شك أنها تتوافق مع آراء بلوتارخ ويامبليخوس كما يلي:

(١) كانت المعرفة العلوية هي هدف الأسرار المصرية. فقد اختفت فلسفة تلك المعارف وراء خلق الصور الرمزية، لكن هدفها كان تكوين أفكار عن الطبيعة الإلهية.

(٢) رمزية الأسرار المصرية، كما يقول يامبليخوس، كانت على أساس روحاني.

(٣) المتعبدون في الأسرار المصرية كان شوقهم الأكبر إلى التوحد بالإله.

(٤) أن الإنسان قد هبط بشقه المادي، أما "الصورة الإنسانية" للروح، كما يسميها يامبليخوس، فقد عبّر عنها كا شبه المادي.

(٥) التحرر من القيود المادية كان يتحقق في الاعتقاد المصري من خلال "المعرفة العلمية بالآلهة".

وعلى حد قول بلوتارخ ليس لدينا ما يثبت أن الهدف من الأسرار كان "هو الحفاظ على الكتابات عبر التاريخ"، لكن ذلك قد يكون منطقيًا بالنسبة للطقوس البدائية للشعوب الأخرى التي تحكي وتصف التاريخ الإلهي. وربما كانت أساطير أوزوريس وإيزيس من هذا النوع البدائي "لذكر التأريخ"، وربما يرجع أصلها إلى تلك الأساطير التأريخية للآلهة، لأن تلك الأساطير، كما يقول بلوتارخ، كانت تمثل ظواهر الطبيعة، والتاريخ الشخصي الذي دائمًا ما كان يختلط بطبيعة التكرار الأسطوري.

الفصل السابع

الأسرار في البلاد الأخرى

تُعد مسألة دراسة الأسرار في البلاد الأخرى غير مصر في غاية الأهمية لدارسي العقائد والأديان القديمة، وتكمن هذه الأهمية ليس فقط في تصوير وإثبات الأصل المصري لتلك الأسرار والطقوس فحسب، بل في تسجيل الظروف التي من الممكن أن تلقي الضوء على الممارسات السرية والتعبدية المصرية أيضًا. وإذا ما نظرنا من الناحية العملية نجد أن كل جزء في تلك المعمورة لا يخلو من وجود مجتمعات لها أسرارها التعبدية والدينية والتي لا يمكن أبدًا أن نلغي أو نغض الطرف عن التشابه بينها وبين أصولها القديمة، ففي اليونان وأفريقيا وأستراليا وأمريكا نجد أن تلك الكيانات الدينية أو العقائدية كان هناك وجه شبه يربط بين أصولها القديمة بمعنى أنها لم تكن عقائد مبنية على أساس علمي، بل والأكثر من ذلك أنها في مظهرها كانت تبدو عقائد مضحكة وسخيفة.

وقد أوضحنا تلك النقطة بشيء من التفصيل في الفصل الذي نتناول فيه مسألة أصل الأسرار، ولكن تظل مسألة دراسة الأسرار في البلدان المختلفة أو الأسرار غير المصرية مهمة في فهم المدرسة المصرية نفسها، فإذا ذهبنا إلى اليونان سنجد أن الفكرة التي بُنيت عليها الأسرار الإليوزينية والديونيسية جاءت من أصل مصري، أي أنها فكرة في أساسها مصر، وهذا ما أثبته كل من فوكارت وموريت، بينما نجد على الطرف الآخر كلاً من جيفونز وفارنيل يتبنيان رأيًا مفاده أن تـــلك العمليـــة حدثت من خلال العقائد التي ســـادت في منطقة غرب آسيـــا.

أما ما كتبه م. فوكارت في كتابـــه بعنـــوان (Recherches sur l'origine et la nature des mystères d'Eleusis) أو بحـــث حـــول أصل وطبيعة الأسرار الإليوزينيـــة، فيثبت بطريقة تثير الإعجاب حقًا أن ديميتر المعبودة في إليوزيس ما هي إلا صورة هيلينية من الإلهة إيزيس[١].

وتثبت لنا الكتابات والنقوش الموجودة في آثار فترة الأسر الحاكمة في طيبة العلاقة التي ربطت بين مصر والمجتمع الهيليني، فتلك النقوش تسجل أنه من القرن السادس عشر قبل الميلاد وفي عصر الملك تحتمس الثالث وخلفائه دأب موظفو الـــدولة المصرية آنذاك على زيـــارة جزر بحر آيجين في الدولة الفينيقيـــة[٢]. وقد كانت عبادة ديميتر، إلهة القمح، هيلينية المظهر مصرية الأصل، فلم تكن إلا صورة من عبادة الإلهة إيزيس، وفي وقت ما في القرن السادس عشر قبل الميلاد ضمت عبادة ديميتر كل مبادئ واعتقادات عبادة إيزيس وأوزوريس. يقول المؤرخ ماسبيرو، "ليس بالضرورة أن تكون متعمقًا في علم المصريات حتى تستطيع أن تتعرف على الإلهة إيزيس المعبودة في دلتا مصر في زيها ومظهرها اليوناني، فإن اختلف مظهرها وإن اختلف اسمها فهي إلهة الأرض الخصبة، وسيدة الحصاد والخبز التي تمن على أتباعها بنفس المصير الذي منحته لزوجها أوزوريس، وتهديهم إلى جنات النعيم بعد خوضهم رحلة الآلام والظلام في قبورهم"[٣].

لقد كانت التعاليم وكذلك الوصايا التعبدية التي تنعم بها الآلهة على المتعبد الناسك وفقًا للأسرار الإليوزينية متاحة لمن تطيب نفسه وتتأهل لتلقي تلك التعاليم

---

(١) لم يتفق السيد. أندرولانج مع هذه النظرية إذ يرى أن التحليلات الهمجية موجودة كل حدث في العقيدة الهيلينية. راجع كتابه بعنوان Custom and Myth (العرف والأسطورة) ص. ٨١.

(٢) ديفيريا، (Mémoires et Fragmentsمنمنمات من الذاكرة)، مجلد ١، ص. ٣٥-٥٣.

(٣) ماسبيرو، New Light on Ancient Egypt (أضواء جديدة على مصر القديمة)، ص. ٥٦.

وتتهيأ لممارسة طقوس الحياة الأخرى بعد الموت. وقد استعملت تلك الأسرار عناصر الدراما وكشفت بعض الأمور المقدسة وكذلك بعض التعاليم. وللنظر هنا إلى الدراما التي تـحكي قصة اغتصاب هاديـس إله العالم السفلي للإلهة كـور أو بيرسيفون، والحـزن الذي ألم بأمها ديميتر، ورحلة ديميتر للبحث عن ابنتهـا، ثم اتحادها بسيليوز وميلاد يوبوليوس، والطريقة التي استقبل بها تريبتوليموس أخته غير الشقيقة كور. وفي سياق آخر لتلك الدراما نجد كلاً من خادم الإلهة ديميتر وخادمتها يمثلان زواج ديميتر وزيوس ويعرضان للحاضرين ممن يشاهدون عرض تلك الدراما حبة القمح الناضجة، التي تعبر عن نتيجة تزاوج الأرض بالسماء، وهذه الدراما تُعرض داخل المعبد ويقتصر عرضها على الحاضرين في حرم المعبد دون سواهم، وكما يقول فوكارت، كانت عروض تلك الدراما في المعابد بسيطة إذ لم يكن هناك استخدام للديكورات المعقدة أو حتى استخدام لأي أدوات أو أجهزة من أي نوع.

ويتابع فوكارت فيقول، لقد كان كل ما يستخدمونه يدور في فلك البساطة فكانوا يعتمدون على "صمت الليل وتعبيراته، وتداخل النور والظل والصوت الملكي للبشير المقدس، وثياب الكهنة والرهبان بما لها من مهابة وفخامة ووقار وغناء الجوقة وهو يعبر تارة عن الألم وتارة عن الانتصار، والاعتماد على التأثير القوي للخيال ومخيلة المشاهد. وكذلك اعتمد العرض على وجل القلوب عندما تشاهد مراسم التحضير الذي يسبق طقوس السمو والارتقاء إذ هنا يسيطر الغموض والمهابة على كل البقاع المقدسة، ثم تأتي بعد ذلك المشاهد التي تبين التعاليم شبه الإلهية التي يتلقاها المتلقي الطامح للوصول إلى قمة المعرفة الإلهية، وانسحابه إلى إليوزينية أثينا، وقيامه بالشعائر التي تتمثل في الصوم والتطهر من حين لآخر وتقديم القرابين والأضاحي والإنشاد وأداء الحركات الراقصة طوال مسيره من أثينا إلى إليوزيس، وتكراره لصيحة واحدة يهتف فيها قائلاً "ياخوس"، ثم وصول النور

إلى المدينة المقدسة، وفوق كل ذلك القلق والتوتر الذي يصيب ذلك المتعبد الناسك لأنه لا يعرف ما الذي ستوحيه إليه الآلهة المعبودة، فكل ذلك يجر الإنسان إلى عاطفة قوية وانفعال عارم. عندئذٍ يقوم الراهب بالكشف عن التمثال المقدس للإله أمام ناظري العابد الناسك، ترى ساعتها ألن يشعر في مثل هذه الأجواء أنه أمام الآلهة وكأنه يحاكيها وجهًا لوجه؟".

يذكر ثيو فيلسوف مدينة سميرنا أن الأسرار الإليوزينية كانت تضم خمسة أجزاء للوصول إلى المعرفة الإلهية "أول تلك الأجزاء هو الاستهلال وهو الجزء الذي يطلع عليه كل من تاقت نفسه إلى تلقي المعرفة العلوية، لكن يظل هناك ممنوعون من معرفة هذا الجزء وهم كل من تلطخت يداه بالدنس أو من ليس له صوت؛ وهؤلاء لا يمكن طردهم وحرمانهم من نيل فيض المعرفة العلوية، بل يكون لهم استهلال وتطهير من نوع خاص وهو ما يمثل الجزء الثاني، وبعده تمضي الطقوس المقدسة في تسلسلها. والجزء الثالث عبارة عن تمحيص قلب المتعبد، والجزء الرابع الذي يمثل نهاية ذلك التمحيص هو انحناء الرأس والتتويج، وهنا يكون المتعبد قادرًا على التواصل مع الآخرين عبر الطقوس المقدسة التي تعلمها بالفعل، بعد ذلك يصبح من حملة المصابيح، أو مفسرًا للأسرار أو يرتقي لنيل معرفة أخرى في الهيكل المقدس. أما الجزء الخامس، وهو نتاج كل ما سبق، فهو عبارة عن علاقة محبة واصطفاء بين الآلهة والمتعبد وتمتعه بحلاوة الحديث مع الآلهة. ويتشابه مع ذلك مسألة عرف المنطق السياسي، بمعنى أن المشتغل بالسياسة لابد أولاً من يمر بمرحلة التجهيز أو التطهير وفق مبادئ رياضية منذ بداية وعيه، ولذا نجد أمبيدوقليس يؤكد على ضرورة تطهر من يريد الاشتغال بالسياسة من كل أنواع الدنس وتحرره من المصادر الخمسة لذلك الدنس. أما أفلاطون، فيرى أن التطهر يجب أن يسير وفق المبادئ الرياضية الخمسة وهي علم الحساب والهندسة المستوية والهندسة الفراغية والموسيقى والفلك، أما العرف

الفلسفي للنظريات، سواء كانت نظريات في المنطق أو السياسة أو الطبيعة، فإنه يماثل مسألة الارتقاء لنيل المعارف العلوية. لكنه (أي أفلاطون) يرى أن مرحلة التمحيص تتضمن التفرقة بين الكائنات الحقيقة وبين الأفكار، ويرى أين مرحلة انحناء الرأس والتتويج تمثل القوة التي يستمدها الطالب من معلمه لأنها تؤدي به إلى نفس الدرجة من التفكير والتأمل. ومن هنا تنتج المرحلة الخامسة وهي وفقاً لأفلاطون "أن يحاكي الآلهة في سموها لكن بصفات البشر".

ويشرح لنا جيفونز[1] سبب انتشار الأسرار الإليوزينية في اليونان ورواج منطقها بين الناس ويوضح في الوقت نفسه استياء الناس مما كان لديهم من إيمان غير الأسرار الإليوزينية، إذ كان ذلك الإيمان عاجزًا عن الكلام عن المستقبل، ولا يعطي صورة لما بعد فناء الحياة سوى سجون العذاب التي أعدها الإله هاديس للناس في العالم السفلي وحمل الناس على طلب "الأمل الكبير" كما شرحه فيما بعد علماء اللاهوت في القرن التاسع عشر. لقد سعى اليونانيون في القرن السادس عشر إلى نيل السعادة في العالم الآخر، وتاقت نفوسهم إلى تبني عقيدة تحقق العدالة في الحياة الآخرة، وتطلعوا إلى نوع من الطقوس والعبادات لتسود بينهم وتحقق مرادهم حتى وإن كانت من أصل أجنبي، فقد كانوا يبحثون عن ملجأ مقدس يلوذون به. وقد تحقق لهم أملهم فيما رأوه من عبادة سائدة في مدينة إليوزيس، بالقرب من أثينا، ورأى أهل أثينا نوع العبادة التي يبحثون عنها، وفي معبد ديمتر وقدسها اكتشفوا الخلفية الأسطورية والدينية التي تدلل على مصداقية تلك العبادة.

لقد كان للإلهة الإليوزينية صفة القمح، وكانت حبوب القمح هي الرمز المقدس للمدينة، وصارت بعد ذلك حبة القمح إلهة في حد ذاتها. وارتبطت طقوس عبادة هذه الإلهة بالغموض وشيء من الكآبة والحزن والتأثير في النفس.

---

(١) Mathematica (الرياضيات) ص. ١٨.

إن أسطورة الإلهة "تشرح" كيف أن الابنة كور، حبة القمح، جاءت لتقيم لدى أمها لستة أشهر في السنة، وتقيم لدى هاديس، ملك العالم السفلي، باقي السنة، وشرح تلك الأسطورة لا يبدو فقط من خلال نبتة القمح نفسها تلك النبتة التي يرويها ماء السماء فتزدهر وتنبت تحت الأرض، بل من خلال زواج كور من هاديس ذلك الزواج الذي أعطها القوة المسيطرة على مستقبل البشر بعد الموت. والمثل الذي تضربه تلك الأسطورة لا يصور دورة حياة حبة القمح فحسب، بل يصور أيضًا بعث الإنسان بعد الموت. فبالنسبة للإنسان الأول كانت دورة حياة القمح متمثلة في الحياة ثم الموت ثم العودة مرة أخرى، هي أفضل وأوفق صورة تصور وجود الإنسان نفسه في الحياة الدنيا وفي الحياة الآخرة.

يقدم لنا توماس تايلور، الفيلسوف الأفلاطوني، نظرية أكثر عمقًا وشمولية تتناول بعض الأمور العلوية في الأسرار الإليوزينية، فقد كتب يقول: "لقد وضع علماء اللاهوت القدامى ما يسمى بالأسرار الصغرى، وكانوا هم مؤسسيها، وكان هدفهم من وضع تلك الأسرار هو الإشارة بحالة من القدسية إلى انحباس الروح المشوشة المدنسة داخل الجسد الأرضي، واندماجها بالطبيعة المادية؛ أو بمعنى آخر، الإشارة إلى أن مثل تلك الروح في هذه الحياة ستذوق الموت، طالما أنه من الممكن للروح أن تموت، وبعد خروجها من الجسد وهي في حالة من الدنس والخبث تظل تعاني من استمرار حالة موتها، وذلك لأن الروح تبقى تعاني ألم الموت من خلال اتحادها بالجسد حتى تطهرها الفلسفة، وقد لاحظ عالم اللغة ماكروبيوس من هذه الإشارة، دون أن يخترق عمق أسرار القدامى، أن علماء اللاهوت ومؤسسي الأسرار الصغرى لم يشيروا إلا إلى الجسد وذلك عندما تكلموا عن الإقامة في الجحيم. ولكن مثل هذا الرأي يبدو مشوشًا ويفتقر إلى الدقة والوضوح، وذلك لأن هناك ثمة اتفاق أن كل الشعراء اللاهوتيين القدامى وكذلك الفلاسفة قدموا للأذهان والعقول عقيدة الثواب والعقاب في الحياة الآخرة وفق بنود

في غاية الوضوح والتحديد، مشيرين في الوقت نفسه أن موت الروح ما هو إلا توحد بحدود الجسد الفانية. وعلى ذلك إذا كان هؤلاء الحكماء المفكرون يؤمنون بأن هناك حالة مستقبلية من العقاب وفي نفس الوقت يرون أن ارتباط الروح بالجسد هو موت الروح، فبالضرورة يكون عقاب الروح والوجود في الحياة الآخرة لا شيء سوى استمرار الحالة الدنيوية وتحولها كما لو كانت الانتقال من نوم إلى نوم ومن حلم إلى حلم".

ولكن عقيدة المصريين بوجود البعث بعد الموت وتحققه للجسد المادي كاملاً على هيئته يدحض هذه النظرية وما يسير على نهجها. فقد كانت مسألة نجاة الجسد المادي في صورة ممجدة واحدة من أهم أركان الأسرار المصرية، بل والديانة المصرية على وجه العموم، ولا يشك أحد في أن الأسرار الإليوزينية تبنت نفس الفكر والمعتقد – وهو نجاة الجسد المادي من خلال حياته وعيشه في الحياة الآخرة معتمدًا على ما لديه من زاد. وهذا يعطي صورة أكثر عمقًا ودلالة، ولا يمكن لأحد أن يشك في ذلك.

لقد نقلت الأسرار الأورفية أو الباخوسية بشكل تدريجي الطقوس الدينية من آسيا الصغرى ومصر وميزتها عن الطقوس الدينية العامة في اليونان، ولم تقتصر تلك الطقوس على صفتها كطقوس فقط بل كان لها مضامين تعبدية أيضًا. فمثلاً نجد أن العقيدة الأورفية قد حرمت أكل لحم الحيوان في مناسبات محددة، وحرمت أيضًا في مناسبات أخرى استعمال الثياب المصنوعة من الصوف، وكلا الشعيرتين كان يؤديهما الكهنة المصريون.

وإذا ما نظرنا بشيء من التحليل لشعر هوميروس وغيره من الأشعار اليونانية الأولى نجد أنه قلما كان هناك ذكر للإله باخوس والإلهة ديميتر، ولكن في الفترة ما بين هيسيود وأونوماكريتوس نستطيع أن نلاحظ انتشارًا للأسرار بين

الناس وإعلاء لمرتبة هذه الآلهة لتأتي في مقدمة هيكل الآلهة اليوناني. وذلك يعني أن عقائد الإيمان بهذه الآلهة تداخلت بشكل ما وارتبطت نسبيًا بالآلهة الكبرى الأساسية، فصار زاجريوس، وفق العقيـدة الأورفية، "التجسيد الإلهي" لباخـوس أو ديونيســوس، وهو ابن بيرسيفـون ابنة ديميتـر، والذي انبعـث بعد موته في صورة ديونيسوس.

ويبدو أن التغير في الأفكار الهيلينية قد حدث في نهاية القرن السابع وبداية القرن السادس قبل الميلاد، وهو الوقت الذي فتحت فيه مصر أبوابها لليونانيين، ومن المؤكد أن ذلك كان سببه التواصل مع أرض النيل والارتباط السياسي والتجاري مع تراقيا وفريجيا وليديا. وأصبح هناك توازن بين ديونيسوس وديميتر وبين أوزوريس وإيزيس، وبالتالي أخذ اليونانيون ما كان للآلهة المصرية أوزوريس وإيزيس من طقوس عبادة وشعائر وجعلوها طقوس عبادة للآلهة الموازية لهم في النظام اليوناني. وأعطى العنصر الفيرجياني للعبادات الممارسة في اليونان لتلك الآلهة من صفات زوجية أو لنقل جنسية هائجة ما لم يكن موجودًا في الأسرار المصرية.

ومن بين الشعائر التي تظهر تلك الصفة الهائجة كانت الشعائر التي تُقدم إديان زيوس في كريت، وعقيدة ديميتر في إليوزيس، وعقيدة كابيري في ساموثريس، وعقيدة ديونيسوس أو باخوس في ديلفي وطيبة. فكل تلك العقائد والشعائر ميزتها نفس الصفة وأثبتتها نفس الطريقة التي سببت الارتباك في عقول من كتبوا عن تلك العقائد والشعائر، ودحض تلك العقائد كان واضحًا في الممارسة العملية، ويبدو ذلك مثلاً عندما نرى كاهنة مسنة تتحول من عبادة ديميتر إلى عبادة كابيري ثم تتحول من عباد كابيري إلى عباد سيبيل[1].

---

(١) Introduction to the History of Religion مقدمة لتاريخ الدين ص. ٣٥٨-٣٦٢.

ويتضح لنا بما لا يجعل مكانًا للشك أن القوى الدينية غير المصرية مزجت بين كل تلك العقائد، بالرغم من أننا يجب ألا ننسى الصفة شبه الهائجة التي كانت تغلب على مظاهر عيد إيزيس الذي كان المصريون يحتفلون به في مدينة بوسيريس، ذلك الاحتفال الذي وصفه هيرودوت وتكلم فيه عن المصريين ذاكرًا أنهم كان يلطمون وجوههم ويضربون أنفسهم بقسوة وبلا هوادة. وفي الشأن ذاته يقول جروت: "لقد تطورت الشعائر والطقوس وأصبحت أكثر عنفًا وهياجًا، وباتت تعكس النشوى والابتهاج الجسدي والفكري معًا. وفي الحال تحولت الأساطير واتخذت صورة أكثر عنفًا ووحشية، وبدت أكثر مأساوية وتراجعت قدرتها على بث الحزن في النفس. وسادت بل وقويت مظاهر الهياج بين النساء وهن معروفات بعدم قدرتهن على التحكم في مشاعرهن الدينية وغير الدينية، وكذلك للنساء مناسباتهن الاحتفالية الخاصة بعيدًا عن الرجال- وهذا يبدو واضحًا في حالة البدو الرحالة، خاصة الآسيويين، فالمرأة كانت هي سيدة المجتمع، وهذا حافظ إلى حد كبير على طريقتها ومشاعرها البعيدة تمامًا عن الهيلينية، فقد كان الإله ديونيسوس، والذي وصفته الأساطير بأنه كان يرتدي حلة نسائية، ويقود قبيلة من النساء الهائجات، إلهامًا للنشوة المؤقتة، ومن كان يرفض هذا الإلهام يُعد عاصيًا وخارجًا عن إرادة الإله، مما يستوجب عقابه بأحكام معينة ومحددة لذلك أو يعاقب بالخوف والرهبة الذهنية، أما من يطيعون ويسلمون قيادهم، في الموعد المحدد وبالبهاء المطلوب، فإنهم ينالون رضا هذا الإله، ويؤمنون بأنهم في مأمن ولن يحزُنهم فزع المستقبل. وفي وصف طقوس العبادة تلك نرى النساء متشحات بثياب مصنوعة من جلد الغزال ماسكات في أيديهن عصي ديونيسوس المقدسة، ويجتمعن على سفح جبل برناسوس أو كيثايرون أو تايجيتوس في فترة تسمية الكاهن والتي تجئ كل ثلاث سنوات، ويمضين الليل في أحد تلك الأماكن تحمل كل واحدة منهن في يدها مصباحًا، ويترك المجال لأنفسهن للتعبير عن مظاهر الهياج، وعنف النشوة ويؤدين

الحركات الراقصة ويلهجن ألسنتهـــن بالأدعية ويصحن بها ويوجهنها للإلـــه، وقيل إنهن في تلك الليلة يفسخن أوصال الحيوانات ويلتهمن لحومها دون إنضاج ويجرحن أنفسهن دون أن يشعرن بأي ألم جراء تلك الجروح. أما الرجال فيقومون بأفعال مشابهة وتعلو أصواتهم في صخب عارم هو يجولون الشوارع يضربون الصجاج ويقرعون الدفوف ويحملون تمثال الإله في موكب مهيب". ويبدو أن هيرودوت مقتنع بأن عقيدة ديونيسوس مصرية الأصل، وجاءت إلى اليونان على يد كادموس مبتكر الأبجدية اليونانية والذي علمها لميلابوس الذي قدم الرقصات الباخوسية بما لها من صفات مثيرة ومبهجة، والأكثر من ذلك أن أسطورة تقطيع أوصال زاجريوس، وهو الصورة الأولى لديونيسوس، تتطابق إن لم تكن هي نفسها أسطورة أوزوريس، وكذلك حزن أتباع العقيدة الباخوسية ونحيبهم وطريقة ولولتهم، والتي نجد ذكرها في أسطورة بينثوس، الذي قطعت أمه أوصاله، يشبه حزن إيزيس عندما اكتشفت أمر موت أوزوريس، والحدث برمته من تقطع الأوصال وما تلاه من حزن إيزيس ونيفتيس على تابوت الإله.ومع تقدم العصور أصبح أورفيوس التراقيوني على دراية ديانة موسى، ومن ثم فإن الطائفة التي كانت تتعبد وفق عقيدة ديونيسوس بمنتهى الدقة وتنفذها بحذافيرها، بجانب مراعاة شعائر الملبس والمأكل، كانت في رأي هيرودوت أن قواعد تلك العقيدة وكذلك العقيدة البايثاجورية جاءت كلها من مصر.

وإذا ما شئنا وصف بعض الأنظمة العقائدية بعينها والتي سادت في اليونان، نجد مثلاً أن الأسرار الإليوزينية كان أهل اليونان يظنون أن الإلهة ديميتر هي التي شرعتها بنفسها، فوفقًا للأسطورة الإليوزينية نجد أن ديميتر جاءت من كريت يلفها حزن عميق على ابنتها بيرسيفون التي خطفها هاديس وقادها معه إلى العالم السفلي، وبعد أن أعياها البحث يومًا بعد يوم وليلة بعد ليلة، وبعد أن أضنتها المصابيح التي كانت تحملها في دياجير الليل باحثة عن ابنتها اكتشفت طبيعة العجز

في نفسها والذي جعلها تكتشف ذلك هو هيليوس. بعد ذلك غمرها حزن شديد وأسف وذهبت وحالها كذلك إلى إليوزيس، وانشغلت بخدمة ديموفون ابن الملك كيليوس، تمامًا كما في أسطورة إيزيس عندما أصبحت خادمة ملك مصر. ومرة أخرى في تناص مع إيزيس، تغمر ديميتر ليلاً ابن ديموفون في النار المقدسة، وقد كانت من قبل تخشى فعل ذلك إذا كان يمنعها خوف الملكة ميتانيرا، والتي كشفت لها ديميتر حقيقة إلوهيتها وأوصت الملكة أن تشيد معبدًا وأن تقدم القرابين والضحايا تعبدًا وتبتلاً، ولم تملك الملكة سوى أن تنفذ تلك الوصية الإلهية.

لكن ديميتر لم تأذن لنبات الشعير أن ينمو في تربة الأرض وأنذرت البشر بالفناء إذا لم يقم زيوس بإرسال رسله الهرامسة لإعادة بيرسيفون وتخليصها من هاديس، لكن هاديس احتال على بيرسيفون وجعلها تأكل حبات الرمان (وهو طعام الموتى)، ومن ثم أصبح من المستحيل أن تعيش بيرسيفون عامًا كاملاً بعيدًا عن هاديس.

وقبل العودة إلى جبل الآلهة أي جبل الأوليمب أوحت الإلهة ديميتر إلى كيليوس وتريبتوليموس وديوكليس وإيمولبوس شرعها وطبيعة طقوسه وشعائره وألزمتهم بنشرها وتبليغ الناس وحملهم على الإيمان بها ومن هنا نشأت الأسرار الإليوزينية المقدسة، ونجد أن طقوس الأسرار الصغرى تتم في فبراير موجهة إلى بيرسيفون، أما طقوس الأسرار الكبرى فتتم في أغسطس موجهة إلى ديميتر نفسها[1].

وكما تقول السيدة جين هاريسون في دراستها عن الدين اليوناني إن "احتفال الحصاد الأولي" في الأسرار الإليوزينية استعار تقريبًا كل دلالاته الروحانية من عقيدة ديونسوس.

---

(١) كاليماخوس، Epigram (الحكمة) ٤٢.

لكن لابد لنا من إعادة النظر مرة أخرى في صفة الأسرار الإليوزينية الكبرى والصغرى، فالأسرار الصغرى تبدو مقدسة وموجهة إلى بيرسيفون وليس إلى أمها ديميتر، وأن أصل تلك الأسرار الصغرى لاحق على غيره. ففي تعليقات وشروح بلوتوس لأعمال أرسطوفانيس يقول: "على مدار العام هناك نوعان من العبادات يؤديها الناس هما الأسرار الصغرى والأسرار الكبرى....أما الأسرار الكبرى فهي العبادة الموجهة إلى ديميتر، والأسرار الصغرى هي العبادة الموجهة إلى ابنتها بيرسيفون". ويوضح فيما بعد أن الأسرار الصغرى نوع من أنواع التطهر لأداء الأسرار الكبرى. ويضيف ستيفين فيلسوف بيزنطة إن "أن الناس كان يؤدون شعائر الأسرار الصغرى في مدينة آجرا وكانت عبارة عن محاكاة لما حدث للإله ديونيســوس". لذا نجد أن ديونيســوس يشــارك الأسرار الصغرى مع كور أو بيرسيفون.

ولعل أفضل ما كُتب عن دلالات الأسرار الإليوزينية وقيمتها وعن الأسرار عامة هو ما كتبه م. جورجيس فوكارت وهو أحد دارسي الأسرار الإليوزينية، فهو بخلاف ما قدمته السيدة جين هاريسون، والتي سنستعرض نظرياتها في جزء لاحق من هذا الفصل، لا يتفق على أن العقيدة الأورفية كان لها تأثير رمزي على الممارسات التعبدية الإليوزينية. فيقول في هذا إن الأسرار الصغرى كان الناس يؤدون شعائرها في فصل الربيع في مدينة أثينا وفي معبد آجرا في شهري فبراير ومارس، أي قبل شهور قليلة من الاحتفال بأداء شعائر الأسرار الكبرى، وكانت الأسرار الكبرى يسبقها فترة إعداد لا تقل عن خمسة وخمسين يومًا، ولم يكن الاحتفال يؤدى كما قيل في مدينة إليوزيس، ولكن في مدينة آجرا على الضفة اليسرى من نهر إليسوس حيث يقع معبد ديميتر وكور أو بيرسيفون، وكان من يؤدون شعائر الاحتفال هم طبقات الكهنة الإيمولبيديين والكيرياسيين. والكهنة الإيمولبيديون هم الطائفة المنحدرة من أصل تراقي، أما الكيرياسيون فهم نسل النساء اللواتي كن يجمعن القذى ويلقونه في البحر لتطهيره أو لتتخلص منه.

وفي الأسرار الصغرى نجد الناسك يغتسل متطهرًا في نهر إليسوس، ويقول ستيفين فيلسوف بيزنطة إن الأسرار الصغرى كانت عبارة عن "محاكاة لأحداث قصة ديونيسوس"، ويعني بذلك الجزء الدنيوي المتاح معرفته للناس ليجعلهم قادرين على فهم ما جاء في الأسرار الكبرى. وقد يكون هذا الجزء المتاح معرفته هو ميلاد الإله أو موته وإعادة ميلاده وبعثه أو ربما توحده بكور. وهذه هي كل المعلومات التي لدينا بخصوص الأسرار الصغرى في مدينة إليوزيس.

نأتي إلى الأسرار الكبرى فنجد أن الناس كانوا يحتفلون بأداء جزء من شعائرها في أثينا وأداء جزء آخر في إليوزيس. ففي اليوم الرابع عشر من شهر سبتمبر يحمل الناس الأشياء المقدسة من إليوزيس إلى أثينا ويضعونها في أكياس أو صناديق ويودعونها في مصلى مقدس في قلب النصب المقام في آجرا ويرافقهم ثلاثة من الكهنة الإيمولبديينن وفي أثناء الرحلة يصل الموكب إلى مكان قصي من مدينة تريا حيث تقع هناك مجموعة بحيرات تُسمى بحيرات ريتوي وهي التي تمثل الحدود الفاصلة بين مدينة إليوزيس ومدينة أثينا، وهذه البحيرات مكرسة لديميتر وكور وأسماكها حكر على كهنة مدينة إليوزيس وحدهم. بعد ذلك وفي اليوم التالي يتابع الموكب طريقه إلى شاطئ البحر ويستقبله حشد من مواطني مجلس أثينا.

وننظر إلى حرم آجرا فنجده محاطًا بالأسوار والجدران العالية تمامًا مثل إليوزيس، والهدف من ذلك هو صونهما عن كل ما هو دنيوي. ويبدأ الاحتفال بالشعائر في اليوم الخامس عشر من شهر سبتمبر مع ميلاد قمر جديد. وفي اليوم الأول والذي يُطلق عليه اسم آجيرموس، يحتشد جمع من النساك في مصلى ببوسيل وهو المكان الذي كان يصعب على أهل أليوزيس تحديده. وفي هذا الوقت يُحصى الممنوعون من المشاركة في هذا الجمع ويُنظر إليهم على أنهم هم المجرمون مدنسو العقيدة، القتلة البربر. وهناك وصف أكثر لملبس ومأكل النساك. ولدى دخول النساك إلى معبد إليوزينيون يُنضح عليهم الماء من قربة مقدسة عند الباب.

وفي اليوم الثاني، يذهب النساك إلى البحر يؤدون شعيرة التطهر وسط صياح الكهنة الرسل قائلين: "طوبى للنساك"، "ليذهب النساك إلى البحر!".

وكان اليوم التالي لذلك اليوم يُعرف باسم "ياخوس" وترجع تسميته بذلك إلى اسم روح أو إله أو أسطورة ديميتر، وفي هذا اليوم يُحمل تمثال الإله المُحتفى به في مركب ويسير في موكب برفقة كهنة وكاهنات المعبد إلى إليوزيس حيث سيتم أداء الشعائر الأساسية، ويدخل الموكب تحيط به أنوار المصابيح وصيحات الابتهاج. ويرافق تمثال ياخوس بعض الأشياء ذات الطابع الأسطوري والتي تستخدم في احتفالات السمو والارتقاء. هنا وبمنتهى الغرابة نطالع ما كتبه الفيلسوف سترابو واصفاً ياخوس على أنه "نصف الإله الخاص بديميتر الذي وضع شرع الأسرار"، وهو الذي يهتف باسمه طلاب السمو والارتقاء في الموكب. ونجد تمثال ياخوس واقفًا في معبد ديميتر حاملاً مصباحًا، وكان يبدو أن له كهنته رغم أنه لم يكن له معبد باسمه..وإذا ما طالعنا ما كتبه البروفيسور فارنيل عن ياخوس إذ يقول "إنه يحل غريبًا وزائرًا ويغادر في نهاية الشعيرة المقدسة"، ويظهر كما لو كان إلهًا رغم شعبية شخصيته. والسؤال الآن هل اسم ياخوس هو تحريف لاسم باخوس؟ والإجابة هي "نعم" وهذا ما يوضحه سوفوكليس في مسرحيته أنتيجون. وياخوس هذا كان يُنظر إليه على أنه ابن زيوس وبيرسيفون، ومن المحتمل أنه دخل إلى الشعائر الإليوزينية بسبب شعبيته الكبيرة لدى أهل أثينا.

وكما قلنا من قبل، إن الأسرار الإليوزينية خبأت الكثير من المبادئ وأبقت عليها في سريتها المقدسة على أساس من التكتم، وليس كما يظن جيفونز أنها بسبب "عدوى دينية" لأسباب أكثر عمقًا. لقد كانت شريعة تلك الأسرار هي التي توجب كتمانها، وعندما أظهرها ألسيبياديس هاجت عليه أثينا كلها، وكذلك عانى إيسخيلوس كثيرًا عندما كشف تلك الأسرار في كتاباته المأساوية.

نعود إلى شعائر الاحتفال بالأسرار الكبرى مرة أخرى، ونجد أنه في اليوم العشرين من فبراير يتم ذبح قربان مقدس وتقديمه إلى ديميتر وكور بنية تحقيق الخير، وكانت حركات الحيوان الضحية وحالة أحشائه هي التي تحدد ما سيتحقق؛ بمعنى أن تلك الحركات والأحشاء تكون نذير خير أو نذير شر. وعادة ما كان حيوان الضحية هو الخنزير، وكان جزء من هذا الخنزير يؤكل على أنه وجبة مقدسة، وهنا يبدأ شأن الارتقاء والسمو. يقول سترابو إن سر الأسرار يعطي فكرة جليلة عن الإله، ويعيد الناسك إلى طبيعته التي لا يمكن له أن يفهمها بسهولة. والآن يتم تجسيد مسرحية ديميتر وكور وأغلب الظن أن الكاهن الأكبر وإحدى الكاهنات يشاركان في تجسيد تلك المسرحية. يقول تيرتوليان: "لماذا تُحمل كاهنة كريس ما لم تكن كريس نفسها (أو بروسيربين) قد عانت من نفس التجربة"، كما أن أبوليوس في قصته قد أورد ذكرها "الأسرار المخبأة في قلب الناسك، المراكب المجنحة لرهبانك، وعرس بروسبيرين، وتجولك والمصباح في يدك بحثًا عن ابنتك وكل الأسرار الأخرى المخبأة في طي الكتمان والسرية في إليوزيس بأتيك". ومن هذه المراجع نستطيع القول بأن الأسطورة الكبرى لديميتر وابنتها كانت تُجَسد أمام أعين النساك في تيليستيريون، ومن المحتمل جدًا أن مشهد تجول ديميتر بحثًا عن ابنتها بيرسيفون كان يتم تجسيده ليلاً بمحاذاة أطراف المدينة، ومن المؤكد أيضًا أن المسرحية كانت تضم بين مشاهدها مشهد زواج، والذي يمثل اتحاد النساك بالآلهة إذ أن العقل البدائي كان يرى الزواج صورة معبرة تمام التعبير عن التوحد، ومع كل هذا البيان والوضوح قد يطلع علينا بعض الكتاب بآراء في غير محلها".

وبناءً على ذلك يحق لنا القول، من باب القياس المنطقي، أن مشهد ميلاد طفل مقدس كان يتم تجسيده في المسرحية، وهذا كان أحد الطقوس اليونانية القديمة جدًا، وإذا ما تعمقنا في أقدم الرقصات اليونانية المقدسة فسنجدها تجسد تلك

الصورة الرمزية. وفي هذا السياق أعتقد أن أوريجين كان يلمح إلى هذه الصورة عندما كتب يقول "ويهتف الكاهن قائلاً لقد وضعت الإلهة بريمو وليدها بريموس، الطفل المقدس".

ربما قد تكون هناك بعض الشكوك لدى مرجعيات معينة، لكن الشيء الذي يثير الدهشة هو تلك الطقوس المتطابقة التي كُشفت في المكسيك القديمة حيث كان يتم تجسيد ميلاد إله الذرة في احتفال شعبي، وهذا الميلاد كان يسبقه زواج مقدس[1]. ولا أعني هنا أنه كان ثمة ارتباط ثقافي بين اليونان والمكسيك، ولكن بالنسبة لي لا يمكن أن أتجاهل أبدًا هذا التطابق المذهل بين الطقوس في البلدين، وربما يقوي هذا التطابق ما الافتراض الخاص بمدينة إليوزيس.

ويرى ماكسيموس تيريوس أن كل الاحتفالات كالتي كانت في إليوزيس كان لها دلالة زراعية، ويقول فيرو "لم يكن في الأسرار الإليوزينية شيء لا يشير إلى القمح". وهو كعالم متخصص في علم الإنسانيات (الأنثروبولوجي) يتجاهل المغزى من الاحتفال في اليوم التالي من الاحتفالات، ذلك الاحتفال الذي لا شك أنه يوجهنا إلى أسرار ما بعد تلك الحياة. وفي هذا السياق أجدني أؤكد على تلك النقطة لأن هناك خطر كبير من دراسة تلك الأعمال على أنها فن شعبي (فولكلور) وفقد الرؤية الأهم والأوضح للأسرار.

وإذا ما نظرنا إلى تلك الطقوس بعين الدقة، سنرى أن الحرمان من الطعام يرمز إلى صيام ديميتر، وهذا الصيام ينتهي بالإفطار على الطعام الموجود في الصناديق المقدسة ويكون وجبة عسل وخمر وجبن وأعشاب. والصناديق تكون مصنوعة من فروع الصفصاف وتأخذ شكلاً أسطوانيًا، وتبدو حوامل الخمر كسلة

---

(١) انظر Homeric Hymn to Demeter (تراتيل هوميروس لديميتر).

طويلة شكلها أطول مما يمكن لثياب ديميتر حمله، وتوضع الخمر في كأس مقدس يُسمى سايسيـــون، وبعد إتمام تلك الوجبة يظهــر الناســـك وعلـــى رأسه تاج من نبات الآس.

عندئذٍ توحى تعاليم معينة إلى الناسك. يقول ثيميستيوس في هذا السياق إنه لدى الوصول إلى حرم الإلهة في تلك المرحلة يشعر العابد الراهب بنسفه وكأنها حل بها دوار ويذوق مرار المحنة والارتباك، ويشعر بصعوبة في بلوغ مقام الآلهة أو المعبد، لكن عندما يدخل الكاهن ويفتّح الأبواب ويرفع الغطاء عن التمثال ليظهر جماله، وعندما ينظر الجميع إلى المرمر المتألق المغمور في النور الإلهي، تتبدد عندئذٍ كل المخاوف وينقد العقل وكأنه قُد من وهج الجحيم، ويستظل الناسك والكاهن في رحاب ظلال الإلهة الذي يشملهم، وهذا ينطوي على شيء أعمق من أن تدركه الرؤية الإنسانية، هذا الشيء على أقل تقدير هو أن الناسك قد نال أول قبس من جلال الخلود.

عندئذٍ يجب على الناسك أن يجتاز، روحيًا أو رمزيًا، عالم الظلال الذي نزلت إليه كور، وليس من الضرورة إعادة النظر في طبيعة الرحلة في هذا المكان، وهذا ما سنتكلم عنه بالتفصيل في فصل آخر. ومن منطقة الخوف هذه يعبر النساك إلى الرياض الإليزيانية يغمرهم النور ويفكرون في الأشياء المقدسة التي تحققت بالفعل. وفي نفس المجال نرى وصفًا للخطبة التي كانت تُلقى لتُختم بها طقوس الأسرار الصغرى.

وبالنسبة للمرحلة النهائية أو مرحلة الذروة أو مرحلة الأسرار فليس لدينا عنها تفاصيل، لكن تتفق المرجعيات على أن تلك المرحلة كانت تتعامل كلها مع شعيرة سنبلة القمح، وهذه الشعيرة هي الوحيدة المذكورة فيما يتعلق بالأسرار الكبرى في إليوزيس .والتي ارتبطت بديونيسوس أكثر من ارتباطها بديميتر.

ونستطيع أن نرى أن جزءًا كبيرًا من التعاليم موجود في الدخول إلى المرحلة الأولى، أما المرحلة الثانية من التعاليم فيُنعم بها على الناسك بعد مرور عام على الأقل، وما لدينا من مراجع ككتابات القديس هيبوليتوس محيرة كالأسرار نفسها، إذ يتكلم القديس هيبوليتوس عن المرحلة الثانية فيقول بإيجاز شديد وبدقة أيضًا إنه في تلك المرحلة تُعرض سنبلة القمح وحدها في صمت، وهذا يجعلنا لا نشك أبدًا في وضوح قوله ومراده في ربطه بين المرحلة الثانية من الأسرار الإليوزينية وبين الممارسات المصرية. وهنا يكون ديونيسوس أو ياخوس هو الإله الراعي للأسرار الكبرى في إليوزيس، وأن أسطورة حياته ألهمت مادة العبادات العلوية. لقد درسنا أسطورته وأوضحنا دلالاتها في ضوء كتابات تايلور وغيره، وثبت لنا كل ما بها يتطابق مع أسطورة أوزوريس، وهذا ما لا أشك فيه أبدًا.

الفصل الثامن

(تابع) الأسرار في البلدان الأخرى

من الأهمية بمكان أن نذكر هنا إجمالاً ما كتبته السيدة جين هاريسون حول موضوع الأسرار الإليوزينية في دراستها عن الدين اليوناني، إذ ترى أن تلك الأسرار والعبادات كانَ لها أصل لكنها كانت نسخة إليوزينية من الهالوا وهو الاسم الذي يُطلق على قبضة ديميتر وكور ويدونيسوس عند قطف العنب، وتذوق الخمر المصنوع من ذلك العنب، ويرجع جلال تلك الأسرار وروحانيتها إلى حقيقة أن أهل أثينا تبنوا تلك الأسرار لأغراض سياسية، وفي فترة ما من الزمان غير معروفة ارتبطت تلك العبادات بعبادات ديونيسوس وبعقيدة أورفيوس. "بشكل عام عندما نقول عبادة فإننا نعني بها الطقوس التي يتم من خلالها عرض طقوس مقدسة على نحـــو مخصوص والتي لا يـــمكن أن يدركـــها العابد إلا بعد مروره بمراحل تطهر معينة"[١].

إذن فإن إحضار أشياء مقدسة من مدينة إليوزيس إلى مدينة أثينا، وكذلك تجمع المرشحين لنيل معارف السمو والارتقاء كان يحدث في اليوم الخامس عشر من شهر فبراير. وفي اليوم السادس عشر تأتي شعيرة عُرفت باسم "إلى البحر أيها الناسك" وهي الصيحة التي تبدأ بها مراسم التطهر التي تتم من أجل طرد الشرور،

---

(١) ربما كان ذلك صحيحًا بالنسبة لبعض الطقوس التي تعد تحت "الأسرار" أو الأسرار في المقارنات مع مراحل أولية للتقدم، لكن مثل هذا ليس له علاقة بالمرحلة الثانية لعقائد الأسرار، بالنسبة للأساطير الشارحة التي تتبلور حول الطقوس أو بالنسبة الإقرار الأخلاقي بها.

ثم يصطحب كل ناسك معه خنزيرًا في الرحلة التي يقوم بها النساك بمسافة ستة أميال وتنتهي بأن يغتسل الناسك والخنزير معًا في ماء النهر. وهنا يقتبس الكاتب لايدوس ما كتبته السيدة هاريسون فيقول نقلاً عنها إن "الأسرار مشتقة من مبدأ التخلص من الدنس كمكافئ للقدسية" وهذا اشتقاق جيد جدًا أو ربما تعريف مما افترضته هي نفسها.

ويغادر موكب النساك المتطهرين في الليلتين التاسعة عشرة والعشرين مدينة أثينا متجها نحو مدينة إليوزيس حاملين معهم تمثال ياخوس، "ولا ندري شيئًا عن الترتيب الدقيق للطقوس التي يتلقها أو يمارسها طالب المعارف العلوية والسمو بعد ذلك". ففي أول الأمر تُقدم الفاكهة، ثم تتوالي الطقوس بعد ذلك بما فيها شرب ما يطلق عليه اسم الكيكيون (الخمر المقدسة) ثم تناول أشياء مقدسة محددة، واعتراف الناسك أو جهره بهذه الأشياء" ليس اعترافًا ولا عقيدة ولا حتى إيمانًا، وإنما هو جهر بمراسم الطقوس التي يؤديها، "ولا نعرف شيئًا" عن ماهية الأشياء المقدسة التي تؤخذ من الصندوق ثم توضع في السلة ثم تعود إلى الصندوق مرة أخرى، ومثل الأشياء المقدسة التي يتناولها المحتفلون في احتفال تيثموفوريا، وهو احتفال آخر، إذ تكون تلك الأشياء عبارة عن كرة ومرآة ووعاء، وهي أشياء كلها غير ذات أهمية كبيرة.

"جيل المؤلفين المحدثين دائمًا ما يستخدم كلمة مرحلة في وصفهم للطقوس الإليوزينية"، هذه الجملة اقتبستها السيدة هاريسون من أحد كتابات الفيلسوف بسلوس (وهي الدلالة التي اكتشفتها من كتابات تايلور الذي اقتبس نفس الجملة في أحد أعماله) وتورد السيدة هاريسون نقلاً عن بسلوس ما يلي: "أجل، وتجسد أسرار هذه (الشياطين)، كأسرار إليوزيس مثلاً، القصة المزدوجة لديو أو ديميتر وابنتها فيرفيتا أو كور، وكما هو مذكور في تعاليم الطقوس نجد أن علاقة غرامية قد نشأت وتمثل أفروديت البحر وكأنها ناهضة، ثم يتلو ذلك مراسم زواج كـــور،

ويغني الناسك الطالب للمعارف العلوية غناءً مصاحبًا لهذه المراسم قائلاً في أغنيته "لقد أكلت من الدف وشربت من الصنج وحملت الكيرون ونزلت إلى حجرة العرس". بعد ذلك تُجسد آلام ميلاد ديو، وأقل صورة لتمثيل ذلك هي إطلاق صرخات توسل ديو، كما تُجسد تجرع مرارة الألم المفاجئ والمبرح، بعد ذلك يأتي مهرج مرتديًا أرجل شاة لأن هذا ما فعله زيوس لديميتر، وبعد كل ذلك تأتي طقوس ديونيسوس والأكياس والكعك بحضور أسياد كثر والراهب الطامح للمعارف العلوية إلى سابازيوس وكلودونز وميمالونز الذين يؤدون شعائر الأم وصوت المرجـــل الخـــاص بثيسبروتيا وجـــرس دودونا وكورياس وكوريـــس وكلاهما شخصيتان منفصلتان تحاكيان صور الشياطين، وبعد هذا تأتي مراسم باوبو".

ووفقًا للسيدة هاريسون فإن هذا هو "التمثيل الصامت المقدس بناءً على ما ذكره بسلوس.... وديونيسوس والآلهة الأورفية هي شياطين وليسوا آلهة. وديانة أورفيوس هي دين من منطلق أنها عبادة الأسرار الحقيقية للحياة، عبادة القوى بدلاً من عبادة آلهة بعينها، إنها عبادة الحياة نفسها في أعلى مرتبة لأسرار النشوة والحب". وقد أورد موراي في كتابه الأدب اليوناني القديم يقول: "إن العقل شيء عظيم، لكنه ليس كل شيء، فالعالم به أشياء لا يدركها العقل، منها ما هو أقل من إدراك العقل له ومنها ما هو أعلى من إدراك العقل له، فهناك أسباب المشاعر والعاطفة التي لا نستطيع التعبير عنها، وهناك الميل إلى العبادة وهي الأمر الذي نعتبره أغلى ما في الحياة. ومن ضمن الأشياء التي لا يدركها العقل الإله أو صور الآلهة، وليس البشر زائفي الخلود، وإنما الأشياء الحقيقية أشياء لا تنتمي لعالم البشر ولا للطبيعة، أشياء تنعم وتحرم، تُضحك وتُبكي بمثقال ذرة دون أن تفقد صفائها". وهذا رأي السيدة هاريسون. وقد كان هذا الرأي، والذي كان إلهام الأسرار والعقائد فيما بعد، هو الذي أدى إلى ارتباط الإنسان بالإله، وجعل الإنسان إلهًا، بل والأكثر من ذلك جعل من الحب والعاطفة إلهًا، وأن الحواجز وعوامل

العزلة لن تستطيع أن تقف بين الإنسان والإله في هذه الصور، وهذه الحقيقة يدركها الشاعر والموسيقي من خلال الإيقاع النظمي وهذه هي النشوة، وهذه الحقيقة أيضًا يدركها الفنان من خلال الألوان التي هي الصورة المادية المعبرة عن الإيقاع النظمي، وهذه الحقيقة أيضًا يدركها المحسنون والكرماء وذوو الحس المرهف من خلال أنبل المعاني – حب الإنسان لأخيه الإنسان، والتضحية التي يبعث الحب عليها سواء كانت تلك التضحية من أجل جماهير الناس أو من أجل فرد واحد. وبالنسبة للحب، كباعث على التضحية، ليس انفلات أهوج، ولكنه مكمل ضروري وحتمي كتكامل الروح والجسد، ومن ثم كانت هذه النعمة الإلهية، أي الحب، هي الأرضية التي بُنيت عليها العقيدة الأورفية وكونت نصف طقوس مدينة إليوزيس كما سنرى.

بالنسبة للأسرار والعبادات الباخوسية أو الدينوسيوسية فإن من أسسها كما يُقال هو أورفيوس وهذا يعتمد على القصص المقدس التالي: عندما كان ديونيسوس أو باخوس صبيًا كان أمره معهودًا إلى التيتان أو العماليق، بحيلة من حيل جونو، وارتبط ديونيسوس بشتى ألوان الرياضة، كما تشير إلى ذلك تلك الفترة من الحياة، ثم بعد ذلك يؤسر ديونيسوس داخل المرآة ثم يرى في المرآة أن مصيره سينتهي بأن يقطع العماليق التيتان أوصاله، ولن يكتفوا بتلك الوحشية في تقطيع أوصاله، بل سيوقدون النار على أوصاله في الماء ثم يشوونها على النار، لكن بينما هم يأكلون لحمه مستمتعين برائحة الشواء، ويتنادرون بوحشية فعلهم، يسلط عليهم أبولو وهو أخو باخوس الرعد فترجف أعضاؤهم خوفًا وتقضي عليهم الصواعق وتحرق كلاً منهم في مكانه. وبينما الحال كذلك وقد أخذت العماليق الصيحة والصواعق يقوم ديونيسوس (الذي نجا قلبه من الأكل والذي نجاه كان بيليس) ويبعث نفسه من جديد ويعود إلى سابق حياته كاملة دون نقصان ويكمل به عدد الآلهة بعد ذلك، لكن أثناء كل ذلك كان خلق البشر من رماد جثث العماليق التيتان.

يقول تايلور[1] "لكي نفهم المعني الخفي من وراء هذا القصص بشكل ملائم، فمن الضروري أن نكرر النظر في أن كل الخرافات التي تنتمي إلى احتفالات الطقوس التعبدية من نوع مختلط....في المقام الأول بالنسبة لديونيسوس أو باخوس ووفقًا لأعلى درجة في تكوين هذا الإله، يجب أن نفهم المفهوم الفكري للروح الأرضية أو الدنيوية؛ وذلك لوجود عدد من المواكب الاحتفالية لهذا الإله، أو لأن هناك أكثر من باخوس قد اشتُقوا من كنه وجوده. وبالنسبة للعماليق التيتان يجب أن نفهم أنهم آلهة أرضية دنيوية كان باخوس على قمتهم، كما يجب أن نفهم أن جوبيتر هو ديميجروس أو صانع الكون وأن أبولو إله الشمس هو من له طبيعة أرضية وأخرى سماوية وبه اتسق الكون بفعل أسباب جلاله وقواه التي أعطت كل شيء خلقه الذي عليه، وأن مينيرفا هي إلهة الحكمة ومصدر المعرفة التي تحرس كل الأرواح في البرزخ وتمنحها الخلود من روحها المانحة للقوة ومن اتقاد فكرها فهذان الأمران هما وسيلة الحيلولة بين المادة وفنائها. نعود مرة أخرى إلى فترة صبا باخوس باعتبارها الفترة التي شهدت تمزيق أوصاله فنجد أنها هي نفسها الفترة أو الحالة التي يمكن أن تتضمن خلق الطبيعة الفكرية بمعنى أنها هي الفترة التي شكلت المفهوم الإلهي لباخوس؛ ولفهم ذلك نعود إلى ما ذُكر في الأسطورة الأورفية إذ تقول إن الأرواح عندما تكون تحت حكم زحل الذي هو نبع الفكر الصافي لا تتجه كما هو الحال الآن من الصغر إلى الكهولة، ولكنها تسير في اتجاه عكسي من الكهولة إلى الصغر أو بتعبير آخر بدلاً من سير الروح في اتجاه يبدأ من الطفولة إلى الممات تسير الروح تحت حكم زحل من الممات إلى الشباب. ثم إن ما مارسه العماليق التيتان يمثل قوة الآلهة الأرضية الدنيوية، والتي عندما مارسوا مظاهرها وخصائصها على باخوس، تمزق إلى أشلاء، لكن تمزق جسد

---

(١) Elusinian and Bacchic Mysteries (الأسرار الإليوزينية والباخوسية)، ص. ١٣٧.

باخوس ما هو إلا رمز تصويري لسريان قوة العماليق التيتان على فكر باخوس وليس الجسد، كذلك رمز المرآة المذكور في الأسطورة يجب أن يحملنا على فهم أمر معين وصفه بروكلوس بأنه عدم ملائمة الكون لأن يستقبل أو يحتوي كمال الفكر، بمعنى أن المرآة هنا تمثل الكون، وصورة باخوس فيها تمثل كمال الفكر وكما أن المرآة لم تستطع أن تضم صورة باخوس فهذا معناه أن الكون مكان غير ملائم لاحتواء كمال الفكر". يقول تايلور إن الرموز المستخدمة في طقوس عبادة باخوس، كما ذكرها كليمينز أليكساندرينوس، كانت عبارة عن عجلة وبذور الصنوبر وألعاب بدنية وفاكهة هيسبريديس ومرآة وقطعة من الصوف وعظمة كاحل، وهذه الأشياء تمثل القوة الفكرية، وقالب الروح وقوة الفكر الأرضي الدنيوي وطبيعة الفكر التي لا يشوبها فساد أو هوى والحقيقة وحركة الفكر وتواؤم باخوس مع الطبيعة.

أما جيفونز فيقدم لنا قراءة أكثر حداثة للأسطورة إذ يقول: "عندما غضب الإله زيوس أرسل صواعقه على العماليق التيتان الأشرار وحولهم إلى رماد، ذلك الرماد الذي انحدر منه الجنس البشري، ومن هنا كان للإنسان طبيعتان، طبيعة العماليق أي طبيعة الشر وطبيعة ديونيسوس أي الطبيعة الإلهية، أو الطبيعة المادية والطبيعة الروحانية. لذا نجد أن الحكاية الشعبية في الأدب الأورفي الأولي بمثابة القاعدة التي تكونت على أساسها رؤية التعاليم البيثاجورية التي تقابل بين الجسد والروح ومحاولات الروح للتخلص من سجن الجسد لتعود إلى عالم الروح مرة أخرى وهو الكنه السماوي أو الوجود الإلهي، ومقام الأرواح حسب تلك التعاليم كان مع أورانوس، وأحيانًا كان مع زيوس. وفي صميم الأسطورة الأورفية كان تقطيع أوصال زاجريوس على أيد العماليق التيتان بمثابة الشهادة على وحدة الوجود البيثاجورية: فجسد زاجريوس هو الحقيقة الواحدة، أي الوجود الإلهي لكل شيء والذي فقد وحدانيته على أيد العماليق التيتان أو عنصر الشر وتبعثرت أوصاله على

أجزاء العالم الاستثنائي، ولكن شوق الروح إلى الهروب من سجنها الجسدي لتحلق ثانية في ملكوت الوجود الإلهي هو شهادة على الوحدانية الأصلية التي كانت قبل تعدي الشر عليها، وعلى المصير النهائي للروح بعد تطهرها".

ونطالع ما كتبه م. ماتيرلينك بألمعيته المعهودة فنجده قد أصاب كبد الصفة المقارنة في الأسطورة الباخوسية، إذ يقول: "إن ديونيسوس، الطفل الإله الذي قطعه العماليق التيتان لكن لم يحصلوا على قلبه لأن قلبه قد حفظته أثينا وخبأته في سلة ثم أعاده جوبيتور إلى الحياة مرة أخرى بعد ذلك، هو نفسه أوزوريس وكريشنا وبوذا؛ ففيه تتجسد كل الآلهة؛ فهو الإله الذي نزل أو حل في صورة إنسان؛ هو نفسه الموت، في صورته، وهو نفسه البعث الحقيقي للعيش في خلود، هو نفسه التوحد المؤقت بالآلهة الذي يصبح فيما بعد التوحد الدائم والنهائي، والدورة اللانهائية للبقاء الأبدي المتجدد".

ويشرح لنا هيراقليطوس الملقب بفيلسوف الأسرار والعبادات طبيعة هذه الدورة بقوله "على محيط الدائرة تكون النهاية والبداية شيئًا واحدًا". ويقول أغسطين دايز إن "الإلوهية هي الهيمنة على بداية ونهاية كل حياة بشرية. والوحدانية قد تجزأت إلى تعددية والتعددية صارت إلى توحد، لكن كلاً من الوحدانية والتعددية يحدثان في وقت واحد، وأن الانبعاث من الأصل الإلهي مصحوب دومًا بالرجوع إلى الإلوهية، فكل شيء من الإله وكل شيء مصيره إلى الإله؛ فالكل يصير واحدًا والواحد يصير كلاً. الإله، أو العالم واحد، والفكرة الإلهية موجودة في كل جنبات الكون. وباختصار فإن نظام هيراقليطوس، مثله مثل العقيدة الهندوسية أو عقيدة الفيداس والعقيدة المصرية، نظام قائم على الوحدانية ووحدة الوجود".

ولعل أبرز ما كُتب عن تحديد طبيعة الأسرار الأورفية هو ما كتبته السيدة جين هاريسون إذ نجد في دراستها عن الدين اليوناني أنها أوضحت بمنتهى الجلاء

أن أورفيوس كان "إنسانا حقيقيًا ولغزًا كبيرًا ونبيًا ومعلمًا" مات شهيدًا وأصبحت مقبرته مقامًا مقدسًا، والذي قاد هاريسون إلى تلك النظرية كانت كتابات كونان وسترابو وبوزينيوس، فتلك الكتابات ترى أن أورفيوس "قد نال المُعتقد القديم المتأصل في الشعيرة المتوحشة لديونيسوس وأضاف إليها دلالة روحية". وأغلب الظن أن أورفيوس جاء من الجنوب، وكانت كريت هي معقل عقيدة الإيمان به في صورته البدائية. "في مدينة كريت، وربما ليس في غيرها، هنالك خليط عجيب بين الفكر المصري والفكر البيلاسيجي (وهو أصل الفكر الهيليني)، وهذا الخليط نراه في الطقوس الأورفية، إذ يقول ديودوروس إن أورفيوس قد ذهب إلى مصر ليتعلم الطقوس واللاهوت".

ونحن نجد إن عُبّاد ديونيسوس يؤمنون أنهم ملك الإله، وما هي إلا خطوة نحو الإيمان الراسخ أنهم يصبحون الإله نفسه، وهو نفس ما يؤمن به عُبّاد أوزوريس إذ يصبحون أوزوريس نفسه بعد مماتهم، أي يتوحدون به فيصبحون هم وأوزوريس واحدًا. وقد أدخل أورفيوس تضيمنًا أكثر روحانية على الطقوس الباخوسية القديمة، وهو حالة السكر والجنون التي أعطت للطقوس صفتها المميزة. "إن الأثر الأكبر الذي أوجده إوزوريس هو أنه في الوقت الذي رسّخ فيه الإيمان الباخوسي القديم مبدأ أن يصبح الإنسان إلهًا غير إوزوريس مفهوم الإله، وسعى إلى نيل رأس الإله بطريقة مختلفة تمامًا، فالنعمة التي سعى إليها لم تكن السكر الحسي، بل نشوة الروح". والمذهب الأساسي للديانة الأورفية كانت إمكانية نيل الحياة الإلهية.

ويعطينا اقتباس من كتاب عن حياة أهل مدينة كريت كتبه يوربيديس مفتاح لغز العقدية الأورفية والممارسات الأورفية، وذلك المفتاح نرى فيه قائد النسّاك يجهر بإيمانه وبطبيعة أعمال الطقوس المرتبطة بهذا الإيمان، فيقول إنه أوفى "بالعيد الأحمر وعيد إراقة الدماء" للإله، والإشارة هنا إلى التضحية بالثور ربما

تكون مرتبطة بأسطورة الكريتيين عن المينوتور (مخلوق برأس ثور وجسم إنسان)، وأعتقد أن هذا من أحد الموروثات القديمة إذ سادت عبادة الثور في مرحلة ما قبل التاريخ في العصر الأورجانسي وذلك في جنوب فرنسا. وكان المبدأ الأساسي لهذه الشعيرة، شعيرة التضحية، هو تقطيع الضحية إربًا والتهام لحمه نيئًا.

يقول كليمنت "أنا لن أتمايل حسب عباداتكم، كألسيبياديس الذي يقولون إنه فعل ذلك، ولكني سأعريهم وأخرجهم إلى النور أمام أعين جمهور دراما الحقيقة. فالباخوسيون يعظمون العربدة بوحي من ديونيسوس المجنون، ويحتفلون بالجنون الإلهي بأكلهم لحمًا نيئًا، إذ تنتهي طقوسهم بتوزيع اللحم النيئ لحيوان التضحية، ويلبسون تيجانًا من الثعابين، ويصرخون باسم حواء التي عبرت الخطيئة من خلالها إلى العالم، ورمز بهجتهم الباخوسية عبارة عن حية مقدسة". هذا اقتباس من أب مسيحي يمقت "العبادات الوثنية"، وقصد بكلامه أن يحقر من شأن العربدة الباخوسية، وانتقى تلك الشعائر التي أوردها هنا بغرض إثبات قدم وبربرية تلك الطقوس. لكن على جانب آخر نجد السيدة هاريسون تذكر بموضوعية: "صحيح أن الشاة كانت تمزق إربًا على أيدي الباخوسيين في تراق، وصحيح أن أهل كريت كانوا يأكلون لحم الثور نيئًا في فترة ما لم يذكرها التاريخ، لكن ليس معنى ذلك أن تلك الطقوس كانت تمارس في أثينا المتحضرة".

لقد تعلمنا من ملحمة الإله ديونيسوس التي كتبها الشاعر الملحمي نوناس أنه كان من عادة النسّاك أن يلطخوا أنفسهم بالطمي الأبيض كأحد مراسم التطهر محاكين بذلك العماليق التيتان عندما ذبحوا زاجريوس، وهكذا تقول الأسطورة. وهذا ينطوي على أنه في مسرحية زاجريوس نرى أن العماليق التيتان، شأنهم في ذلك شأن أي متوحش، تنكروا بارتداء "القناع الحربي" لأنه حسب العقلية المتوحشة التنكر يحمي صاحبه، لأنه يجعل الإنسان "شخصًا آخر"، فهو يحمي من الشياطين ويخيف من يراه، ولذا فقد كان يُطلق على العماليق التيتان اسم "رجال الطمي الأبيض".

وقد قام أورفيوس بتطهير الأسرار الباخوسية من عنصر التوحش والقسوة، وترى السيدة هاريسون صعوبة في مسألة خلط العقيدة الأورفية بين الثور المقدس والثعبان؛ ولكن الثور- الثعبان ليس إلا صورة متحولة من الوحش - التنين المعروف في كل الأساطير، وكذلك الثعبان ذي القرن المعروف لدى الهنود الأمريكيين والصين، وهو حيوان له خصائص وأشكال كل الحيوانات تقريبًا وقد تكلم عنه كل من دي فيسر وإليوت سميث.

ترى السيدة هاريسون، مشيرة إلى كتاب "السحب" لأرسطوفانيس الذي يحاكي به دراميًا قصة التحولات، أن هذا الكتاب قد كشف النقاب عن العبادة الحقيقية، إذ تقول: "إن 'الوحي الكامل' لهذه العبادات ولكل العبادات ما هو إلا تكريس للطقوس الإبيفينية القديمة ووضعها في صورة تعبدية، ويظهر ذلك في صيحة الباخوسيين التي تقول 'اظهر، اظهر' وفي 'دعاء' نساء إليس للثور الإله. لقد كانت تلك العبادات إيبفينية قلبًا وقالبًا، فقد كان الهدف من كل أشكال التطهر، وكل أشكال القدسية ليس مجرد الإعلان والجهر أو شرح العقيدة المقدسة، بل كان الهدف هو وحي الإله نفسه والاستمتاع بقربه، ولكن لا نعرف إلى أي مدى كانت تلك الطقوس الإبيفينية يمثلها واقع الأداء الحقيقي؛ ولكن من المحتمل أن يكون هناك بعض الصور التمثيلية التي تعبّر عن الطقوس الإبيفينية". وبالنسبة لنا فإن النقطة الأهم هي وجود الألواح الأورفية، وهي عبارة عن مجموعة من ثمانية نصوص مكتوبة على رقائق الذهب وعُثر عليها في مقابر في إيطاليا وكريت، وكانت تلك الألواح تُدفن مع المتوفى، وبها تعاليم للمتوفى ليعرف ما يجب عليه فعله في العالم الآخر وبها أيضًا عبارات وجمل ذات صياغة محددة يجب ألا ينقطع عن ترديدها وأشياء أخرى غير ذلك، لذا فإنها بمثابة كتاب موتى.

تصف ألواح بيتيليا وجود عين ماء على يسار بيت هاديس وعليها شجرة صبار بيضاء، تلك الشجرة حرام على روح المتوفى أن تصل إليها، لكن هناك عينًا

أفضل بالقرب من "بحيرة الذكرى" تحرسها الأرواح، ويجب على الروح أن تشرب من هذه العين وتصبح واحدة من أبطال الماضي. وفي هذا توازٍ مع عقيدة أوزوريس[١] حيث نجد فيها أيضًا "فصل الماء الذي يُشرب في العالم السفلي"[٢].

كذلك يجب ألا نغفل عن عقيدة كابيري، إذ أن فك رموز هذه العقيدة والوقوف على تفاصيلها صعب جدًا، وإذا ما استعرضنا ما كُتب عنها في العصر الكلاسيكي سنجد أن فيرسيديس وهيرودوت ونوناس يتكلمون عن آلهة كابيري على أنهم أبناء فولكان، أما سيسيرو فيقول بأنهم أبناء بروسيربين، وأبوهم هو جوبيتر. من ناحية أخرى نجد فلاسفة ديونيسوس مثل هاليكارناسوس وماكروبيوس وفارو وغيرهم يرون أن آلهة عقيدة كابيري مثل آلهة البيت عند الرومان والذين يعارضهم فينتيان ألتوري، ووفقًا لرأي فوسيوس لم يكن الكابيريين سوى خدم للآلهة، ويُعرفون بعد موتهم، ومن ضمن أسمائهم التي عُرفوا بها الداكتيليين والكيوريتيين والكوريبانتيين. أما سترابو فيرى أنهم كهنة هيكيت، ويراهم بوخارت أنهم آلهة الجحيم الأساسيين بلوتو وبروسيربين وميركيوري. ويرجع أصل عبادة كابيري، إذا ما صدقنا الاعتقاد العام بها، إلى مصر حيث نجد المعبد القديم بممفيس قد خُصص لهم. ويرى هيرودوت أن البلاسيجيين وهم أول من سكن شبه جزيرة بيلبونيسوس، سكنوا أول الأمر في جزيرة ساموثريق حيث مارسوا تلك العبادة ووضعوا مبادئ تلك الشريعة التي تشرف بنيلها أبطال مثل كادموس وأورفيوس وهيركليز وكاستور وبولوكس ويوليسيس وأجميمنون وإنياز، وفيليب والد الإسكندر. وقد حمل البيلاسيجيين من مقر إقامتهم في ساموثريق تلك العقيدة إلى أثينا أثناء ارتحالهم إلى طيبة.

---

(١) الفصل ٦٣.

(٢) الفصل ٦٣.

ومن الواضح أن كابيري كان يُعبد في ممفيس في صورة قزم، ولذا نجد له رسمًا على العملات في ثيسالونيكا مع شارة فولكان، كما أن الأساطير الفينيقية قد أوردت ذكر كابيري، إذ كانت طقوس عبادة كابيري تؤدى في جزيرتي ليمنوس وتينيبروس. ويختلف الباحثون في عدد آلهة كابيري ولكن هناك قبولاً عامًا أنهما إلهان توأم. وفي فترة من فترات التاريخ عُرفا باسم ديوسكوري التوأم كاستور وبولوكس. ويذكر هاليكارناسوس أنهما كانا "شابين مسلحين بالرماح".

ويذكر كينريك، وهو باحث له قيمته، في كتابه بعنوان "مصر قبل هيرودوت" أن البلاد التي سادت فيها عبادة كابيري والعبادة الساموثريقية كان يسكنها البلاسيجيون أو الآليونيون والذين عُرفوا فيما بعد باسم القبائل الهيلينية التي يرجع تاريخهم وكذلك لغتهم إلى الأصل البلاسيجي. ومن المرجح أن اسم "كابيري" مشتق من اسم فينيقي بمعنى "الجبار" ويتوافق هذا الأصل مع الاسم الذي كان يطلقه أهل ساموثريق على الآلهة وهو "ديفي بوتس" (أي عظيم الآلهة)، ويرى كينريك أن الفينيقيين قد استخدموا اسمًا آخر ترجمه اليونانيون إلى "كابيروس" في إشارة إلى عنصرين من عناصر الوجود هما النار والهواء.

ويذكر لنا سانكونياثون، وهو كاتب قرطاجي، أن عقيدة كابيري ترجع إلى أصل قرطاجي ولها علاقة بأوزوريس، فقد كتب الإله تحوت على آلهة كابيري أن يدونوا سجل ماضيهم، ويبدو أن عقيدة كابيري قد جاءت من شمال إفريقيا إلى مصر ومنها إلى اليونان، ويذكر أنها كانت متداولة بين أتباع أوزوريس المصري. ويرى سانكوياثون أن آلهة كابيري هم من ابتكروا القوارب وفنون الصيد والبناء والزراعة، كما أنهم أيضًا ابتكروا فن الكتابة واستخدموا الملح والأدوية، وأخيرًا يذكر لنا هذا الكاتب أن بوزيدون وكابيري استقروا في بيريتوس لكن لم يكن من ضمن طقوس عبادتهم تقديم القرابين والأضاحي. وإذا نظرنا إلى هذا السياق نجد أن آلهة كابيري يظهرون في صورة المزارعين والصيادين وهذه الأوصاف من شأنها تمييز جنس ما وليس تمييز العقائد.

يقدم لنا ريتشارد في كتابه بعنوان علوم العقائد تلخيصًا لوجهات نظر الكتّاب حول موضوع الأسرار الكابيرية فيقول:

"تقدم العبادة الكابيرية حلاً لمسائل مثل الإنياز وتأسيس روما وحرب طروادة نفسها، فكل من ساموثريق وترود تشاركا وارتبطا في تلك العبادة لدرجة أنه من الصعب معرفة أيهما أصل تلك العبادة كما أن الآلهة لافينيوم، والمفترض أنها جاءت من طروادة، كانوا ساموثريقيي الأصل. وكذلك هناك البالاديوم الذي ارتبط بالإنياز وترود وروما وفيستا والبيناتس كما أنه ارتبط بمعظم العقائد في مدن جنوب إيطاليا. كما أن السيد كينريك يرى أيضًا أن هناك تجسيد أسطوري في إنياذ التي اشتقت سماتها من ديانة كابيري، ويتابع بنفس الملاحظات على حكايات هوميروس، ويخرج بنتيجة مفادها أن الجزء الأهم في حرب طروادة يكمن أصله في الرغبة في ربط آثار الأديان القديمة وشرحها، وفي النهاية يوضح إلى ظروف لابد من أخذها في الاعتبار وهي أن البلاد التي سادت فيها عبادة كابيري كان يسكنها إما البلاسيجيين أو الإيولياتيين والذين عُرفوا باسم الهيلينيين، وإن كان البلاسيجيين أقدم من ناحيتي الوجود واللغة. ونستطيع القول بأننا (كما يرى المؤلف) أمام نتيجتين؛ الأولى هي أن القبائل البلاسيجية في إيطاليا واليونان وآسيا قد توحدت في وقت ما في التاريخ من خلال رابط الدين فكرًا وطقوسًا، ومن خلال الحروف والفنون واللغة؛ والنتيجة الثانية هي أن أجزاء كبيرة مما يُسمى بالتاريخ البطولي لليونان ليست إلا آثار لتلك الروابط خاصة عندما كان صعود أمة ما يقضي على الارتباط الأولي مما سبب نفس حالة عدم الوضوح. ومسألة اشتقاق العبادة الكابيرية من أصل فينيقي أو مصري ليست كاملة الوضوح، وإن كان ذلك الاحتمال كبير

جدًا....فقد كانت طقوس العبادة الكابيرية تؤدى في طيبة وليمنوس: وكان وقت أدائها هو الليل. كما أن العابد الطامح لنيل الأسرار كان يُتوج بغصن الزيتون ويربط حول خصره رباطًا أرجوانيًا، وبعد أن يصبح معدًا من خلال الممارسات السرية يجلس على عرش مضيء، ويرقص من حوله غيره من النسّاك الآخرين. وقد يُعتقد أن جلال وهيبة هذه الطبيعة قد اختُزلت في أكثر صور الإنسانية الفانية، وذلك لأن الإيمان القديم ومرجعية الأشياء المقدسة قد تلاشت مع الزمن، وهذه كانت الحالة بالفعل. ومع ذلك ظلت المؤسسات البدائية محافظة على نقاء صورتها وجمال دلالاتها التعبدية والتي انتقلت من طقوس إلى أخرى إلى أن وصلت إلى مذهب البنّائين الأحرار في فترة قريبة من التاريخ. والفكرة العامة التي تمثلت في كلٍ كانت المرور من خلال الموت إلى حياة أعلى، وفي الوقت التي تسيطر فيه المشاعر على العابد، كانت تلقى إليه تعليمات الوحي سواء كانت صالحة أو طالحة في تلك الاحتفالات".

وقد سادت في المكسيك عقيدة الناجواليست وكان يُطلق على الكهنة اسم نوالي أو أرباب السحر، وربما لا تزال تلك العقيدة إلى الآن، فقد بنت أساسها على الإيمان بروح خاصة حارسة، وكانت تلك الروح تُعرف باسم النوجول، وكانت تصاحب الطفل منذ ميلاده. وفي تاريخ جواتيمالا الذي كتبه فرانسيسكو فونتيز جوزمان عام ١٦٩٠ يقدم المؤلف بعض المعلومات عن ساحر اختُبرت قدرته، بعدما كُشف، على ربط النوجول بالطفل، فقد كان ذلك الساحر يذهب بنفسه إلى منزل والد المولود بعد أن يُخبر بأمر المولود ويأخذ الطفل إلى خارج المنزل ويبتهل إلى الشيطان، ثم يقوم بعمل نتيجة تقويم يكون لكل يوم فيها صورة حيوان مقابلة أو صورة شيء معين، فمثلاً كان شهر يناير وهو أول الشهور تقابله صورة أسد، والشهر الثاني تقابله صورة ثعبان والشهر الثامن تقابله صورة أرنب والشهر

الرابع عشر تقابله صورة ضفدع والشهر التاسع عشر تقابله صورة فهد وهكذا. وكان الدعاء يتم بأن تظهر نوجول الطفل تحت صورة حيوان أو شيء يقابل الشهر الذي ولد فيه الطفل ثم يقوم الساحر عندئذٍ بتلاوة صلوات معينة إلى النوجول طالبًا منها أن تحمي الطفل، وكان يخبر أم المولود أن تحفظ نفس الصورة التي تظهر فيها النوجول التي ترافق الطفل طيلة حياته.

وقد كان لدى بعض المتعبدين وفقًا لهذه العبادة القدرة على تحويل أنفسهم إلى نوجول. ويصف لنا توماس جيدج، وهو قس كاثوليكي عمل مع المايا في جواتيمالا عام ١٦٣٠ في كتابه رؤية جديدة لغرب الإنديز تحول اثنين من رؤساء القبائل المجاورة والقتال المميت الذي خاضاه والذي أسفر في النهاية عن موت أحدهما. ولكن أي ناجوليست لم يكن ليقتصر على تحول واحد بل كان لديه القدرة على اتخاذ أشكال متعددة.

وإذا تكلمنا عن ملوك السحر في كيتش في جواتيمالا لابد أن نذكر كتاب بوبول فوه، وهو كتاب محلي هناك، ويذكر ذلك الكتاب أن جوكوماتز، وهو ملك السحر، كان يستطيع أن يحوّل نفسه إلى حية أو نسر أو أي صورة دنيا أخرى من صور الحياة. وتشير العديد من اعترافات أهل جواتيمالا إلى القساوسة الكاثوليك إلى المحاولات التي كان يحاولها السحرة في أوروبا إبان القرنين السادس عشر والسابع عشر. وقد اعترف أحدهم أنه استطاع من خلال الفن الشيطاني أن يحول نفسه إلى النوجول الخاص به، وكذلك اعترفت فتاة عمرها اثنا عشر عامًا أن النوجوليست حولوها إلى طائر وحلّقت على منزل قس الأبرشية. ولعل التغير الذي حدث في صفة وأصل الديانة القديمة في المكسيك كان له أثر أكبر بكثير من الأروستوقراطية المكسيكية التي عُرفت بالذبح والتحول، فالكهانة الأزتية، مع الأخذ في الاعتبار أنها إذا كانت استطاعت البقاء مع مذاهبها لكان لها أكبر الأثر على عقول جماهير الأمة، فقد ألقت بكل ما لديها في مسألة تشكيل الخرافات لإيجاد أداة

للانتقام من ذوي البشرة البيضاء. وفي هذه الحركة الجديدة انضم السحر إلى السياسة في مواجهة السيادة الإسبانية، وكان نتاج هذا التحالف هو ظهور ما عرف باسم المذهب النوجوالي، والذي كان الشيطان نفسه هو الإله المعبود فيه، وهذا إذا ما اعتمدنا على كتابات من كان يعارض هذا التوجه وعمل على تدميره.

وكان لهذا المذهب السري الغريب فروع في كل أنحاء البلاد، وكان لأعضاء ذلك المذهب درجات مختلفة، وكان لا يحصل أحد على التعاليم إلا بعد فترة طويلة من التعب والمعاناة، وكان هنالك جماعات تآخي وعهد نُظمت وكوّنت مراكزًا لتلك العبادة، وكان يرأس تلك المراكز كاهن أو رئيس السحرة الذي كان له السلطة على ألف كاهن أو أقل، وكان له الهيمنة على قطاع كبير من البلد.

وكانت الكهانة تورّث من الأب إلى الابن، وكانت أعلى الدرجات تسمى خوشيمالكا أو ناسج الظهر، وربما كان ذلك بسبب أن من ينالون تلك الدرجة له القدرة على خداع أحاسيس من يتقدم للرهبنة برؤى عجيبة ومحببة تسببها بعد العقاقير القوية مثل نبات جوزة الطيب، وهو نبات من فصيلة الجوزيات ويشبه في حجمه الثوم. ومثل ذلك نبات الكافا الذي يتم ترطيبه ثم يوضع بعد ذلك في وعاء خشبي ليختمر، ومن النباتات التي كانت يستخدمها النوجوليست بغرض توليد رؤى خادعة كان نبات الأولولوكي وكانت تدق بذوره لعمل مرهم يدهن به الجسم بعد خلطه برماد العناكب والعقارب وغيرها من الحشرات السامة.

وكان النوجوليست يلطخون أنفسهم بمرهم سحري يقولون إنهم بفضله يستطيعون الطيران والتحليق في الهواء ويقومون بأداء رقصات متوحشة تماثل ما كان يقوم به الفولدري في فرنسا أو الساحرات في إنجلترا؛ فقد كانوا يتقابلون في ملتقى الطرق ويرقصون على أنغام الدف والمزمار ويشربون جرعات من مشروبات عجيبة وجرعات من شراب المحبة السحري والسموم تمامًا بنفس الطريقة التي كان يفعلها سحرة لانكشاير أو ديفونشاير.

لكن تغيير الشكل وأعمال السحر لم تكن هي المصادر السحرية الوحيدة للنوجوليست فقد تعددت فنونهم، فقد كانوا يستطيعون إخفاء أنفسهم عن الأنظار ويمشون دون أن يراهم أعداؤهم، كما كانوا يستطيعون الانتقال من أي مكان إلى أي مكان ويعودون ويصفون ما رأوا، ومثل الفاكير في الهند كان يمكنهم أن يخلقوا أمام أعين الناس أنهارًا وأشجارًا وبيوتًا وحيوانات وأشياء أخرى، كما كانوا يقطعون أنفسهم ويقطعون أطراف أي شخص أمام الناس ويعيدونها مرة أخرى، وكانوا يمررون السكاكين في أجسادهم دون أن ينزفوا قطرة دم. وكانوا يحملون الأفاعي السامة ويقبلونها دون أن تلدغهم كما يفعل هنود الوزني في أريزونا اليوم، وكانوا يخلقون أصواتًا في الهواء وكانوا ينومون الناس والحيوانات مغناطيسيًا وكانوا يستدعون الأرواح التي كانت تحضر فور استدعائها، وبسبب هذه الأشياء السانجة كان يظنهم الرهبان أن لهم القدرات الخارقة لعمل أي شيء، ولا نتعجب عندما نعرف أن الناس كانوا يخافونهم ويحترمونهم. ولم يتم الكشف أبدًا على التفاصيل السرية للاحتفالات الخفية لهذا المذهب، وكل ما عُرف عنه هو ما كتبه المبشرون الإسبان وتساعدنا تلك الكتابات في إلقاء الضوء على هذا المجتمع السري.

ونأتي إلى أسرار ميثرا والتي جذبت انتباه الغرب في الأيام الأخيرة للإمبراطورية ذات الأصل الفارسي، وقليل فقط من تلك الأسرار ما حفظه الزمن ليصل إلينا، ويلخص لنا سطران مما كتب بلوتارخ كل شيء عن هذه الأسرار، وهي أن أسرار ميثرا قد نبعت من ديانة عبادة الشمس، ومن العرق الأرياني واستمرت لقرون عديدة، وقد كانت ديانة ميثرا هي العقيدة العسكرية للجيش الروماني خاصة فرق الجيش التي كانت تعسكر عند سور كاليدونيا على نهر الرين. وفي القرن الثاني كان لعقيدة مثيرا أسر كبير على جنوب إيطاليا وكان مضمونها الأخلاقي راقٍ جدًا ولم تكن لتتنافس أو تدخل في صراع عالمي لأنها كان بها إيمان بمصر، ووفقًا للاهوت تلك العقيدة نجد أن قوى العناصر والأجسام

السماوية كانت مكرمة من الإله. فالنار المتقدة دائمًا هي رمز الشمس والقمر، وربما كان المذهب الفلكي فيها راجع إلى كالديا الذي لم يكن له فضل في الارتقاء بها، ومع اعتبار الأشكال الإلهية يبدو أن ميثرا كان هو الوحيد الذي أثر بعمق في المخيلة الدينية الأوروبية.

وقد ارتبطت أسطورة ميثرا بمطاردة وذبح ثور أسطوري، ولكن متى وأين وكيف ارتبطت تلك الأسطورة بديانة إله فهذا أمر يصعب الكلام فيه، ولكن يمكن القول بأن ميثرا هو الشمس وأن الثور ليس سوى الأرض. ويبدو أن حبوب القمح قد جاءت من ذيل الوحش الميت، وأن دمه هو الذي أنبت العنب ذلك النبات ذو الخصائص المقدسة في الأسرار. وهنا يبدو لنا وجه شبه غير عادي مع الأسطورة الدوريدية وكلاهما يصعب نيل مغزاهم. فكما نعرف أن جزيرة بريطانيا كان الدرود ينظرون إليها على أنها حظيرة الثور الأبيض المقدس، وكانت الثيران البيضاء تُقدم قرابين وأضاحي تحت شجر البلوط على أن تنتعش تلك الأشجار بدماء الثيران. ومن الواضح أن الثور يرمز إلى ما يمكن أن نسميه "منبت الكلأ" في أوروبا كما هو الحال في مصر وبلاد فارس، وذبح الثور هو رمز لموت القوة وعودتها في الطبيعة الجسدية وضمان النصر النهائي على الشر والموت.

ولا يمكن نيل أسرار ميثرا إلى بعد طقوس التطهر والابتلاء. ويذكر لنا القديس جيروم المراتب السبعة التي يمر بها الكاهن ليحقق التوحد الكامل فهذه المراحل هي "الكوراكس والكريفيوس والمايلز والليو والبيرسيس والهيليودروموس والباتر". وكما يقول بروفيري إن المراحل الثلاثة الأولى كانت أساسية لتكملة الارتقاء والسمو وأن الأسود فقط هم من يستمرون لتحقيق التواصل التام. ودخول كل مرحلة كان يصحبه كم كبير من الرمزية، فقد كان يقال إن الكاهن كان يجب عليه أن يمر عبر اللهب وأن يشارك في قتل صوري، وعلى أية حال فقد كانت هناك اختبارات تختبر الشجاعة والشرف.

أستطيع الكتابة بشيء من التفصيل والإسهاب عن الأسرار المتوحشة في أمريكا وأفريقيا وأستراليا ولكني قد تناولت هذا في الفصل الذي يتكلم عن "أصل الأسرار" ولا يسمح لنا المقام الآن أن نسهب في هذا المجال، ولكن فقط لغرض التشابه العملي ذكرنا تلك العقائد التي كانت جيرمانية أكثر منها مصرية، وأرى أن ذلك الكم فيه الكفاية.

الفصل التاسع

شعائر الأسرار

انقسمت الأسرار المصرية إلى مرحلتين، هما المرحلة الصغرى والمرحلة الكبرى، وكانت الصغرى تعبر عن عقيدة إيزيس أما الكبرى فكانت تعبر عن عقيدة أوزوريس. وفي العصر البطلمي زادت مرحلة أخرى ارتبطت بعقيدة سيرابيس وهو إله مقدس لدى البطالمة، وكانت عبادته خليط بين عبادة أوزوريس وعجل أبيس ثم انفرد بعبادة خاصة به بعد ذلك. ونستطيع من خلال كتابات أبوليوس أن نعرف أن أسرار إيزيس كانت تمثل المرحلة الصغرى، بينما أسرار أوزوريس كانت هي مرتبة الارتقاء العليا، ونراه، أي أبوليوس، يتكلم أيضًا عن مرحلة ثالثة هي مرحلة سيرابيس ولكن ليس لدينا ما يكفي من معلومات حول ما إذا كانت تلك المرحلة لها ما يميزها من دلالات الارتقاء والسمو أم لا.

لعل الباحث مونسير فوكارت **M.Foucart** كان أفضل من كتب عن الأسرار الإليوزينية، ونراه يؤمن أن الأسرار الصغرى كانت لإيزيس والكبرى كانت لأوزوريس، كما أنه يوضح تحليلاً للأسرار الإليوزينية في اليونان يشرح فيه أن العبادة المقدسة لديميتر كانت صورة هيلينية لإيزيس، بينما عبادة ديونيسوس كانت هي الصورة الهيلينية لأوزوريس. وفي نفس السياق يؤكد ديودوروس سيكولوس أيضًا على وجه الشبه ذاته إذ يقول بأن طقوس الارتقاء والسمو الخاصة بأوزوريس هي نفسها الخاصة بديونيسوس، وأن طقوس الارتقاء والسمو الخاصة بإيزيس هي نفسها الخاصة بديميتر، "فالذي تغير كان الأسماء فقط". وإذا كان الأمر كذلك، فإن كلاً من الأسرار الكبرى والصغرى قد غيرا الأماكن في العملية، ويذكر

لنا بلوتارخ أيضًا أن أورفيوس سنّ الأعياد الكبيرة للارتقاء والسمو في أتيكا، وأحضر من مصر أسرار إيزيس وأوزوريس التي تطابقت مع أسرار ديميتر وديونيسوس.

وهذا يعطينا قاعدة محددة نستطيع الانطلاق منها، لكن قبل الإسهاب في الأمر سيكون من المناسب أن نوضح المسألة كاملة بالإجابة على سؤال يفرض نفسه لما له من صعوبة وهو إلى أي مدى ارتبطت الدراما التي كانت تمثل حياة وموت أوزوريس وتاريخ إيزيس بالأسرار نفسها؟ هل كانت مجرد دعم لها، أم كانت مجرد تمثيل شعبي لإفهام العامة وتقريب الصورة لهم، أم كانت جزءًا من الأسرار؟ في المقام الأول لا يجب أن نكون انطباعًا أن هذه الدراما المقدسة كانت ذات طبيعة تمثيلية مسرحية، فالحق أنها كانت ذات طبيعية نُسكية أو كانت تشبه المسرحيات التعبدية في العصور الوسطى. وكما يقول كليمينت فيلسوف الإسكندرية إن الراهب في الأسرار الإليوزينية كان يشاهد الدراما المقدسة التي تحكي قصة بيرسيفون وديميتر وقطعهما الأرض في رحلات البحث وكذلك أحزانهما، حاملين المصابيح في معبد مدينة إليوزيس، ويؤكد لنا بروكلوس أن هذا التمثيل كان سريًا، وهو ما أكده فوكارت، إذ يقول "إنها كانت أسرار أوزوريس". ولكن عندما نطالع ما ذكره هيرودوت سنجد أن بعضًا محددًا من الدراما التمثيلية المصرية لم يقتصر فقط على جمهور الكهنة بل كان يؤدى أمام جمهور من العامة، ولكن كما سنرى فيما بعد، استطاع م. موريت أن يثبت بأبحاثه وجود دراما سرية لأوزوريس.

في هذا الفصل سنحاول أن نجمع من المصادر المتاحة كل ما يمكن من المعلومات عن طقوس الأسرار المصرية، وفي الفصل العاشر والحادي عشر آمل أن نصل إلى فهم مرتب للأمور المرتبطة بالأسرار الصغرى والكبرى. ونورد هنا رأي م. فوكارت الذي يقول فيه إن ديانة أوزوريس كانت بشكل أو بآخر صورة رمزية لنبات القمح الذي كان له قيمة دينية، وهناك العديد من الآثار التي لم يلتفت

إليها كثير من الباحثين تلقي الكثير من الضوء على هذه الصورة الرمزية. يقول م. جورج فوكارت: "في الدليل المصور الأقدم للمتحف البريطاني تلفت الأروندال **Arundale** الانتباه إلى مجموعة من الصور تصور حبة (سنبلة) القمح، وكل الأمثلة التي تصور ذلك لا تعود إلى ما قبل عصر الدولة الحديثة رغم وجود أشكال بدائية في متحف ليدن وفي غيره".

وفي نفس السياق يقول م. بول فوكارت إن هناك نصوصًا في كتاب طيبة المعروف باسم حورس الليل تشير إلى إله يمسك في يده سنبلتي قمح جميلتين يطلق عليهما بالتوالي البذرة والحبة ويرى فوكارت أن تلك الصورة هي رمز لحياة وموت أوزوريس. وقد أوضحنا من قبل العلاقة بين أوزوريس وحبة القمح وليس من الضروري الآن أن نعيد نفس المسألة. لكن من الملفت للنظر أن يرى م. فوكارت ارتباطًا بين صورة حبة القمح التي تمثل أوزوريس وبين الطقوس والاحتفالات الخاصة بالأسرار الكبرى أو المقام الأوزيري للارتقاء والسمو.

يقول فوكارت إن طقوس الارتقاء والسمو الخاصة بعقيدة أوزوريس تتطابق مع ما كان يحدث في مدينة إليوزيس، ففي القصة التي كتبها أبوليوس نجد لوكاس بعد أن ارتقى سلم السمو ووصل إلى معارف أسرار إيزيس لم يكن ليواصل الارتقاء إلا بعد مرور عام فقد كُتب عليه أن يتعلم أسرار أوزوريس. فقد علم أنه على الرغم من أن ديانة الإلهين إيزيس وأوزوريس واحدة إلى حد ما، كان هناك ثمة اختلاف بين طقوس الارتقاء والسمو في العقيدتين كما هو الحال في الاتفاق والفصل بين عقيدتي ديميتر وديونيسوس مع الأخذ في الاعتبار أن عقيدة ديميتر تمثل الأسرار الكبرى.

لنعد مرة أخرى ونمر بشكل عام على ذكر القصة التي كتبها أبوليوس **Apuleius**، ففيها نجد البطل وهو لوكاس قد تحرر من صورة الحمار التي وضعته فيها القوى السحرية، وبمجرد أن اتخذ الصورة الإنسانية وعاد مرة أخرى إلى

هيئته البشرية نجده بعد أن يكرّس حياته لخدمة الإلهة إيزيس، وبعد ذلك يستأجر غرفة في المعبد المقدس ويواظب على حضور الطقوس اليومية للإلهة وينذر نفسه لها. ونراه تتوق نفسه إلى معرفة أسرار الإلهة ويرتقي بنفسه ويسمو إلى مقامها لكن ليس قبل أن تحدد له الإلهة يومًا لحدوث ذلك. ومن الواضح أن مسألة الارتقاء والسمو ما هي إلا موت الإنسان القديم وإعادة ميلاده مرة أخرى، وبعد أداء طقوس الصباح يأتي كبير الكهنة ويُظهر أمام لوكاس كتابًا مقدسًا مكتوبًا بالهيروغليفية ويبدأ في تلقينه التعاليم من هذا الكتاب، ثم يعمّده ويغسّله ويعود به إلى المعبد حيث يصلي ويدعو الإلهة، بعد ذلك يأتي كبير الكهنة ويعلم لوكاس كلمات القوة ثم يحرّم عليه تناول اللحم والخمر، ويقضي لوكاس عشرة أيام في تأمل وتفكير وتدبر، وبعدها يعود إلى المعبد في المساء ويتلقى الهدايا من العُبّاد الواصلين إلى المعارف العلوية، ثم يلبس حلة من الكتان ويقدم إلى قلب المعبد. ولا يخبرنا أبوليوس الكثير بعد ذلك عن أسرار إيزيس إلا مسألة أن لوكاس يشرف على برزخ الموت ثم يولد من كل العناصر ويعود إلى الأرض مرة أخرى؛ فهناك قد رأى الشمس تومض على الليل الميت وهناك رأى الآلهة العلوية والسفلية وأدى فروض العبادة أمامها وجهًا لوجه، ثم يؤكد المؤلف هنا على أنه رغم معرفتنا بكل ذلك فإننا نكاد لا نعرف شيئًا عن تلك الطقوس.

هل نستطيع أن نستنتج من قصة أبوليوس أنه كان يتحدث بلغة الرمز؟ في رأيي لا أعتقد ذلك، بل إنني أرى أن ما كتبه كان يهدف منه إلى إخبارنا بأن بطل قصته قد مر بعملية الارتقاء كما يحددها ويصفها بشيء من التفصيل، لكن لا يستطيع أيٌ أحد لم يكن قد مر بنفس التجربة أن يفهم طبيعة ما رآه بطل القصة وطبيعة ما مر به، تمامًا كما هو الحال مع الناسك الديني أو الساحر الماهر بسحر إذ يكون من الصعب على كليهما أن ينقل دلالة أو فحوى تجاربه التي عاشها بنفسه للآخرين، وذلك بسبب تفرد تلك التجارب وانعدام وجود مثيل لها يمكن ضرب

المثل به للتوضيح، وقد وجد أبوليوس نفسه في نفس الموقف الصعب علاوة على النذر الذي قطعه بالحفاظ على السرية. لذا نراه في قصته يحكي لنا، كما يحكي مسافر عن مشاهداته، أنه قد مر عبر رؤى وأصوات لكن يطبق شفتيه كما يطبق المسافر شفتيه عن ذكر ما رآه في مدينة مقدسة، وهكذا فعل أبوليوس الذي سكت عن البوح بطبيعة الرحلة التي خاضها عبر "كل العناصر". وباختصار، فإن أبوليوس يحاول فقط أن يجعلنا نفهم أن الأسرار لا يمكن فهمها إلا بالاكتساب فقط. لكن من الممكن بالنسبة لنا أن نجمع ما يُتاح لنا من معلومات حول رحلته وذلك في ضوء تحليل المعلومات الخاصة بأسرار ديميتر في إليوزيس التي، كما رأينا، ليست إلا صورة بشكل أو بآخر لأسرار عبادة إيزيس لكن في ثوب يوناني، فهو يقول مثلاً إنه "وطأ عتبات بروسيربين". وهذا ما فعله المرتقي في الأسرار الإليوزينية، وقد تم تمثيل الرحلات التي قامت بها كل من ديميتر وكور في العالم السفلي دراميًا في تلك الأسرار، وما ديميتر وكور إلا اسمين آخرين لبروسيربين أو بيرسيفون. يقول بلوتارخ: "إن الروح وقت موتها تقابل ما قابله المرتقي في الأسرار". ويتابع القول بأن الروح يتحتم عليها أن تسافر عبر الأهوال والتحولات المؤلمة في ظلال العالم حتى يلوح في نهاية المطاف النور أمامها وتصل إلى منزلة أعلى.

ويلمح كل من ديون خريسوستوم وأريستيديز وهيميريوس وبروكلوس إلى الأشباح التي تضرب بخيال المرتقي إلى السمو أثناء الاحتفال بتلك الطقوس، فهذه الرؤى الغامضة التي تنذر بالخوف كانت تسبق خطوات النساك في طريقهم إلى المقام أو المعبد. وتتعدد المصادر التي تشير إلى تلك الأشباح وكيفية حدوثها فكانت تحدث بتأثير العقاقير أو بطرق ميكانيكية. لكن هناك شيء آخر نضيفه، وهو الشيء الذي لم يكتب عنه كل من تناول مسألة الأسرار بل وتجنبوه، وهو أنه لم يكن هناك مكان أو فراغ أو أدوات لعمل الرؤى عن طريق ميكانيكي أو بوسائل تخيلية في معبد إليوزيس على الرغم من أن بعض المنقبين عن الآثار ممن أوردت

بعضًا من أقوالهم قد قدموا معلومات ذات طبيعة مختلفة. ولكني أميل إلى رأي أفضله وهو أن تلك الرؤى ربما كان سبب ظهورها هو الصوم لفترة طويلة ودرجة النشوى العالية لدى المرتقي أو المتعبد، وقد تزيد الدراما التصويرية التي يشاهدها ويعيش فيها من قوة تلك الرؤى خاصة أنها تسبقها، وإن كنت لا أرفض تمامًا أن يكون لتلك الرؤى أصل خارق.

وقد ألمح أفلاطون نفسه إلى تلك الرؤى التي يراها الناسك ففي كتابه بعنوان فيدرا **Phoedra** يورد نظرية الأفكار أو نظرية الوجود، وهي الأفكار التي عاشتها الروح في حياتها السابقة والتي تجعلها تتذكر الأحداث الماضية. ولكي يصور أفلاطون ما يعنيه نجده يذكر الأشباح والرؤى الموجودة في الأسرار، ولأنه فعل ذلك فقد تعرض لانتقاد كبير لإفصاحه عمّا كان يجب أن يبقيه سرّا، فقد ذكر أن الأشباح والرؤى التي يراها العابد أثناء عملية ارتقائه كانت لها صفة روحانية رغم ظهورها في شكل مادي ملموس، وكانت تشير إلى الحياة الماضية للناسك. ويرى فوكارت أن تلك الرؤى والأشباح كانت تأتي بغرض تقديم الإرشاد والمعرفة عن الطبيعة الإلهية، وهي تخيلية أكثر منها واقعية.

وهناك تلميح آخر إلى طقوس الارتقاء في كتاب أفلاطون بعنوان فيدو **Phoedo**، ففي هذا الكتاب يذكر أفلاطون الطريق الذي تسلكه الروح نازلةً إلى مناطق الجحيم حيث تكون المسالك في غاية التعقيد ولا يمكن السير فيها إلا بهادٍ يهديها الطريق. لقد تكلمنا فيما سبق عن الألواح الأورفية التي نجد فيها ذكر مسار رحلة الروح بعد الموت والتأكيد على الأخطار التي تنطوي عليها تلك الرحلة، ولكن لتلخيص الأدلة التي تدل على هذا الأمر نقول إن النسّاك المرتقين إلى الأسرار العلوية كانوا يجتازون المناطق السفلى التي كانت تمثل أنفسهم أمام حكام الظلام، ثم بعد ذلك ينالون النور من المناطق المبهجة. وما يجعلنا نعتقد بصحة هذا الفرض ذلك الحوار الذي يدور في قصة لوكاس بين شخصين متوفيين نازلين إلى

منطقة ظلال هاديس إذ نجد أحد هذين الشخصين يخاطب أخاه قائلاً: "أخبرني يا سينيسوس يا من تعلمت وارتقيت ووصلت إلى المعرفة العلوية في أسرار إليوزيس ألا ترى أن هذه الأشياء التي نراها الآن تشبه ما رأيتها أنت في رحلتك؟ تمامًا، لكن انظر كيف أن امرأة معها مصابيح ترتقي في الهواء عجيبةً وكأنها جنيّة". ومن هنا نستطيع الاستدلال على أن أول خطوة من خطوات رحلة الارتقاء والسمو في أسرار إليوزيس كانت محاكاة للمسار الذي تقطعه الروح إلى هاديس، ونستدل منه أيضًا على أن هذا مبني على الطقوس المصرية، وأرى أنه ليس هناك أي مجال للشكل في ذلك.

يؤكد م. فوكارت على التشابه بين تفاصيل المنح التي أوضحها أبوليوس بخصوص أسرار إيزيس وبين مثيلاتها في إليوزيس التي يؤكد على أنها مصرية الأصل. وفي نفس الوقت يشير إلى وجود بعض الفروق، وأن هذه الفروق جديرة بالاهتمام، فمثلاً، مسألة تجميع النسّاك وتوحدهم لا تبدو أنها كانت تحدث في تواريخ ثابتة، وكذلك لم يكن يتم تحضير النسّاك في جماعات، بل على العكس كان كل فرد ينتظر البشرى السعيدة من الإلهة ليمر بالابتلاء والمحنة الخاصة به، وهذه اختلافات في غاية الأهمية، وتجعلنا في غاية الحذر ونحن نقوم بتحليل يقارن بين ممارسة الطقوس في مصر وممارسة الطقوس في إليوزيس. وفي نفس الوقت نجد أن البطل الناس في قصة أبوليوس وهو لوكاس لم يكن ناسكًا عاديًا، فقد كان الوحي السري أمرًا من إيزيس تلقاه وهو نائم. وهنا يؤكد م. فوكارت على حماس لوكاس القوي وحياته التي نذرها لخدمة الإلهة، لكن وبكل صراحة يجب أن أعترف أنه ينتابني بعض الشك فيما إذا كانت تلك القصة تصور بالفعل ما يلقاه الناسك المرتقي إلى المعرفة العلوية، فحياة لوكاس السابقة كانت مليئة بعدم الالتزام، وكان هو نفسه واحدًا من "الفاسقين" وكذلك كانت مدة تحضيره التي مر بها قصيرة إلى حد ما ولا تنسجم مع ما أعتقد فيه بأن التحضير له متطلبات قاسية

خاصة لنيل الكهانة في أسرار إيزيس. ومع ذلك فقد نقول بأن متطلبات عبادة إيزيس لم تكن بنفس متطلباتها القاسية بعد أن انتقلت إلى اليونان، بمعنى أن فترة التحضير كانت تنطوي على مواجهة بعض الصعوبات التي تضمن استمرار عبادة من يلتزم بتلك الأسرار، ويتضح من توبة لوكاس، الذي تشير رمزيًا هيئة الحمار التي سُخط فيها إلى غي وفُحش الشاب الغرور، أن تلك التوبة قد نبهت كهنة إيزيس إلى علامة أمل بوجود شيء صالح في قلب لوكاس. وربما تكون هيئة الحمار تلك إشارة إلى العدو- ست. وباختصار، يمكننا القول بأنه عندما كانت الإلهة تريد من يبشر بدينها كانت تختاره شخصيًا بشكل سريع وبشروط أقل قسوة، والتبشير ذلك قد انتشر بفعل الرواية الوهمية التي كتبها أبوليوس.

ذكر السير لويز فارنيل **L. Farnell** في كتابه البارز بعنوان "عقائد بلاد اليونان" اعتراضات على الافتراض القائل بأن النسّاك الإليوزينيين أثبتوا رؤيتهم للرعب في العالم السفلي، إذ يشير إلى أنه في تلك الحقبة الزمنية لم يكن اليونانيون عرضة لتلك المخاوف أو الرعب، ولكن تلك المخاوف أو حالات الرعب أوجدها أفلاطون وبوليجنوتوس. ولكن إذا لم يكن لتلك المخاوف عموم الوجود والقبول، فإن الأسرار كان لها كبير الأثر في تعميمها وقبولها. ويقلل السيد فارنيل، شأنه في ذلك شأن دارسي الفن الشعبي، من تلك العملية ويصفها على أنها مجرد "رقص أسطوري" ويستبعد الإشارة إلى الرعب والخوف الجهنمي، ولا يعتقد في استخدام آلات على المسرح الذي كانت تؤدى عليه الدراما المقدسة، ولا يعتقد في وجود الرسومات في الاحتفالات التي تقام لأداء طقوس الارتقاء والسمو. لكن من الممكن أن نرد بالدليل على رأيه الأول باستخدام المرجعية التاريخية، كما فعل م. فوكارت في الصفحة رقم ٤٠٤ من كتابه، وميله إلى الرأي الثاني.

من المناطق الجهنمية، سواء كانت محاكاة أو تخيل، كان الناسك يعبر إلى رياض النور التي يرى بها الأشياء التي وعدت بها الإلهتان عبادهما المخلصين

المؤمنين. ومن بين الأشياء التي يراها الناسك الأشياء المقدسة والتي لا نعرف عن طبيعتها إلا القليل، ومنها تمثالا الإلهتين اللذين يمثلان جزءًا مهمًا. يذكر كليمينت إن مفتاح الأسرار الإليوزينية هو ما يلي: "لقد أديت الصوم، وشربت شراب الشعير، وتناولت الأشياء من الصندوق المقدس ذائقًا طعم الصخر، ثم وضعت تلك الأشياء في كأس الكالاثوس، ثم أخذتها من كأس الكالاثوس إلى الصندوق مرة أخرى". ويبدو أن معرفة تلك الكلمات كانت تميز النسّاك عن بعضهم، فيبدو أن تلك الكلمات تنطوي على أن الناسك قد شرب من نفس الكأس الذي شربت منه ديميتر عندما كسرت صيامها الطويل، وأكل بعضًا من الطعام المقدس، والذي من المحتمل أن يكون من الحبوب والفاكهة.

يقول فارنيل: "عندما نفكر مليًا بكل الأدلة ونتذكر السحر غير العادي للصورة التي فُرضت على العقلية اليونانية، فلن يكون حل المشكلة بعيدًا أو معقدًا، فالصوم المهيب والإعداد والتحضير، وتناول الطعام المقدس والشراب المقدس، والمسرحية المتحركة المثيرة للنشوى، وكشف قدسية الأشياء، كل تلك الأمور لها تأثير يقنع العابد أنه قد توحد بالطبيعة الإلهية، ولكن هذا التوحد لا يشبه أبدًا السر المسيحي المقدس أو تأمل الرهبان أو نوبات الوصول المندائية، ولكن التوحد الناتج عن هذه الأمور قد يكون إحساسًا بالألفة أو الصداقة مع الآلهة مع تعاطف قوي بسبب الاتصال التعبدي معها. لكن تلك الآلهة، أقصد الأم والبنت وإله الظلام في خلفية المشهد، كانت بمثابة القوى التي تحكم العالم فيما بعد القبر: فمن فاز بمودة تلك الآلهة بالارتقاء والتعبد في الحياة الدنيا، من المنطق أن يفوز بنعمهم وبركاتهم في الحياة الأخرى. وهذا كما نرى كان أساس الأمل الإليوزيني".

هذا الرأي بليغ، إن صح، بالنسبة لكم الغموض الذي يكتنف الأسرار في الجزء الذي يتعلق "بالنسّاك" اليونانيين، ويبدو أن م. فوكارت يتفق مع هذا الافتراض عندما يذكر رأي سينيسيوز وهو يقول إن أرسطو كان يعتقد في أن

النسّاك لم يكونوا يجبرون على الفهم بل يتقبلون الأفكار الغامضة، وهذا نتج عنه شيء من الميول الذهني نحو الارتباك والخلط بين ما هو تعبدي وما هو أسطوري. وتعطينا إحدى كتابات بلوتارخ نفس الانطباعات.

لكن بالنسبة لي أرى أن معظم الكتّاب الذي كتبوا عن نفس الموضوع قلما وضعوا في اعتبارهم مسألة مهمة جدًا بالنسبة للأسرار الإليوزينية: فللعلم، إن هذه الأسرار كانت انعكاسًا للأسرار المصرية، فمن هذا المنطلق يجب الحكم عليها، وكذلك من نفس المنطلق نعرف مناخ الشك الذي يحيط بها، وأنه ليس من الضروري فهمها، ويمكننا أن نلاحظ في هذا حداثة منقولة عمّا كان يُعرف في مصر بأنه فكرة عامة مرتبكة قليلة القدر عن العملية المصرية ككل. كما نلاحظ أيضًا قلة الاهتمام هنا بطقوس عبادة الإله وأهمية طقوس عبادة الإلهة وهذا عكس الممارسات المصرية. فإذا كان هناك شك في إليوزيس فمن المؤكد أن مثل هذا الشك لم يكن له وجود في سايس أو في أي مكان في مصر لأن الشكل لم يكن من واحدًا من مواطن ضعف الكهانة المصرية الصحيحة، ويجب أن نتذكر أيضًا أن مرور الزمن بجانب تراجع تأثير المبادئ الأساسية التي تم استيرادها كاملة إن لم يكن موتها، كان له أثر في تمويه الباعث من وراء تلك الأسرار. من السيئ جدًا أن يصعب تفسير مراد الكهانة، أو أن تُفسر على أنها ضرب من ضروب الأساطير التوضيحية ليس لها من الطهر ما يلاءم مكانتها ومن ثم تغرق النوايا في ظلام الوهم الأسطوري، وهذا في رأيي يفسر حالة التخبط وعدم الوضوح التي تحيط بدلالة الأسرار في إليوزيس، لكن ذلك صحيح بكل المعاني بالنسبة للمذهب الأسطوري المصري الذي لا أرى أن له أي مرجع كما قلت من قبل، ليدل على عصمة ممارسة الطقوس المصرية من أي خطأ وإذا كانت هناك حاجة إلى دليل ليدعم هذا، فسيأتي من الألواح الأورفية وعلاقتها الجزئية بمادة كتاب الموتى وغيره من المتون المصرية. والحقيقة القائلة بعدم وضوح الإسقاطات الأدبية

للأساطير المصرية في اليونان وسيسيليا الهيلينية ربما هي أفضل برهان لدينا على أن كلاً من أفكار الطقوس "واللاهوت" وكذلك الممارسات كانت غير واضحة المعالم وغير مترابطة.

لكن من المؤكد أن تعبير ثيو سميرنا بأن هناك خمسة أجزاء أو مراحل للارتقاء والسمو في الأسرار في اليونان من شأنه أي يساعدنا في عمل تحليل لأوجه التشابه مع مصر، إن وُجد، وتلك المراحل أو الأجزاء الخمسة هي التطهر وتقليد الشعائر المقدسة، ثم التمحيص ثم ربط الرأس ثم التتويج ثم المودة مع الإله. ولكن إذا أمعنا النظر في تلك الأمور فسنجد أنها لن تأخذنا إلى أبعد مما نعرف، فقد حذف ثيو من تلك الأجزاء الجزء الخاص بالتأمل والذي من المؤكد أنه الجزء السابق على مرحلة التطهر في اليونان، مثله في ذلك مثل مصر. فسبق التأمل على التطهر مسألة لا نقاش فيها سواء في حالة الأسرار اليونانية أو المصرية، كما يمكن أن نلحق بالجزء أو المرحلة الثالثة وهي تقليد التمثيل الدرامي لقصة حياة أو أسطورة الإله، ففيها يتم الكشف عن الأشياء المقدسة وأكل الطعام المقدس، وعندما ينادي المنادي يمر الناسك بمرحلة الاغتسال التطهري في البحر أو في نهر النيل، بعد ذلك تأتي الرحلة التي تمر بهاديس للوصول إلى الرياض الإليوزينية (أو تمر بأمنتي [الغرب] إلى أيارو في حالة الأسرار المصرية)، وبعد تلك الرحلة تحدث إعادة ميلاد ديونيسوس أو أوزوريس بشكل رمزي ويحقق الراهب بعد ذلك التوحد بأوزوريس.

كيف إذن نعيد بناء "برنامج" المقارنة بين الأسرار المصرية بما كتبه أبوليوس؟ يبدو أن مثل هـذا البرنامج يحتوي علـى: (١) التأمل (٢) التطهـر (٣) تمثيل أسطورة الإله (٤) كشف الأشياء المقدسة (٥) تناول الطعام المقـدس (٦) اغتسال التطهر (٧) الرحلة عبر أمنتي إلى ايارو (٨) إعادة ميلاد أوزوريس (٩) التوحد بأوزوريس.

وفي حـــالة لوكاس [لوسيــوس] نجد ما يلـــي: (١) التأمل (٢) التعاليــم (٣) التطهر بالاغتسال (٤) معرفة كلمات القوة والارتقاء إليها (٥) مرحلة أكبر من التأمل (٦) المرور عبر المناطق الجهنمية (٧) المرور عبر العناصر (٨) إعادة الميلاد (٩) التوحد بالآلهة. ولا يتفق "إعادة البناء" الذي نراه مع طريق أبوليوس نظرًا لحدوث مراحل متعددة، وإن كنا مع ذلك نرى مراحل مشتركة بين التصورين هي: التأمل والتطهر والرحلة عبر المناطق السفلى والعليا وإعادة الميلاد والتوحد بالآلهة، وبالنسبة لدقة هذه الأمور وصحتها لدينا تأكيد كامل. وليس هناك ما يدعو للشك في حدوث تمثيل لأسطورة الإله، وتناول الطعام المقدس في الأسرار اليونانية، فلدينا دليل ساقه هيرودوت على حدوث تمثيل لأسطورة الإله، كما أن الدليل الذي قدمه أبوليوس على الارتقاء لمعرفة كلمات القوة يتناسب مع ما نعرفه عن الممارسات المصرية مما لا يجعلنا نشك في ذلك.

وبالنسبة لي أرى أننا إذا جمعنا بين الأمرين فقد نصل إلى الحقيقة، ولكن تظل دقة حدوث هذه الأمور وكذلك عدد المراحل الخاصة بالأسرار الكبرى والصغرى يحتاج إلى تفصيل أكبر، ويجب أن أتركه الآن لنناقشه فيما بعد في الفصول التي تتناول هذا الأمر على وجه الخصوص.

ملاحظة - في كتابه المجتمعات السرية يقدم هيكثرون **Heckethorn** تصورًا للارتقاء والسمو في أسرار إيزيس، ولا يمكن لي أن أذكر المصدر الذي جمع منه تلك المعلومات، ولكني أضيف إليه، ليس الشيء الكثير، ولكن بهدف الوصول إلى اكتمال الصورة والمقارنة، فقد كتب يقول: "كان المرشح لنيل المعارف يقوده هادٍ إلى بئر عميق مظلم أو إلى سرداب في الهرم، ويعطيه مصباحًا، ثم ينزل في ذلك البئر أو السرداب مستخدمًا سلمًا، وما إن يصل إلى القاع يرى بابين - أحدهما مغلق بمتاريس والآخر يُفتح بمجرد لمسة يد. فيدخل من

الباب السهل ويمر ببهو ملفوف، بينما يُغلق الباب من خلفه محدثًا صوت صرير يملأ أرجاء السرداب أو البئر ثم تقع عيناه على تعاليم مثل ما يلي: "إن من يمر عبر هذا الطريق منفردًا، ودون أن ينظر إلى الخلف، سوف تطهره النار والماء والهواء؛ ومن يتغلب على مخاوف الموت سوف يعبر من باطن الأرض إلى ضوء النهار، مجهزًا روحه لتلقي أسرار إيزيس". ويتابع المرشح طريقه حتى يصل إلى بوابة حديدية يحرسها ثلاثة رجال على رؤوسهم خوذات لامعة عليها أشكال حيوانات، أبرزهم كلب أورفيوس ذو الثلاثة رؤوس. هنا تتاح للمرشح فرصة للرجوع، فإذا أراد فإنه ينحني، أما إذا اختار المتابعة فإنه يمر بمحنة النار من خلال عبوره عبر قاعة مملوءة بمواد ملتهبة في حالة احتراق مكونة كوة نار، وتُغطى الأرضية بألواح حديد مستعر بينها ممرات ضيقة جدًا تتيح للعابر المرور دون أن تطأ قدماه الحديد، فإذا اجتاز ذلك يرتقي إلى محنة الماء، وهي عبارة عن قناة واسعة مظلمة من ماء النيل تغرق من يمر بها، فيضع المرشح المصباح المتهدج على رأسه ويخوض في ماء القناة ويسبح عابرًا إلى الضفة المقابلة حيث سيقابل المحنة الأكبر التي تنتظره وهي محنة الهواء. وبعد أن يصل إلى الضفة الأخرى يصعد إلى مرفأ يؤدي إلى باب عاجي يحيط به جداران من النحاس في كل جدار منهما عجلة ضخمة من نفس المعدن، ويحاول المرشح بلا جدوى أن يفتح الباب، فيرى حلقتين حديديتين كبيرتين مثبتتين عليه، فيمسك بهما، ولكن فجأة يهوي به المرفأ وتهب ريح قوية باردة فتطفئ المصباح الذي يحمله، وتدور العجلات النحاسية بسرعة هائلة وبصوت يصم الآذان، بينما يظل المرشح معلقًا بالحلقتين فوق هاوية ليس لها من قرار، ولكن قبل أن ينهكه التعب وتخور قواه يعود المرفأ إلى قدميه فيثبت عليه وينفتح الباب العاجي ويرى أمامه معبدًا مهيبًا جدًا تغمره الأنوار، يعج بكهنة إيزيس في ملابس الكهنوت حاملين على رؤوسهم شارات تدل على منازلهم، ولكن لا تقف مراسم الارتقاء عند هذا الحد إذ يُفرض

على المرشح أيامًا من الصوم تزيد بالتدريج إلـــى تسع مرات في تسعـــة أيام، وأثناء تلك المدة يفرض الصمت الرهيب عليه ويحظر عليه أن يخرق ذلك الصمـــت، بعد نهاية تلك المدة يرتقي إلى المذاهب السرية لإيزيس، ثم يُقاد إلى تمثال ثلاثي لإيزيس وأوزوريس وحورس- رمز آخر للشمس- وهناك يقسم ألا يفصح عن الأشياء المقدسة التي انكشفت أمامه في الحرم المقدس، ويشرب أولاً من ماء ليثي الذي يقدمه له كبير الكهنة لينسى كل ما سمع في زمن الضلال، ثم يشرب بعد ذلك ماء منيموسين ليتذكر دروس الحكمة التي منحته الأسرار إياها، بعد ذلك يصل إلى أكثر المراحل قدسية في المبني السري حيث يعلمه كاهن تأويل الرموز المذكورة فيه، ثم يُعلن أنه أصبح واحدًا ممن ارتقوا وسموا إلى أسرار إيزيس- وهي الدرجة الأولى من الطقوس المصرية".

الفصل العاشر

طقوس إعادة الميلاد

قد تركنا مسألة التحليلات وها نحن الآن عاكفون على استكشاف الصيغة الفعلية للوجود وهي طقوس وفكر الأسرار المصرية. وسنستعين هنا بما كتبه البروفيسور إليكساندر موريت **A. Moret** الأستاذ في الجامعة الفرنسية في كتابه الأسرار المصرية[1] **Mystres Egyptiens** ذلك الكتاب الذي أتاح لنا أن نعرف طقوس تلك الأسرار، وكان له عظيم الأثر في اكتشاف الروح التي كمنت في تلك الطقوس، والطريقة التي اتبعها البروفيسور موريت في كشف طقوس الأسرار التي جمعها من كل الملاحظات والكتابات المتفرقة طريقة مبدعة تستحق الإشادة بها لما لها من وضوح، ولا يسعني إلا أن أحيط القارئ بمختصر من تلك الطريقة.

يرى موريت أن الأسرار المصرية احتفظ بها صفوة الكهنة والجمهور وكانوا يحتفلون بها في مبانٍ منعزلة في تواريخ محددة، وكان المصريون يعرفون تلك الاحتفالات باسم سيشاتو وأخوت والتي تعني "الأشياء المقدسة أو الممجدة أو المربحة"، وارتبطت الطقوس بكلمات وإشارات معينة أي بأقوال وأفعال مخصوصة، وكما يقول يامبليخوس، كانت تلك الأشياء تتم بشكل يستحيل أن تصفه الكلمات، وبعض تلك الأفعال كانت تُمثل تعبيريًا وتصويريًا، كما تعبر الطبيعة عن الأسباب المرئية من خلال صور مرئية- أفعال رمزية أكثر قدسية من مجرد

---

(١) **Mystères Egyptiens** (الأسرار المصرية)، طبعة جديدة، باريس، ١٩٢٧.

الصلاة أو ترتيل بعض الجمل والصيغ التعبدية. إنها قوة الرموز التي لا يمكن تفسيرها والتي تعبر عن قدسية الأشياء الإلهية. ومراد القول إن هناك صورًا حركية وتعبيرية لها قوة السحر، تكون أكثر تأثيرًا من مجرد الصلاة وأمر العقيدة نفسها[1].

يقول بلوتارخ: "لم تشأ إيزيس أن تذهب رحلتها وكفاحها وآلامها وكذلك شجاعتها وحكمتها التي ظهرت أدراج الرياح، ومن ثم أسست أقدس الأسرار التي تحفظ معاناتها وتمثلها حركيًا حتى تكون عظة للحث على التقوى ولتكون سلوى لكل من عساه أن يسلك نفس الدرب ويمر بنفس المحن". وبالفعل كان جزء من مشاهد موت أوزوريس وبعثه يُمثل في الخلاء أمام الجمهور، وجزء آخر كان يُمثل داخل معابد أوزوريس أو أضرحته، ومن هنا نستطيع القول بأنه كان هناك نوعان من الأسرار، نوع عام تتشابه فيه مسرحيات الأسرار بالمسرحيات الدينية الأوروبية في العصور الوسطى، ونوع آخر سري ومقدس ويكتنفه الغموض.

كان الناس يحتفلون بدراما موت أوزوريس في أول يوم من شهر باخون، وكان الفرعون يأخذ دور أوزوريس إله الزرع (الإنبات)، فكان يقطع فرعًا من العشب ويذبح ثورًا أبيض ويقدمه قربانًا إلى الإله المقدس مين إله قوة الخصب. وكان الثور صورة لأوزوريس، وفي اليوم الثاني والعشرين من تحوت كان يتم

---

(١) بالطبع هناك سبب أنثروبولجي وآخر ديني لهذا. فالأفعال الرمزية التي تبدو في طقوس الرقص القبلي أو الطوطمي (أو ما قبل الطوطمية) لها تاريخ سابق على الصلاة أو العقيدة، ومن ثم أثرها أكبر. أما الطقوس التي تسبق الأساطير ومعناها الظاهر فهي مفقودة وبالتالي أصبحت "أسطورية". "والقوى" الغامضة التي يستحيل أن نضع بها أية أسطورة، سبقت الآلهة في اعتقاد الإنسان بها، وعندما "وصلت الآلهة" بكامل هيئتها في التاريخ الأسطوري، أصبح المكان مناسبًا "للقوى" الأسطورية وقصصها الرمزية لتأخذ من قبسًا من قدسية الآلهة وأسرارها.- ل. س.

الاحتفال بعبادة أخرى تصف بعث الإله[١]. وفي الوقت الذي يفصل بين هذين الاحتفالين الشعبيين، كان يُحتفل بالأسرار السرية، فالأسرار التي كان يُحتفل بها أمام العامة كانت تصف تاريخ حياة أوزوريس، وكان يتبعها احتفال خاص، يؤدى داخل حرم المعبد، به طقوس تؤكد بعثة الإله. في زمن عصر الدولة القديمة كانت تلك الطقوس تُعرف باسم "الطقوس المقدسة التي يُحتفل بها بما يتفق مع الكتاب السري لأفعال مقيمي الصلوات"، أو هيرج شيشتا أو رئيس الأسرار الممتاز[٢].

لقد كان لكل إله ولكل عقيدة "أسرارها" الخاصة، لكن الأسرار الجنائزية كانت توصف على أنها "أشياء أبيدوس" على حد تعبير يامبليخوس. وقد تم العثور في المعابد البطلمية الكبيرة في إدفو ودندرة وفيلاي (فيلة) على الحُجرات السرية التي كانت تؤدى فيها الأسرار، فقد كان موقع تلك الحجرات في جزء من المعبد يصعب الدخول إليه كما أنه كان محرم على العامة أن يدخلوا إليه، ففي فيلا مثلاً، كان هناك معبد صغير لأوزوريس، وكان هذا المعبد مكون من حجرتين، وعلى سطح الصـــرح نجد وصف الطقـــوس مـــكتوبًا بالهيروغليفيـــة على عتبة الجزء الداخلي للرواق.

وعادة ما يعكس النحت تمثالاً لأوزوريس محاطًا بالأكفان الجنائزية، وفراشًا ترقد عليه مومياء الإله، وبعض الحلي والتيجان، وعصا الصولجان، والذراع وآنية مملوءة بالماء المقدس ليُسكب على المومياء، وآنية مليئة بالبخور والمر لتعطير المكان. وكان يشترك في التمثيل الدرامي الكهنة الذين يؤدون أدوار أعضاء أسرة أوزوريس وهم حورس ابن أوزوريس، وأنوبيس وتحوت أخويه، وأبناء حورس والإلهة إيزيس زوجة أوزوريس والإلهة نيفتيس أخته، وغيرهما من الإلهات اللاتي

---

(١) هذه هي الدراما كما كانت توصف في كل مكان ملمحة إلى اللوحة الحجرية للكاهن إيخيرنوفريت.

(٢) يبدو أنه كان يلبس القناع ذا رأس الكلب الخاص بأنوبيس.

ينتحبن على أوزوريس. وبجانب هؤلاء يقف كهنة الصلاة الذين يرتلون جمل الصلاة، ومعهم "الكورال" أو مقيمي الصلاة الذين تلون المتون، وهناك أيضًا الخدام الذين يؤدون طقوس سكب الماء المقدس وإشعال البخور وهناك من يعزفون على الآلات السحرية، ومعهم الرسول الذي يحضر مراسم سكب الماء المقدس، ومعهم أيضًا العراف الأكبر الذي لديه علم الرؤى من الإله.

وتؤكد المتون على حقيقة مفادها أنه أثناء ساعات النهار الاثنتي عشرة وساعات الليل الاثنتي عشرة كان هناك حارس لكل منهما، فالجثمان كان يحرسه حارس ليلي وآخر نهاري لتجنب حدوث أي مكروه أو شرور للجثمان. وكانت الدراما السرية تتكون من أربعة وعشرين مشهدًا، بواقع مشهد لكل ساعة من ساعات اليوم، وتبدأ المشاهد في أول ساعات الليل (أي الساعة السادسة على حسب حساباتنا الحالية) وتنتهي في آخر ساعة من نهار اليوم التالي (أي الساعة الخامسة على حسب حساباتنا الحالية). وتبدأ مرحلية حتى بعث الإله، وكانت كل ساعة تُمثل منفصلة عن غيرها ولها مشاهدها الكاملة وقصتها الكاملة كذلك وكأنها دراما متكاملة منفصلة[1]. ويدخل الحارس المخصص في بداية كل ساعة من ساعات الدراما ومعه حاشيته، ويبدأ في أداء الطقوس المخصصة لتلك الساعة، وفي منتصف الساعة يصرخ الحارس: "قم يا أوزوريس، فلك النصر على أعدائك". ولكن رغم تلك الصيحة تستمر إيزيس في نحيبها وعويلها. ويمكننا وصف فصول الدراما كلية وباختصار كما نعرفها على النحو التالي:

تنتحب إيزيس ونيفتيس على موت أوزوريس مستخدمات كلمات وعبارات بليغة ومؤثرة، وتتذكر إيزيس كيف أنها قطعت الأرض والبحر ونزلت إلى عالم هاديس بحثًا على أوزوريس، وكيف أنها توسلت إلى كل إله وإلهة ليقفوا بجانبها

---

(١) المرجع المناسب لمعرفة هذه المراسم ذكره م. موريت.

في حزنها، وهذه التفاصيل مذكورة في بردية برلين، عندئذٍ تدخل الآلهة إلى أوابت أو "المكان الطاهر" حيث يتمدد جثمان أوزوريس، وفي هذا المشهد تحديدًا نرى أن الآلهة الرئيسية هم حورس وأنوبيس وتحوت، ونراهم يحملون أدوات سحرية وأوعية الماء العذب والبخور والدهانات. وتبدأ الطقوس بسكب الماء وإشعال البخـــور، وفي الساعة الســـادسة، يؤتي بوعاء من ماء النيل وبكنه أوزوريـــس، إذ الماء هو الذي سيعيد أوزوريس إلى الحياة باسم رع، خالق كل شيء، ويُنضح الماء على جسد أوزوريس.

عندئذٍ يعبر أوزوريس السماوات يصحبه كا أو القرين وهنا يصيح الكاهن مقيم الصلوات: "لقد أعادت السماوات اتحادها مع الأرض"، مما يدخل البهجة على قلب إيزيس الحزينة. وفي الساعة التالية تُسكب "مياه الأرض" في شعيرة سكب الماء، وفي الساعة الثالثة من الدراما نرى أن سكب الماء هو الشعيرة التي تجعل روح الإله تمر عبر بلاده مسقط رأسه وموطن ميلاده، "خذ الماء فبه تأتي إلى بلادك". أما شعيرة السكب التالية والتي تتم في الساعة الرابعة فهي من لدن الفننتين (أسوان)، والماء هذه المرة ينعش قلب الآلهة، وبالنسبة لطقوس سكب الماء والتطهر التالية، فليس لدينا من الأبحاث ما يؤكدها حتى الآن. ومع إتمام تلك الطقوس الأولية، تقوم الآلهة بعمل مجموعة من المعجزات على جسد أوزوريس، فالمعجزة الأولى هي إعادة بناء جسد الإله الذي قطع ست أوصاله، وجمعت إيزيس ونيفتيس تلك الأوصال بعد ذلك ورتبوها على الهيكل العظمي، وطهرتا اللحم وأعادتا كل جزء إلى مكانه. بعد ذلك تقوم الآلهة بوضع الرأس على الجسد، وتؤدي إيزيس ومعها حورس حركات مغناطيسية سحرية لاستدعاء حلول الروح.

والسر التعبدي الذي يلي ذلك هو إعادة الجسد بعد أن تدب فيه الروح والحياة وذلك باستخدام الماء المقدس الذي يمنح الجسد القوة والحياة وبدهن الجسد أيضًا بالزيوت والمراهم واحدًا تلو الآخر. بعد ذلك يأتي كبير السحرة فيلمس كل

عضو بآلة سحرية، وفي الساعة الرابعة من اليوم من المفترض أن يُدخل جسد أوزوريس الذي لا يزال في شكل المومياء إلى بوزوريس (أبو صير/ بر أوزير)، وفي هذا المشهد يتم تصوير سر إعادة ميلاده كالزرع، بمعنى إعادة ميلاد الإله كما تنبت حبة القمح في موعدها السنوي، وفي تلك الساعة يُعلن أن أوزوريس له رتبة أخرى من رتب الميلاد، وهي الرتبة الحيوانية، وهنا تُقدم قرابين الأضاحي على بوابة أوابت، وتصبح جلود تلك الأضاحي بمثابة جلد ست عدو أوزوريس، وفي تلك الجلود يُلف جسد أوزوريس وكأنها أكفان له، ومن تلك الأكفان التي تكون بمثابة "المهد" الجلـــدي أو ما يُمسى (مسخنت) يولد الإله ثانية فـــي صورة طفـــل أو حيوان.

وهنا تصرخ إيزيس "التحيات لك، فانظر مسخنت حيث يجدد كـــا حياته". وهذا الجلد الذي يُلف فيه أوزوريس هو جلد بقرة، ولذلك فإن هذه الصرخة التي تصرخ بها إيزيس تستدعي الإلهة البقرة نوت إلهة السماوات وأم أوزوريس، ويتمدد أوزوريس في جلد البقرة وتأتي أمه نوت وتتحدث إليه ثم تستدعي روحه بطرق سحرية لتجعله ينهض (ويعود للحياة). ويترأس تلك الطقوس الإله أنوبيس الذي يحمل رمز النيبرايد وهو جلد وحش مرفوع على وتد/صاري من الخشب، و"يمر" أنوبيس على الفرش أو الجلد المقدس، ويتخذ هيئة الجنين في الرحم آملاً أن تتشابه تلك الحالة بقوى السحر مع حالة الإله ليولد، ويتبعه في ذل حورس باسم الأب ولكن على مهد جلدي آخر يُسمى شدشد[1].

وفي الساعة السادسة من اليوم يُعلن "أن الأم نوت قد حملت"، وللتصديق على البعث يقام عمود، وهو الأب أو "الحامي السحري" لأوزوريس، وهذا هو

---

(١) في الصيغة الحديثة فقط، وليست في تراث المملكة القديمة.

الموصوف في خطبة إخرنفرت. وفي منتصف النهار عندما تكون الشمس في أعلى منازلها يُنعش جسد أوزوريس، وعندئذٍ يقترب الفرعون بنفسه حاملاً العطايا، وفي الساعة الثانية عشرة من اليوم (أي ما بين الساعة الخامسة والسادسة على حسب حساباتنا) تنتهي الطقوس، وتضاء المصابيح لطرد الأرواح الشريرة، وتُفتح الأبواب مع أناشيد الشكر والبهجة، فقد استعاد أوزوريس الكلمة المقدسة كلمة ماع - خرو الخالق القادر على حفظه وحمايته من كل شر ومن كل خطر ومن كل محنة، ويقيم أوزوريس في سلام وطمأنينة في معبده المقدس.

يرى م. مرويت أن طقوس إعادة الميلاد بشكل حيواني لها أهمية كبيرة جدًا، فهنا يمكننا عرض واحد من أكثر "أسرار" الطقوس المصرية غموضًا، وهو ما لا تخبرنا عنه الآثار. فنظريًا يكون المتوفى نفسه هو الذي يجدد حياته بالدخول في جلد حيوان الضحية، والآثار توضح أن المتوفى نفسه أو المرتقي لمراحل السمو هو من يؤدي تلك الشعيرة بنفسه، وبشكل عادي عبر العصور اقتصر الدخول في جلد الحيوان على مقيمي مراسم الصلاة أو على الضحايا البشريين أو الحيوانات. وللحقيقة، كانت هناك تنوعات عديدة لهذه الفقرة في المراسم، فالموضوع الأصلي يبدو أنه كان يتم وفقًا لما يلي: كان يتم خنق الضحية أو الضحايا من البشر أو الحيوانات حتى تعيد أرواحهم الحياة للمتوفى، وفي المرحلة الأولى كان الضحية من البشر يمثل ست عدو أوزوريس، لكن في المراحل التي تلت ذلك، كان يؤتى بأسير، وغالبًا ما يكون حبشي [نوبـــي] ، ليحل محل الضحايا، ثم أتت مراحل أكثر تمدنًا وتحضرًا فحل الحيوانات محل البشر- فكانت التضحية بالثيران أو الغزلان أو الخنازير، والتي كانت تمثل ست، وإن كان تقديم الضحية الحيوانية يتم محاكيًا نفـــس الأســـلوب الـــذي كان يُقدم به الضحية البشرية، وكان يُطلب من الرجـــال أو الأقزام الدخول في جلد الثور أو الغزال الضحية.

وفي تلك المراسم كان من الملاحظ دائمًا وجود رمز بشري، وهو التكنو[*]، والذي كان يُسحب على لوح خشبي (زحافة) أمام جلد الحيوان الضحية، ثم تُحفر حفرةٌ يُلقى بها جلد الثور وفخذه وقلبه ومعهم شعر التكنو ويُحرق كل ذلك في الحفرة، على أنه تضحية الجزء من أجل الكل، وعبر اللهب تصعد صورة الإنسان وجلد الضحية إلى السماء.

وكان من المعتقد أن أنوبيس هو من كشف للإنسان وكذلك للآلهة وسائل إعادة البعث والميلاد وعرّفها باسم طقوس "العبور عبر مهد الجلد" من أجل أوزوريس، ويبدو أن هذه الطقوس كانت في فترة الدولة القديمة، ففي تلك الفترة يشارك التكنو الرمز الشمسي مع الجثمان. أما في ظل عصر الدولة الحديثة فكان التكنو يشغل لوح الضحية، فهو الآن لم يعد يُغطى بالجلد بل بالأكفان والتي كانت أحيانًا تصبغ بلون جلد الوحش، وفي بعض المشاهد نرى أن حتى إيزيس ترتدي الكفن المصبوغ الخاص بالتكنو في الموكب الجنائزي[1]. والشكل ككل ما هو إلا تمثيل للجنين القابع في الرحم.

وعند الوصول إلى المقبرة يشارك التكنو في الطقوس التي تتكون من الرقود على فراش منخفض على النحو الذي ألمحنا إليه سابقًا، ثم تأتي عندئذٍ العملية السحرية التي أوجدها أنوبيس، وهذا إشارة إلى أن الفعل السحري حل محل التضحيـــة، بعد ذلك يقــوم التكنو، الذي يــؤدي دور الجنين البشري، بالخروج من الكفن الجلدي المصبوغ وكأنه وليد جديد .

(*) تكنـــــو رمز مقدس عبارة عن جلد حيوان مليء بمادة التحنيط تكرر تصويره منقولاً علي زحافة في الموكب الجنازي لإيداعه مع جثة المتوفى في حجرة الدفن. وأصبح التكنو في هيئته يرمز لعودة المتوفى بهذه الصورة في الحياة الأخروية (المراجع).

(١) يتشابه الشكل المكفن لتيكينوع تماما مع شكل المرتقي المرسوم على الأواني في إليوزيس، وهذا تشابه عفوي.

ومع مرور الزمن نستطيع أن نلاحظ اختفاء دور التكنو، ويؤول ذلك الدور إلى أحد الكهنة مقيمي الصلوات الذي بسّط تلك الطقوس فأصبحت عبارة عن مجرد استلقائه على فراش لابسًا الكفن ويظهر وكأنه نائم، ولكن تأثير ذلك النوم لم يكن أقل إعجازًا، وذلك لأن الراهب عندما يستيقظ يقول: "لقد رأيت أبي (أوزوريس) في كل تحولاته". وهذه التحولات هي تحول أوزوريس في صورة الجراد ثم النحل ثم أخيرًا في صورة الظلال. وكان من المعتقد أن الراهب حين يستيقظ يحضر معه أوزوريس "ظل الكفن الجلدي" بمعنى إعادة ميلاد روح المتوفى، وكذلك روح الجراد والنحل التي تشهد، على حسب أسطورة أرسطو، أن الجلد قد أُخصب وأولد كائنات حية التي تطير في حياة جديدة. وبالنسبة للجسد، فإنه لن يموت، فقد ولد الجسد والروح للحياة الخالدة[١].

يرى م. موريت أن كل ذلك له أصل قديم يعود إلى ما قبل التاريخ، فالكفن الذي يرتديه أوزوريس هو صورة مطورة للتكنو، وكذلك مسألة إعادة الميلاد هي الأخرى مرتبطة بشيء عُرف باسم شدشد، والذي يُعتقد أنه كان مركبة تصعد بها الروح إلى السماء، والتي ارتبطت بطريقة ما بالمهد الجلدي، كما كان مسخنت، إذا لم تكن هي نفسها المهد الجلدي. ولم يكن جلد البقرة وحده هو الذي يؤدي ذلك الدور، دور المهد الجلدي، فقد كانت جلود حيوانات أخرى تؤدي نفس الدور مثل جلد القرد والنمر والفهد. ويُصور المتوفى في صورة رمز الشمس وفي صورة يافعة كشاب أعيد ميلاده من جديد بجلد منتفخ طافٍ في الخلفية. ويرى م. موريت أن الفنان الذي رسم تلك الصورة كان يمثل طقوس الأسرار بطريقة مميزة تمامًا لا يمكن أن تفشي السر إلى أهل تلك الحياة الدنيا، إذ يقول "إن هذه الأشكال تعطي للعين فقط صورة عملية الارتقاء والسمو التي لا تتكلم عنها المتون".

---

(١) نستطيع أن نجد النحلة أيضًا في الأسرار اليونانية. فقد كان لخادمات أبوللو خصائص النحل، كما أن العسل كان من ضمن الطعام المقدس الذي يأكله المرتقي المتعبد. وكان يشار إلى كاهنات ديميتر على أنهن "نحل" ونساء نحلات، يرتدين الشعر المصري المستعار، ونرى هذه الصورة على طبق من كاميروس. وفي الاعتقاد السائد في بلاد البحر المتوسط كانت النحلة ترمز إلى الروح الصاعدة إلى السماء، تمامًا مثل الفراشة في الأسطورة السيلتية.

الفصل الحادي عشر

إعادة بناء الأسرار

يطرح م. موريت M. Moret سؤالاً مهمًا نستهل به هذا الفصل وهو، هل عجز الأحياء عن الاستفادة من الأسرار لتحقيق مصالحهم الأرضية أو الحياتية وحماية حياتهم المستقبلية؟ ويرى هو نفسه أن الإجابة على هذا السؤال ليست بالأمر الهين، وهذا لأن الأسرار كانت تنطبق في المقام الأول على الفرعون.

كانت هناك ذكرى احتفال سنوي تُسمى "سد"(*) أو عيد الضفيرة، وفيه كان يرتدي الفرعون ضفيرة صناعية يربطها بحزام الخصر، ولعلها كانت بقية من المهد الجلدي، وكلمة سد هي تحريف لكلمة سيشيد أو شيشيد والتي تعني المركبة التي تنتقل بها الروح إلى السماء. ومن ثم يمكننا القول بأن ذكرى الاحتفال الملكي ما هي إلا احتفال بذكرى مراسم الجلد التي تكلمنا عنها في الفصل السابق، وهي العلامة التي تشير إلى أن الناسك قد أتم الطقوس، فهي رمز الارتقاء والسمو. وهناك مثال مشابه من نفس النوع موجود في طقوس الفيديك الهندوسية، ففي أثناء احتفال الديسكا، أو تأليه الإنسان، وهو الاحتفال الذي يتم على يد كهنة الفيديك، نجدهم يبنون مظلة ليستخدمها الذي يقدم القربان والأضاحي، ثم يُعطى جلد بقرة

(*) أحد أهم الاحتفالات الطقسية التي يؤديها الملك الحاكم على مصر بمناسبة انقضاء ثلاثين عامًا له على عرش مصر لعل أبرز نماذجه ما نشاهده ضمن مجموعة الملك زوسر الهرمية بجبانة سقارة من الأسرة الثالثة الفرعونية يحاول فيها الملك اثبات استمرارية فحولته وشبابه ليعطي له حق تجديد اعتلاء عرش مصر. ولم يعد المصري من بعد حريصًا علي الالتزام بهذه الاحتفالية بعد انقضاء ثلاثين عاما علي العرش الملكي (المراجع).

وحشية سوداء، والمظلة هنا ترمز إلى قالب الأم، ويرمز الجلد إلى الغشاء الذي يحيط بالجنين، ويرمز الحزام إلى الحبل السري، وترمز مياه التطهير إلى السائل المنوي ويتشابه الاحتفال كلية بالاحتفال بإعادة ميلاد أوزوريس، والذي يتم فيه دهن العديد من الأغشية بالزيوت والمراهم. ونستطيع القول بأن احتفال الديسكا هو دراما تمثل الميلاد ثانية، ذلك الميلاد الذي يجعل من الإنسان إلهًا، وهذا آخر مراحل الارتقاء والسمو.

ونعود مرة أخرى إلى عيد سد حيث نجد نفس التركيبة، وهي بناء أو تكوين بشرًا إلهًا، ونجد أن التركيبة نفسها تتم بمعنى أننا نجد التطهر، والمسح بالزيوت والمراهم والعبور عبر الجلد وما إلى ذلك من طقوس ذكرناها للتو. لكن السؤال الآن هو هل كانت تلك الطقوس تقتصر على الملك؟ وهل كانت تتم بعد الموت فقط بمعنى أن يمر المرتقي بهذه الطقوس التي تضمن إعادة الميلاد؟ نعرف جميعًا أن أبواتوا "قد عبر الجلد" بنعماء من سيده الملكي في أبيدوس، وقد كان المسئول علن ارتقائه حيًا، لكن من الواضح أنه في الوقت الفترة التي تكلم فيها عن الأمر، لم تكن تلك الطقوس معروفة، فهل تمت مراسم ارتقائه؟ وهل كانت هناك درجات للارتقاء والسمو؟ في الفترة اليونانية الرومانية كان الارتقاء والسمو الكاملين يحصل عليهما الطامح العابد من خلال أسرار إيزيس، وكانت تلك الأسرار تضم الطقوس التي تحاكي الموت وإعادة الميلاد، مما يجعلنا نقول إن أبواتوا قد وصل إلى آخر مراتب الارتقاء والسمو التي عُرفت في زمانه. ربما نطلق وصف "واصل لدرجات الارتقاء والسمو" على الرجال القلائل الذين كتبوا على أضرحتهم أنهم " المستفيدون بطريقة كاملة، محصنون عليمون بسر التركيبة التعبدية"، أو على من "يعرفون كل شيء عن السحر السري للبلاط الملكي". فهؤلاء من وصلوا إلى درجات الارتقاء والسمو حال حياتهم، أما غيرهم فلم يصل إلى ما وصلوا إليه إلا بعد الموت، وقد

وصلوا بفضل طقوس أوزوريس الجنائزية. هناك عبارة طالما ترددت في كل نقوش عصر الدولة الحديثة (عصر الإمبراطورية) تلك العبارة هي " وحـــــم عنخ" أي هو من يجدد حياته (أو معيد الحياة)، والتي تشير إلى إعادة الميلاد عبر طقوس الارتقاء والسمو.

ويرى م. موريت أن إعادة الميلاد بعد الموت عن طريق الطقوس السحرية، والتي أهم ما يميزها شعيرة الخروج من الجلد، هي لب أسرار أوزوريس، فالتأكيد على البقاء الخالد هو نتيجة الارتقاء والسمو. وتكشف لنا آثار عصر الدولة القديمة [أو عصر بناة الأهرامات] عملية الارتقاء والسمو التي يُنعم بها على الملك الحي في احتفال سد وعلى الملك الميت في الطقوس الجنائزية، والطقوس السرية نجدها ملخصة أو مذكورة بإيجاز في "شعيرة الجلد التعبدية"، ففي تلك الشعيرة نجد الآلهة التي على شكل كلب تهدي سيد وأنوبيس وأبواتوا (وأنوبيس وأبواتوا إلها الجلد)، والملك أو مقيم المراسم ويُسمى أون موت أف الذي يرتدي الجلد [جلد الفهد] ويمضي عبر إعادة الميلاد إلى السماوات في مركبة شدشد، وهي عبارة عن جلد، تصبح فيما بعد رداءًا أو كفنًا أو عصابة رأس، وهي نفسها جلد البقرة الإلهة نوت رمز الأم الكبرى التي تلد. وتصبح تلك الجلود هي المدن السماوية أوت وميسكا وكيمينت وشدت!.

ولنستعرض الآن ما كتبه م. موريت عن وصفه للأسرار، فما كتبه لا يعطينا فقط فكرة عن وجهات نظر علماء المصريات، لكن يعطينا أيضًا وسائل ممتازة لنقارن تلك الآراء بما نخلص إليه من نتائج خاصة بنا. ويمكن تلخيص أراء م. موريت فيما يلي:

كانت الأســـرار المصـــرية وديـــعة هيئـــة من الكهنـــة يحفظونهـــا لأداء مراسمهم الخاصة.

كانت الأسرار المصرية عبارة عن طقوس مرتبطة بكلمات وعبارات وإشارات لا يمكن وصفها بكلمات تعبّر عنها، وكانت بعض الطقوس عبارة عن تصوير رمزي تعبر عن موت وبعث أوزوريس.

كانت الروح التي تحكم الأسرار المصرية هي السحر الخفي، فقد كان يتم الاحتفال بتلك الأسرار وممارستها وفقًا لكتاب الطقوس السري لمقيمي المراسم، وكان مكان الاحتفال هو قلب المعبد في مكان لا يصل إليه أحد.

كان الكهنة يقومون بتمثيل أدوار أفراد عائلة أوزوريس ويساعدهم كهنة آخرون يقومون بدور الكورال أو البطانة، وكهنة آخرون يتلون المتون وينفذون الطقوس السحرية مثل سكب الماء وإشعال البخور.

كانت الدراما المقدسة مكونة من أربعة وعشرين مشهدًا، وكان كل مشهد من تلك المشاهد يؤدى في ساعة محددة من الليل أو النهار، وكل مشهد منفصل عن باقي المشاهد.

وكانت تلك المشاهد تسير تدريجيًا نحو إعادة حياة الإله أوزوريس، وكانت عبارة عن إنعاش الجسد بسكب الماء وإشعال البخور لطرد أي شرور، وإعادة الجسد بوضع كل عضو من أعضاء الجسد في مكانه متكاملاً مع باقي الأعضاء ثم معاملته بالأدوات السحرية، ثم تطهير اللحم وعمل الطقوس المغناطيسية السحرية لاستدعاء الروح.

بعد ذلك تأتي طقوس إعادة ميلاد أوزوريس في الصورتين النباتية والحيوانية، وفي الصورة الحيوانية تذبح أضاحي البقر وتؤخذ جلودها كأكفان أو "كمهاد جلدية" التي يولد من خلالها الإله كابن من أبناء الأم نوت إلهة السماء التي تصور بهيئة بقرة.

يضع بعد ذلك أنوبيس نفسه على الجلد آملاً أن يحث ذلك أوزوريس، أو بالقوى السحرية، أن يمر بطقوس إعادة الميلاد، ثم تتألم الأم نوت في هيئة "المهد الجلدي" وتصرخ صرخات آلام بعث الإله الذي ينصب من أجله الجد أو العمود رمز أوزوريس.

وكانت الضحية في فترة مبكرة من التاريخ المصري بشرية الطابع، ثم حل محلها بعد ذلك التكنو الذي تمثلت في شكل رجل أو قزم يُلف في الكفن المصبوغ بألوان جلد البقرة، وكان هذا الشخص يؤدي دور الجنين البشري الذي يخرج طفلاً من الكفن الجلدي. وفي مرحلة تاريخية تالية، أخذ الراهب مقيم الصلاة والمراسم دور التكنو، فكان ينام ويستيقظ حاملاً معه الظل أو الروح الجديدة لأوزوريس المتوفى. وارتبطت إعادة الميلاد بشيء عُرف باسم شدشد، وهو مركبة كان يمتطيها أوزوريس ليعلو إلى السماء، وكانت تلك المركبة متصلة بالمسخنت أو المهد الجلدي.

وفي الاحتفال الملكي سد، كانت هناك مراسم مشابهة للتي ذكرناها، ولكن بدلاً من قالب الأم نوت طقوس فيديك كان هناك كوخ يمثلها وكانت إعادة الميلاد تحدث في ذلك الكوخ. ونجد مراسم مشابهة في طقوس فيديك. ومن المؤكد أن تلك المراسم كانت تتم للحي وللمتوفى على السواء، والأحياء الذين تتم لهم تلك المراسم هم نساك الأسرار، وبالتالي يكون الناسك هو من حل محل الضحية في المراسم التي كانت تتم في الماضي.

والسؤال الآن هو إلى أي مدى تتفق تلك النتائج السابقة مع النتائج التي كنا توصلنا إليها في الفصل التاسع؟ إذا نظرنا إلى تلك النتائج التي بين أيدينا الآن لا نجد ذكرًا لمسألة التفكر ولا لمسألة التطهر بالرغم من منطقية استنتاج ذلك. كذلك لا نجد هنا مراحل اكتشاف الأشياء المقدسة ولا تناول الطعام المقدس، ولا وجود أيضًا للرحلة إلى آلو عبر أمنتي على الرغم من وجود أسطورة تمثيل الإله ومراسم

إعادة الميلاد. وكذلك لا تتفق هذه النتائج مع المراسم التي ذكرها أبوليوس والتي أشار فيها إلى وحي كلمات القوة والتأمل والمرور عبر المناطق الجهنمية والعناصر، كما أن هذه النتائج لا تشير إلى مشهد أوزوريس وتوحده بالآلهة، باختصار، هذه النتائج لم تذكر أي شيء عن أكثر الأجزاء "روحانية" في الأسرار.

وفي رأيي أن هذه التناقضات مبعثها تناول الأمر من وجهتين مختلفتين، ففي المقام الأول، قدم لنا م. موريت الأسرار مقارنًا مراسمها عبر فترات التاريخ، وهذا واضح جدًا، فليس هناك ذكر لأي شيء بعد الأسرة الثامنة عشرة، أو حوالي ١٦٠٠ سنة قبل أبوليوس. ومن هنا يتضح أن الأسرار مرت بمراحل من التطور بدأت بالمراحل الأولى البدائية إلى المراحل التي وصفها أبوليوس.

ويتضح أيضًا أن هناك عاملاً مشتركًا أو شعيرة من الشعائر باقية عبر كل الفترات وهي التي أشار إليها م. موريت في الأسرار التي وصفها، تلك الشعيرة تتمثل في إعادة الميلاد. ووفقًا لما كتبه أبوليوس كانت تلك الشعيرة من ضمن طقوس الأسرار الصغرى في إليوزيس، وكانت تنطوي على تمثيل موت وإعادة ميلاد ديونيسوس، وهو الإله الذي يُعد الصورة اليونانية لأوزوريس. وهذه الحقائق تجعل من الواضح بالنسبة لي على الأقل أن جانب الأسرار الذي يتعامل مع إعادة الميلاد كان موجودا على الحالة التي تم ابتكاره عليها. وكان لابد من وضع الأسرار الكبرى بعد ذلك، كأسرار سيرابيس أو الجانب الثالث من الأسرار، فقد عرف في العصر البطلمي بمساعدة الكهنة اليونانيين والمصريين. لذا من الواضح أن م. موريت كان يقارن شعيرة إعادة الميلاد فقط.

وهنا نطرح سؤالاً صعبًا، ويزيد من تعقيد هذا السؤال طبيعة المعلومات التي بين أيدينا الآن، والسؤال هو هل الأسرار الصغرى هي بالفعل أسرار إيزيس والأسرار الكبرى هي أسرار أوزوريس؟ فشعيرة إعادة الميلاد هي الشعيرة الوحيدة المعروفة في العصور المبكرة الأولى كما رأينا، وترتبط بإيزيس وأوزوريس،

لكننا نجدها تدور حول أوزوريس ومقتصرة عليه، وكما رأينا في العصور الأكثر حداثة من عصر الدولة القديمة أن هذه الشعيرة يشار إليها على أنها الأسرار الصغرى، والأسرار الصغرى هي عقيدة إيزيس.

في رأيي الشخصي أنه مع مرور الزمن اكتسبت شخصية إيزيس قدرًا أكبر حتى طغى ظهورها على غيرها، حتى إنها طغت على طقوس أوزوريس، ويبدو ذلك واضحًا عندما نرى أوزوريس في طقوسه مجرد مستلقٍ على فراش في صمت مطبق وسكينة بلا أي دور، بينما تقوم إيزيس بالدور الرئيسي، فبصوتها وصراخها وعويلها تلفت الأنظار إليها وللاهتمام بها أيضًا كزوجة تقية وأم صالحة. ويوضح لنا بلوتارخ أنه في يوم أوزوريس تبدو إيزيس كبطلة الأسرار الأساسية ومعلمتها ومؤسستها.

مرة أخرى، ومع تقدم الزمن، نجد منحى أكثر روحانية تتبناه الأسرار، وهذا المنحى مرتبط بأوزوريس، إله العالم السفلي العظيم، عالم الأرواح، ومن هذا المنطلق وتلك الرؤية المقدسة، أتت الأسرار الكبرى أو هكذا أرى. لهذا السبب تجدنا نعرف الكثير والكثير عن الأسرار الصغرى بفضل المصادر المصرية وأبحاث م. موريت، تلك الأسرار التي عُرفت فيما بعد باسم أسرار إيزيس، وما نعرفه عنها أكثر مما نعرف عن الأسرار الكبرى أو أسرار أوزوريس.

والسؤال الآن هو ما الذي نعرفه بالتحديد عن الأسرار الكبرى في مصر؟ تشير متون التوابيت وكتاب الموتى بوضوح إلى أشكال متنوعة من تركيبة إعادة الميلاد، منها عبور الملك عبر بحيرة الزنبق ووصوله بعد ذلك إلى مدينة الشمس وهذان المشهدان مرتبطان بإعادة ميلاد أوزوريس و"مهد الجلد"، رغم عدم تلميحهما إلى تلك الأمور. ويبدو أن تلك الأمور نفسها مرتبطة بمركب الشمس حيث نراها وربما تكون هي نفسها شدشد، وهي مثل بساط الريح الذي يطير بقوة السحر في السماء، وهي مثل جلد البقرة الأم التي تسكن السماء والمانحة لقوة التحليق السحرية في السماء.

وفي رأيي أننا من الممكن أن نجمع معلومات حول الأسرار الكبرى أو أسرار أوزوريس من خلال المقارنة بأسرار إليوزيس أكثر من أي مصدر آخر، فكل من هاديس وبيرسيفون ما هما في واقع الأمر إلا صورة أخرى لأوزوريس وإيزيس، ولا يهمنا كثيرًا هنا أن يكون لديميتر، الأم العظيمة، دور أساسي، لأنه بعد كل ذلك فإن أسطورتها ما هي إلا أسطورة شعبية مرتبطة بالأسطورة القديمة الآتية من الشرق، بالإضافة إلى ذلك فإن التحريف الذي أحدثه "ياخوس" يجعل المناخ العام مناخ أوزوريس ببعض الشك، فمما لدينا من معلومات معقدة وغير واضحة يكون من الصعب جدًا أن نعيد الخطوط الأساسية لأسطورة أوزوريس ومن ثم الأسرار الكبرى. وهنا لدينا ظلال مثبتة من أسطورة أوزوريس وإيزيس أكثر من طقوس إعادة الميلاد كما وصفها م. موريت والتي تعكس القليل عن أسطورة الآلهة كما نقلها لنا بلوتارخ. فتجول ديميتر بحثًا عن ابنتها بيرسيفون ما هو إلا تجول أيزيس بحثًا عن أوزوريس، وميلاد الطفل المقدس بروميوس هو ميلاد حورس. والأكثر من ذلك أن كلا الأسطورتين كان لهما نفس الدلالة "الزراعية" مثل أسطورة أوزوريس.

لذا فإنني أرى أننا يمكننا أن نعيد بناء الأسرار المصرية كما كانت معروفة في العصور المتأخرة بشكل أو بآخر حسب المنهج التالي:

تتكون الأسرار الصغرى أو أسرار إيزيس من:

(١) التحضير.

(٢) تحتوي تعاليم كبير الكهنة في أسرار "الكتاب السري لأفعال مقيمي الصلاة" على "كلمات القوة"[١].

---

(١) انظر فيري، Religion (الدين)، ص. ٢٧٨، موريت Au temples des Pharaons (في مقابر الفراعنة) ص. ٢١٨.

(٣) طقوس التعميد.

(٤) عشرة أيام تُقضى في التأمل والتفكر المقدس خارج المعبد.

(٥) القدوم إلى قلب حرم المعبد مع لبس رداء من الكتان، "تطور" مع الوقت من أصل الكفن الجلدي.

(٦) أداء دراما أوزوريس على مدار أربع وعشرين ساعة من السادسة مساءً إلى الخامسة من مساء اليوم الذي يليه في اليوم التالي الذي يقوم فيه الكاهن بطقوس متعددة تحاكي ميلاد أوزوريس. والمرحلة الأخيرة في الحقبة الزمنية لأبوليوس احتوت على الذهاب إلى آلو عبر أمينتي و"عبر العناصر"، ورؤية الآلهة أوزوريس وإيزيس وجهًا لوجه، وهو ما يشير إلى التوحد مع الآلهة.

ويقدم م.موريت في كتابه ملوك وآلهة مصر فكرة عن الأسرار مفعمة بالإشارات مما يجبرني أن أوردها هنا كاملة.

> **"هل فُسر النزول إلى الجحيم عشية الاحتفال المقدس بنفس الطريقة التي فسر المصريون بها نفس الحدث؟[١] هل كان الكاهن، مثله في ذلك مثل المتوفى المصري، يعترف أمام أوزوريس في المحكمة المنصوبة له، ويوزن قلبه في كفتي العدل والحقيقة؟ إذا نظرنا إلى النصوص لا نجد إجابة لتلك الأسئلة، ولكن الاعتراف في محكمة العالم السفلي غالبًا ما كان يشير إليه الشعراء الرومان، خاصة فيرجيل وهوريس وأوفيد. ولابد أن ذلك كان مألوفًا لدى أتباع عقيدة إيزيس، بالطبع عبر القنوات الرومانية. وتقدم لنا ميجاروم بومباي شهادة قيمة**

---

(١) كان هذا في العصر الروماني.

لصالح هذا الافتراض: وجود "المفترس" (الملتهمة) ذلك الوحش المصري الذي يفترس من تجده محكمة أوزوريس مذنبًا، وهذا الوحش موجود بجانب رياض الراحة في المحكمة. ألا يجوز لنا أن نذكر ولو ضمنًا أن محكمة أوزوريس كانت واحدة من ضمن المشاهد أو الصور التي يراها الطامح في معرفة الأسرار؟ فلربما كانت الأسرار التي يسرّ بها الكاهن إلى ذلك المتعبد الطامح هي الصيغة التي تهون على المتوفى المصري أمر المحاكمة وتعطيه المبررات التي يقولها. وأكثر من ذلك، المعيار الأخلاقي لدى عباد إيزيس، فكما يقول بلوتارخ وأبوليوس، إن عباد إيزيس يحافظون على حياة معتدلة، وعلى حبهم للعدل وتعطشهم للحقيقة، فكل هذه شمائل وصفات حسنة تشهد لهم بعد ذلك أثناء المحاكمة أمام أوزوريس.

"ربما لم يكن الكاهن، الذي تزكيه أيام الصيام والتأمل العشرة، يرى بساطة الطقوس وتدرجها المرحلي، إذ كانت تأخذه بمهابة وجلال دلالة موت أوزوريس، وكيفية الوفاء بوعد الخلود، كما أن الظروف المحيطة به تصبح أكثر بهجة، فقد ترك السرداب الموحش، حيث واجه آلام الموت، وتوجه إلى حجرة أخرى بها إيزيس متشحة بثيابها البيضاء، تضوي الحلي عليها، مرحبةً به وكأنها أمه، وفجأة تضيء هالة من النور أرجاء الحجرة. لقد رأى لوكاس الشمس عند موت الليل وهي تبسط وهجها المشرق العظيم". في واقع الأمر هذا هو رع منشئ الشمس في برجه الشمسي حيث كانت جنة المصريين وفردوسهم المنشود. وأوزوريس نفسه، المتوحد بالشمس، أصبح نجمًا يرمز موته وبعثه اليومي إلى مصير الإنسان. وفي هذه المرحلة من الارتقاء والسمو، يتعرف الكاهن على أوزوريس ثم على رع، 'وولدت من كل

العناصر وقابلت الآلهة العلوية والسفلية'. وهكذا يفعل المصري المبارك في العالم الآخر حيث 'يعبد شمس الصباح والقمر والهواء والماء والنار'. ربما كان الناسك يرى في الكتب المقدسة، المرتحلين إلى البرج الشمسي، وربما كان يتجول عبر المناطق الإليوزينية الاثنتي عشرة التي توازي ساعات الليل الاثنتي عشرة. وربما يشرح لنا ذلك وجود الحبال المقدسة التي يضعها الراهب في مسار رحلته للارتقاء والسمو. لقد علمنا من بورفيريوس أن 'الأرواح في عبورها الأفلاك تضع عليها، كما توضع الأردية الكهنوتية، صفات تلك الأفلاك'. ومع التسليم بذلك، فإنه بانتهاء رحلة الارتقاء والسمو يذوب الراهب في رع إله الشمس كما ذاب أوزوريس، وكذلك سيذوب كل الموتى المصريين، وعندما يظهر أمام النـــاس تتـــوج رأســـه بما يشبه الأشعة، كالتي علـــى رأس رع إله الشمس".

الأسرار الكبرى أو أسرار أوزوريس:

أعتقد أن أسرار أوزوريس مرتبطة بالصورة الرمزية لنبات القمح، وذلك بناءً على تحليل الأسرار الإليوزينية، وبسبب الطبيعة الزراعية للدراما التي تحكي قصة أوزوريس التي يتم تمثيلها في سايس. ولنتذكر معًا ما كتبه القديس هيبوليتوس عندما أشار إلى عرض حبة (سنبلة) القمح في صمت مطبق، فأسطورة ياخوس أو باخوس ("الغريب") المذكورة في الأسرار الإليوزينية الكبرى ما هي إلا نقل لأسطورة أوزوريس المحتفل بها في سايس. ومع التسليم بذلك، وبمقارنة الطقوس سنحصل على النسق التالي للأحداث:

(١) تجول إيزيس ونحيبها (يماثل تجول ونحيب ديميتر على بيرسيفون).

(٢) العثور على جسد أوزوريس.

(٣) "إعادة تكوين" أو إعادة ميلاد الإله في صورة نبتة قمح.

وعلى هذه الأفكار بعينها ترتكز الأسرار الكبرى، وهذا ما أتصوره. فأسطورة أو رمزية أوزوريس في الأسرار الكبرى كانت الأساس لفهم طبيعة الإله، وفهم خلقه، وفهم حقيقة أنه بشر وأن اللحم البشري هو لحمه وهذا تحقق من توحده مع سنبلة القمح. لقد كان المكسيكيون يقولون عن إله الذرة لديهم "إله الذرة من لحمنا". وهذا من المؤكد أنه كان نفس اعتقاد المصريين عن أوزوريس. ولكن بالنظر في الأسرار الكبرى نجدها لا تقتصر على الجانب المادي فقط، فالمغزى الأساسي والأصولي فيها هو أن الإله هو الذي أوجد وأنشأ الجسد والروح، فتلك الأسرار بها، كما هو الحال في الديانة المسيحية التي تقول بالتوحد المقدس، اعتراف وفهم أن هناك خبز روحاني له أثر أكبر وأسمى من الخبز الأرضي، ذاك هو خبز الروح، وهذه وحدها كانت الفكرة الأساسية التي ترتكز عليها الأسرار الكبرى في مصر.

الفصل الثاني عشر

الخداع والوهم في الأسرار

لعل من التعبيرات غير العادية التي كُتبت عن العصور القديمة خاصة فيما يتعلق بالأشياء العجيبة والمعجزة والأشياء الأخرى خلاف ذلك، بما في ذلك الأسرار المصرية والأسرار الأخرى، تتحدث عن طقوس ومراسم وتعلي من أثر جو الرعب الحادث فيها. فالناسك الطامح للارتقاء، كما عرفنا من تلك الكتابات، بعد التحضير وتلقي التعليمات والتوجيهات يجد في منطقة مرعبة، كمناطق الجحيم، لا يأتيها إلا ضياء خافت يساعده على رؤية الأشباح الرهيبة والرؤى المخيفة. ومن بين الأركان الكئيبة يأتيه فحيح الثعابين الضخمة وعواء الحيوانات والوحوش المفترسة الطويل والمرعب الذي يزيد ألمه بارتداد صدى صوته في الأنحاء[١].

ثم فجأة يتبدل المشهد ويتضح بشكل رائع وترتجف الأرض وتهتز كما لو كانت تتخبط نتيجة ضربة من أحد الزلازل القوية ثم تكون الصور والأشكال من حول ذلك المتعبد ممكنة التخيل ثم هو في وسط حالة يسمع فيها عددًا من الأحاديث والنصائح الموجهة له. ومن ثم تقوده أرواح الموتى ولكنها تنفر من لمسه ومن حوله يسمع دوي الرعد ويومض البرق ويتجلى أمام عينه المحدقة والخائفة والتي تعاني من أشد حالات الرعب عدد من مشاهد مرعبة رهيبة. وفي النهاية تظهر الآلهة ونراه ينحني أمامها في خوف ووجل أمام حضرتهم الجليلة.

---

(١) سالفيتي، فلسفة السحر، النسخة الأولى، صفحة ٣٢٨.

ونأتي إلى سؤال يقول كم هو مقدار الحقيقة في هذه التعبيرات وما مقدار التخيل والتصور المدمج في تلك التعبيرات والتي يستحيل التفوه بها حاليًا. لكن ما نراه هو أن ذلك الناسك الذي يمثل بطل القصة يوظف كل ما يستطيع من أدوات مساعدة موجودة وأدوات أخرى مستحدثة في محاولة منه لزيادة تأثير تلك الأسرار التي واجهها والاستعارات الجيدة التي تعطينا تأثيرًا بأن ما حدث يكفي تمامًا. والدراما والحس المسرحي هما بلا شك أحد الأدوات الملائمة للعرض الجيد للحقيقة السحرية والرمزية. وهذا الموقف متعذر الفهم والتقدير أو لا يمكن فهمه وتقديره بسهولة خاصة في ظل تلك التأثيرات التي يتحفنا بها مرارًا وتكرارًا والتي نراها في أعمال الدجالين. ولم تكن أشياء كثيرة من تلك الموجودة من بين ما تعلمه الصوفيون للاستخدام من جانبهم إلى جانب استعانتهم من وقت لآخر بالأدب المسرحي لغرض تفسير الأشياء الغامضة. وإن لم تكن متواجدة بين تلك الأدوات السامية للمشهد المليء بالألغاز فإنها لا تزال عند الاستعانة بالتقوى والأمور الموحية تلك بلا شك ولحدة من الأشياء غير الجديرة وهو موقف ضيق الأفق ومنحصر ويتطلب وجود روح سطحية طائشة ومتقلبة لتهزأ في أشكال توظيف تلك الأحداث للاعتراف بها خاصة في ظل استخدام تلك الأشياء المليئة بالهلوسة والهذيان المصممة والمتجهة إلى نهاية غير جديرة بتلك الأحداث.

ونستحضر هنا كاسيودوروس **Cassiodorus**، ذلك الرجل والمعلم الذي عاش في القرن السادس الميلادي، يشير في كتاباته إلى "علم بناء آلات رائعة ورهيبة قد يغير تأثيرها من نظام الطبيعة" يلاحظ سالفيرتي **Salverte** أن في الحقبة الزمنية التي تواجد بها (١٨٤٦م) لم تكن قادرة على تحديد موضع الوحدانية (التفرد) المصرية دون مواجهة صعوبة كبيرة، وهو يلمح إلى أن المصريين كانوا متقدمين في علوم الآلات. ويؤكد على أنه ومن أجل النزول إلى كهف تروفونيوس

الذي حضر للتناقش حول المعجزة التي مكنتهم من الوقوف أمام الفتحة التي تبدو بوضوح ضيقة جدًا ليدخل من خلالها رجل متوسط الجسم، إلاّ أنه وبمجرد أن يدخل جزء الركبة يدلف الجسد كله إلى الداخل نتيجة بعض القوى الخفية. وقد تم ربط الآلية المستخدمة لهذا الغرض مع الآلية التي في الوقت ذاته عملت على توسيع مدخل الكهف[1].

يروي الكاتب والمؤلف فيلوستراتوس، في كتاب " Life of Apollonius of Tyana" أنه عندما وجه أحد حكماء الهند أبولنيوس إلى معبد الآلهة التي يعبدونها مرددين الترانيم الكلمات المقدسة، تحركت الأرض من تحت أقدامهم على وقع العصي التي يحملونها ويضربون بها الأرض وكأنها بحر هائج وعاصف ورفعهم لما يقارب القدمين ثم هدأ من تلقاء نفسه واستمر على مستواه الطبيعي.

احتوى كذلك "The Unedited Antiquities of Attica" الصادر عن مجمع ديليتاني (لندن عام ١٨١٧م) على فقرة تتعلق ببقايا آلة اكتشفت في معبد كريس بمدينة إليوزيس، وهو مسرح الأسرار المقدسة المرتبطة باسم المكان ذاته. وقد لاحظ عدد من المسافرين الإنجليز ممن سافروا وزاروا هذا المكان أن أرض الحرم قاسية وصلبة وغير ممهدة وأقل بكثير في مستوى ارتفاعها عن الرواق المجاور. وقد اعتقدوا بوجود سطح أرض من الخشب في مستوى الرواق المجاور كان يغطي السطح الحالي وقد أخفى هذا السطح قنطرة يمكن من خلالها تقديم الأفعال التي تقام من أسفل الحرم لتحريك تلك الأرض. ولاحظ المسافرون الإنجليز أيضًا في أرضية الردهة الداخلية أخدودين عميقين أو طريقين يتعذر على المراكب الصغيرة السير فيها أو سحبها إلى داخل المكان، وقد اعتقد المسافرون أن تلك

(١) Op. cit., مجلد ١، ص. ٢٤٨.

الأخاديد كان الغرض منها سحب البكرات التي تعمل لصالح الأسرار من أجل رفع الأجسام الثقيلة وربما، والحديث لهم، تمثل أرضًا متحركة.

وفي الجانب المقابل لرأيهم هذا فقد تعمقوا في أحد الأخاديد التي اعتقدوا أنها تساعد في إحداث التوازن المقابل لترفع الأرضية ومنها اكتشفوا أماكن للأوتاد يمكن من خلالها إصلاح الكرات وتثبيتها على مستوى الارتفاع المرغوب فيه. وهي عبارة عن ثمان فتحات مسدودة بصخور الرخام وترتفع عن الأرضية ومقسمة، منها أربع فتحات إلى اليمين وأربع فتحات إلى اليسار وهي مصممة ليمكن من خلالها إدخال أكياس كبيرة الحجم.

ويكمل سالفيرت قائلاً: إن الدجل دائمًا ما يخدع أهله ومع ذلك فإن كثيرًا من عقول المرشحين كانت مشغولة التفكير بشكل دائم لأن صرير تلك الكرات الخشبية لإحداث التوازن ولفات الحبالِ ونقر العجلات والضوضاء الصادرة عن تلك الآلات قد وصل بالضرورة إلى أذانهم وقد كشف بالطبع عن ضعف أيدي بني البشر في تلك الأشياء والتي كان يقصد منها أن تثير الإعجاب كما لو كانت إحدى الأعمال من لدن قوى خارقة للطبيعة. وقد شعرنا بهذا الإحساس الخطير وتعرفنا عليه ولكنه كان يبعد عن خيالنا أن يطلب عازل للصوت لصوت تلك الآلات وقد عمل هؤلاء على زيادة ذلك التأثير والتأكد من زيادة الرعب والرهبة المقصودة لزيادة الإثارة. والدوي الرهيب المصاحب للرعد كان يُفهم من العامة على أنه يد آلهة الانتقام وكـــان هـــؤلاء يحرصـــون عـــلى سماع أصـــوات تلك المعجـــزات عند تحدثهم باسم الآلهة.

وقد كشف اللابيرانت [المعبد الجنازي للملك أمنمحات الثالث بجبانة هواره بالفيوم] العديد من الأماكن التي بُنيت وشيدت بحيث لا تفتح أبوابها دون إحداث بعض الدوى الرهيب ليحيط صوتها كل من يدخل إلى المكان. وعندما حرك داريوس ابن هايستاسبيس الحجر، سجد أمامه أتباعه الجدد وعبدوه على أنه اختيار

الآلهة وعلى أنه في بعض الأحيان الإله ذاته وفي الوقت نفسه دوى الرعد ورأوا بأعينهم أضواء الرعد تملأ المكان".

كما لمّح كذلك الحاخام اليهودي من أصول إسبانية المدعو ميامونديس **Maimonides** الذي عاش في أوائل القرن السادس عشر الميلادي إلى البنايات التي تحدث بها النبوءات الإلهية أو الصور الملائكية التي تعرف عليها اليهود. وهي بالوسائل الصناعية كانت معدة لتوحي وترسم صورًا مشابهة كما ذكر ذلك في كتابات هيرمس تريس ميجيستوس المعروف والذي تمت الاستعانة به من جانب المصريين. ويقول كاسيليوس في أطروحته " **Dissertation sur les pirres vocales ou parlantes**" مقتبسًا من معلم جوفينال الذي وصف تمثالي ميمنون من خلال التحدث عن الآلات وقد بدا أن ذلك اشتق من كتابة أحد الباحثين في التقاليد القديمة.

وفي أحد فصول كتابه المعنون "**New Light on Ancient Egypt**" يقدم لنا السيد جاستون ماسبيرو **G Maspero** بعضًا من تفاصيل شيقة ومثيرة تتعلق بالتماثيل المصرية المتحركة ولم يشر إلى شيء مما قاله دون التشاور أولاً مع الإله ويمثل الإله أمامه بصورته ويسمع طلبه ويسمع نصيحته بصوته أو فعله أو إيمائه. وكانت تماثيله الآلهة تتميز بتقديم الإجابة للأسئلة المطلوبة منهم وبالطبع ليست أي أنواع من التماثيل ولكن التماثيل والأوثان التي تمت صناعتها وإعدادها خصيصًا لهذا الأمر. وعلى حسب علمي فإننا لا نمتلك أي تفاصيل منها وعلى القدر الذي يمكننا الإحراز فيه وتتبع حدسنا تجاهه فإنها كانت في الغالب تصنع من الخشب المطلي أو المموه كالتماثيل العادية ولكنه يصنع من قطع متشابكة ومرتبطة مع بعضها ويمكن تحريكها. وقد يرفع الذراع نفسه إلى ارتفاع الكتف أو المرفق لذا يمكن وضع اليد على الكائن وتمسكه أو تدعه يذهب. كما أن الرأس يتحرك على الرقبة ويرجع للخلف ويعود إلى مكانه مرة أخرى. ولا تبدو القدم متواصلة بالمفصلات المتحركة هي الأخرى ومن غير المحتمل تنفيذ الأعمال المعقدة كالسير

والرجوع. والآن فإن التمثال انتهى في صورته الإلهية الذي يقدم الشكل المادي والجسدي للشكل المتخيل ويقدم كذلك الشكل والكينونة التي يستدعى بها التمثال لهذا الغرض ومن خلال وسائل التشغيل التي تظل غير معلومة ويظهر جزء منه بطبيعته الخشبية كروح تتمتع بالقوى المزدوجة التي لا تهجرك. وبهذه الطريقة كان الآلهة الدنيويون ينتظمون ويشاركون الآلهة السماويون وكانوا بمثابة سفراء لهم على الأرض وكانوا قادرين على حماية ومعاقبة وتعليم البشرية وإرسال الأحلام لهم والتحدث شفويًا معهم. وعند تحديدهم فإنهم يلجئون إلى طريقة من طريقتين إما الإيحاء أو التحدث الصوتي. وهم ينظمون الكلمات ويعلنون الحكم المناسب للعمل سواء في كلمات قليلة أو في الخطب الطويلة. وهم يحركون الأيدي والرؤوس بإيقاع ثابت. ولم تكن تلك لتعتبر معجزة بل كانت جزءًا من الحياة اليومية والتشاور مع الآلهة فيما يتعلق بالوظائف المفيدة النافعة للرؤساء عن الحالة أو الملوك أو الملكات. وتمثل الآثار المتبقية عددًا من الأمثلة في عهد مدينة طيبة وفي الأوقات التي تليها.

ويتم التعرف على إيماءتين من الرأس لتشير إلى الموافقة أو التحدث "بصوت عالٍ ومميز". ويتنحى الرهبان جانبًا لهذه المهمة. ووظيفتهم هنا ليست سرًا بل إنهم يؤدونها على العيان تحت سمع وبصر الجميع". ولهم مكان كهنوتي مقدس مخصص لهم ويعرف الجميع أنهم يسحبون الأسلاك بحيث يومئ الإله برأسه بالحركة الصحيحة. ولم يكن أي من تلك الحيل مشكوكًا فيها في هذه الأحوال.

كيف يمكن إعداد هذه الخطط بثقة؟ يمكن رد ذلك ببساطة إلى أن الأشخاص مهيئين تمامًا لتصديق أن الأرواح الإلهية هي التي تحرك التماثيل. ويعتقد الرهبان أن اليد التي تـــعمل على تحريك التمثال تتلقى وحيًا وتوجيهًا من الإله ذاتـــه والقوى العلويـــة.

يقول سالفيرت Salverte

"ومن خلال طبيعة بعض الأشياء العجيبة يتم عرضها في جو من المعجزات المفترضة للأشياء والحركات المعجزة ومن خلال التمثيل الفخم والرنان والرهيب للأسرار والحركات فإنهم كانوا مخولين للتوصل في النهاية إلى مساعدة الموارد العلمية التي تعتبر ضرورية لتنفيذ هذه الأشياء والوصول إلى هذا التأثير. وكان القدماء مطلعين على الانعكاسات المزيفة التي تقدم الصور المضاعفة أو المعكوسة ودلالتها بالطبع في مواقع محددة مما يفقد تماما عملية الانعكاس. ولا يهمنا ما إذا كان اعتمدت الخصوصية بشكل جوهري على مكر الأيادي أو أنها كانت شبيهة للضوء المستقطب والذي يصل إلى الجسد المنعكس في ظل الضوء المسلط من زاوية معينة وهو يذوب دون أن يظهر أية صورة. وهو دليل واضح على أنه في أي من الحالات فإن توظيف هذه الانعكاسات كان مجهزا بشكل جيد للإيحاء بظهور معجزات هائلة واضحة. اقتبس أوليوس جيليوس من فارو ليخبرنا عن تلك الحقائق في الوقت الذي كان يعتبر فيه هذه الظواهر على أنها غير جديرة وغير قيمة لكي تلفت انتباه الفلاسفة. ومهما كان السبب الذي يؤيد هذا الرأي فإنه غير معقول ولا يمكن الاعتداد به ولا يعتبر ذا طبيعة علمية حتى بين الفئات المثقفة التي كانت تتعلم كأرشميدس ذاته وهي تتسع على نحو مميز للحافظ على العلوم المعجزة كلها. ولنفترض أن هؤلاء المثقفين لمتأثرين كثيرا بالمدنية والحضارة هم من القائمين على إصلاح العلوم والمكرسين جهدهم للشرح العلمي للظواهر بدلا من الصراع بين بعضهم البعض على النظريات المطلوبة وأسرار المعجزات التي يمارسها الدجالون والتي باتت غير ذي نفع في ظل العلوم السحرية.

"وتعتبر الحدائق الغنّاء والأماكن الرائعة التي تظهر فجأة عند الارتقاء والسمو والوصول إلى الأسرار من خلال الضوء السحري، أو كما نعلم من خلال الشمس، أمورًا تكررت لدينا في اختراع حديث معاصر يتمثل في الدايوراما لإحداث التأثيرات على الصور. ويتمثل المبدأ في تلك الخدعة أصلاً في طريقة تسليط الضوء على الأشياء في الوقت الذي يكون فيه المشاهد جالسًا في الظلام. وهذا الأمر لم يكن صعبًا على الإطلاق حيث كان الشخص ينتقل سريعًا من مكان إلى آخر وقد كان يرتفع في الهواء ويهوى مرة أخرى فجأة لذا كان من السهل أن يتخيل نفسه في باطن الأرض التي كشفت له على الرغم من وجوده في مستوى الأرض. وقد نتساءل عن كيفية حدوث ذلك بهذا الشكل في حين أن هدف الساحر نفسه هو مضاعفة عدد الجمهور بأية وسيلة مع عدم كشفهم لتلك الألاعيب؟ وكانت الملاحظة وحدها كفيلة بكشف الأمر دون بذل أية جهود إضافية تجاه استخدام الفن والأدب. وإن كان هذا الأمر ينتهي من خلال استخدام غابة أو تعريشة صغيرة من الأشجار غير المهذبة ويتوهج المشهد على طرف بعيد فقط، فإن ذلك المنظر الطبيعي المتواري خلف تعريشة الأشجار تلك سيبدو قريبًا ويظهر أمام عين المشاهد كصورة مصاحبة بتأثير الدايوراما".

إضافة إلى ذلك كانت بعض الأشباح تظهر على فترات في سياق عرض تلك الأسرار والألغاز. يقول كيتشر في كتابه **Edipus** ما يلي "في مشهد لا يجب كشفه على الإطلاق.... تظهر على حوائط المعبد إضاءة شاملة غير قوية ثم تصبح مركزة مما يعني أنها تفترض وجود أوجه للآلهة ومظاهر أخرى خارقة للطبيعة كل ذلك بلمسة ومنظر جميل. ووفقًا لما قيل في رواية الأسرار الدينية كان أهل الإسكندرية يرون أن هذه الآلهة هي أوزوريس وأدونيس".

يقول يامبليخوس Iamblichus "إن مبتغى السحر ليس لخلق الشعور ولكن للتسبب في ظهور تلك الصور وهي تتراكب مع بعضها لتظهر وتتلاشى سريعًا دون أن تترك أي أثر خلفها"[1] وهو في كل كتاباته يؤكد على استخدام مثل تلك المشاهد المليئة بالأوهام.

يتهم القديس إبيفينيوس St. Epiphanius في كتابه المعنون: إبيستيل مقابل هيرتكس Epistle against the Heretics هؤلاء الدجالين باستخدام المخدرات والعقاقير القوية لتبديل المشاهد في عين الناسك الطامح إلى نيل الأسرار. وقد نقل لنا بلوتارخ وصفًا لأسرار تروفينيوس من رواية شخص قضى يومًا وليلتين في أحد الكهوف. فقد بدت أمامه المشاهد كأحلام شخص يعاني من السكر نتيجة استخدام مخدر قوي أو سائل مسكر قوي وهو يرويها كأحلام أكثر من كونها مجرد وصف للحقيقة الحادثة. ويحكي تيمارشيس، وهو أحد النساك الطامحين إلى الارتقاء والمعرفة، أنه عانى من صداع شديد عندما ظهرت له الأشباح وهذا ما يُقال عندما يبدأ تأثير الخمر والمسكرات وعندما تتلاشى الأشباح ويستيقظ من غفوته ويشعر بنفس الألم.

قد يكون هناك بعض الشك المتولد فيما يتعلق باستخدام بعض العقاقير والمخدرات مثل الحشيش ونبات القنب والأفيون والأنواع الأخرى للمخدرات في تلك الأسرار وذلك لمضاعفة التأثير على النساك كما يدعم ذلك بعض الحالات التي تتدخل مرارًا وتكرارًا في غفوة وتنام قليلاً. ومثل هذه الأشياء يبدو أن بوسانيوس قد تناولها أثناء خوضه طقوس الارتقاء في أسرار تروفينيوس. حيث جعله الرهبان أولاً يشرب من بئر النسيان ليمحو أفكاره الماضية وبعد ذلك من بئر الذاكرة ليتذكر الرؤية التي سيشاهدها. ثم يعرض بعد ذلك على عرض للأسرار السحرية

---

(1) De Mysteriis.

لتروفينيوس ويجبر على عبادته ثم يلبس بعد ذلك أثوابًا كهنوتية مخططة وبها عدد من الأطواق التي تلتف حول جسده ويدخل بها ثم يُقاد إلى المذبح والأرضية المقدسة حيث يظهر هناك كهف ينزل إليه مستخدمًا السلم وفي نهاية ذلك الكهف وعلى جانب منه توجد فتحة ومسافة يسيرها سيرًا على الأقدام في الداخل وكان جسده بالكامل مستوعبًا فيها بفعل بعض القوى الخفية. ثم يعود من نفس الفتحة التي دخل منها ويذهب إلى مكان ليجلس على عرش منيموسين ويطالبه الرهبان برواية ما رآه، وأخيرًا يقودونه مرة أخرى إلى المذبح والأرضية المقدسة للروح السامية. وبمجرد أن يستعيد وعيه يُجبر على كتابة ما رآه على ألواح صغيرة ومن ثم تعلق على جدران المعبد(١).

ولا يبدو وجود نهاية لهذه المتغيرات للتحكم في الإرادة عبر تناول العقاقير المخدرة والتي يتم إجبار النساك على تناولها في سياق تعلم الأسرار. وماء ليث وماء منيموسين والذي قد ذكرناه سابقاً هو بالتأكيد وبلا شك ليس ماءً نقيًا صافيًا. والعديد من هؤلاء ممن تشاوروا مع الوسيط الروحاني قد فعلوا ذلك بالفعل بدرجة أقل مما واجهه المبتدئين والمتعلمين لفنون الأسرار وبالفعل فإن بعض الوسطاء الروحانيين قد يدخلون في مشاورات مع المبتدئين ولكنهم لن يطلبوا عددا منهم على مسئوليتهم الشخصية. ومثل ذلك الوسيط الروحاني لتروفينيوس وما ذكر من النصوص أعلاه وما كتبه بلوتارخ. وهو يخبرنا عن تيمارخيس الذي قضى يومًا وليلتين داخل أحد الكهوف وعانى من صداع شديد عندما استحضر المشاهد والرؤى وهو تحت تأثير ما تناوله من عقاقير مخدرة. وعندما أفاق من تلك الحالة الوهمية والحالمة والتحمس الشديد شعر بضعفه التام. وبالفعل توفى ذلك الرجل بعد ثلاثة أشهر من زيارته لكهف تروفينيوس. ومن المحتمل أن تكون تلك المواجهة العنيفة قد تسببت له بالصدمة إلى حد كبير مما أثر على جهازه العصبي أو مرة

---

(١) بوسانيوس، Lib، ١١، فصل ٣٩.

أخرى تكون العقاقير المخدرة المستخدمة والتي تناولها قد يكون من المحتمل أنها عملت على تدمير صحته. ومع ذلك قد يبدو ذلك كما يخبرنا سوداس أن من يتشاور مع الوسيط الروحاني لا يخرج بشيء سوى مس من الجنون أو الخرف والتي تطاله كل حياته. انتهت مرحلة النوم الوهمي والحالم وقد حملوا إلى مدخل الكهف وتركوا في محاولة لاستعادة وعيهم تدريجيًا وعندها تم عرضهم على الطبيعة الشافية.

والنبات المخدر المشهور والمعروف بالحشيش كان يستخدم في تعبد العباد قديما حيث كان يعطي المتعلمين حياة تشبه الجنة والعديد من الأشخاص يعرفون ذلك وخلاصة نبات القنب الذي لا يزال يستخدم في الشرق للمساعدة على توليد الرؤى المرضية. ولكن سالفرت يفكر في أن العباد لم يكونوا من الجاهلين بسر المخدرات والتي ربما اقترضوها من المصريين وكانت ربما تستخدم في المعابد المصرية. وكان ذلك حجر منـــف والموصوف على حجر دائري من لون متألق بحجم الحصاة الصغيرة. ويعتقد سالفرت أن هذا الحجر مصنوع وأن تأثيره والغرض منه يتمثل في تسكين الألم.

ولكن قد يتم كذلك استخدام العطور ذات الرائحة القوية والتأثير النافذ في بعض تلك الأسرار. على سبيل المثال في الأسرار الأورفية يوجد عطر منفصل يتمثل دوره في مصاحبة حالات أفعال التوسل والتعبد لكل عبادة. وبالفعل فإن الإجراءات والأفعال الأخلاقية والنفسية للرائحة كانت مناط دراسة خاصة جدًا للدجالين القدماء. كما كانت المراهم والأدوات الأخرى تستخدم كذلك في هذه الإجراءات. عند الرومانيين كما كتب أخيليس تاتيوس فإن أحد الأطباء المصريين والذي عالج ليوكيبوس من نوبة الهياج التي كانت قد أصابته يبدو أنه تأثر بدهن عدد من المراهم على رأسه وقبل التشاور مع الوسيط الروحاني لتروفينيوس دُهن جسده كاملاً بالزيـــت. ومثل هذه الطقـــوس موجودة فـــي شعائـــر عبادات الهنود المكسيكيين القدماء.

وأضاف الطبيب أ. ت. تومسون **A.T. Thomson** الناشر لكتابات سالفرت ملاحظة غريبة حول تأثير بعض المراهم والتي كانت تتسبب في بعض الرؤى في سياق الارتقاء إلى تعلم الأسرار. وقد أخبرنا أنه عندما يستغرق الشخص في النوم فهو يستحث بمساعدة أحد المراهم عددًا من الأحلام والرؤى المميزة العارضة وفقًا للظروف النفسية للشخص الحالم*. وإن تم تسليط الضوء بشكل مفاجئ على الغرفة حيث يجلس أحد الأشخاص وهو في هذه الحالة من الغفوة والنعاس فسوف يحلم في جو معادل أو صورة مجازية أو يجول في حقول من الأيام الصيفية المعتدلة الصافية الصحوة أو يتخيل كأنه في الجحيم. وإن تم بجواره ضرب باب بعنف ولكن ليس بصوت عالٍ جدًا بحيث يجعل النائم يفيق فإنه سيحلم به وكأنه رعد وبرق داخل حلمه. وإن تم وخز راحة يده بشكل رقيق ولطيف فإن حلمه سيكون به بعض أنواع المتعة وإن تملكت بعض الأفكار الخاصة من العقل بشكل تام خلال فترة اليقظة فسوف تعاود ذهنه في الأحلام في حالة النوم ولعل الرؤى التي ذكرت فقط واستخدمتها المشعوذون يجب أن تكون ذات خصائص وصفات مخدرة ولكن وبعيدًا عن ذلك فإن ما كان يستحث على تلك الأحلام برفق هو عمل الجلد بتجانس مع جهاز الاستشعار مما يؤدي إلى النوم والغوص في عالم مليء بالأحلام. وقد أوضح فايريوس **Wierius**، أبرز من كتب حول أمور السحر والأمور الأخرى، هذا الأمر بقوله إن العلاجات والمراهم التي يستخدمها المشعوذون والسحرة بهدف التأثير تتكون من دهن بشـــــري بخليط من عصير البقدونس والأعشاب وبعض النباتات الأخرى والسخام.

ومن المحتمل أن بعض هذه العلاجات والمراهم كان يستخدمها الرهبان [كهان باخوس، إله الخمر]. وتأثر هذه التصورات والتخيلات في بعض من طقوس الارتقاء والسمو بحالة الالتزام الأخلاقي وكبح الشهوات والصيام قابل للتساؤل. ولكن ما يزيد تلك الحالة هو العزلة والعيش في الظلمة وربما أيضًا العقاقير

المخدرة والكحوليات المسكرة الناتجة عن تناول الطعام المقدس والمشروبات المقدسة وهو يحاكي كذلك استخدام أعشاب من أنواع محددة. في مصر كانت العناية بالأجزاء المختلفة من الجسم البشري تتقسم بين عدد من الجن يصل إلى ستة وثلاثين جيناً وقد كان للكهنة دعوات وابتهالات مختلفة لاستحضار كل جني على حد قول أوريجين.

الفصل الثالث عشر

المعابد ومواطن الأسرار

لعل من المفيد أن نعرف المواقع المرتبطة بالمواقع المصرية والمتمثلة في سايس (صا الحجر) وفيلة. ووفقا لما قاله هيرودوت فإن موقع سايس، لم يعد يبقى منه شيء الآن، كان أحد مواقع الأسرار، أما موقع فيلة فلا يزال يضم معبدًا كبيرًا عظيمًا خاص بالإلهة إيزيس ولا يزال حتى اليوم له بعض البقايا والأطلال وذلك بسبب انهياره السريع تحت قوة ضربات المياه التي ملأت البلاد بسبب الأعمال الهندسية الضرورية [في ارتباط بمشروع بناء السد العالي].

في الفصل الأول من كتاب الموتى، نجد أيضا ممر يؤدي إلى موقع آخر "انظر إلى الأشياء الخفية في رع ستاو". وهي تصور الميلاد والممات لإله الشمس كما تم ذلك في حرم سوكر إله الموت في سقارة في ظل الاحتفال الذي أقيم بين منتصف الليل والفجر. ومرة أخرى في الفصل ١٢٥ من كتاب الموتى (بردية آني) نقرأ: "لقد دخلت إلى موقع ري ستاو (العالم الآخر لسيكر بالقرب من منف) ورأيت الخفي هناك (أو السر)". وعند رواية الفصل (١٦٨) (قراءة حديثة) "في يوم القمر الجديد في احتفال اليوم السادس واحتفال اليوم الخامس عشر واحتفال واجت واحتفال تحوت وميلاد أوزوريس واحتفال مينو وليلة هكر وخلال التعرف على أسرار ماعت وخلال الاحتفال بأسرار أكرتت"، بحيث لا توجد أسرار أخرى خلاف تلك المعروفة عن أوزوريس وإيزيس إلى جانب عدد من المواقع الأخرى التي تم الاحتفال بها.

جدير بالذكر أن الشكل الأولي للمعابد في مصر عبارة عن كوخ من الخوص المضفر المجدول ويكون كضـــريح لرموز الإلـــه والمذبح وبه حصير مجدول من البوص. وتم العمل على تطوير المعابد الأولية من بناء الجدران المستديرة والقوائم الصخرية والتي فيما بعد تمت تغطيتها وتسقيفها. ومع مجيء عصر الدولة الحديثة أصبحت عملية بناء المعابد أكثر تعقيدا وان بقيت الملامح المعمارية الضرورية من البداية التاريخية المبكرة على حالها دون تغيير. والشكل الأبسط كان يتمثل في الحوائط المستديرة والبوابة الضخمة أو المدخل ذو الأبراج الجانبية قبل وضعهم بشكل عام لتمثالين هائلين للملك ومسلتين ثم تدخل فتجد الحرم الأقل ارتفاعًا وناووس الذي يمثل رمز الإله. وهذا كان يتم بشكل متقن عبر إضافة عدد من الإضافات مثل إضافة ثلاثة بوابات مقسمة بواقع ثلاثة طرق للتماثيل ثم تجد الساحات المصطفة والحوائط العمودية أو الزائدة. وبهذه الطريقة تجد العديد من ملوك مصر العظماء وقد زادوا من أبنية معابد أسلافهم.

وجدير بالذكر أنه كان يتم الحرص على بناء هذه المعابد في المدن المعروفة والمشهورة وإحاطتها بالحوائط الضخمة المستديرة التي تبعد الضوضاء وتوجد الشوارع الضيقة. وتقود إلى البوابة الضخمة التي تمثل المدخل الرئيسي في طريق كبير يمر عبر المناطق المأهولة ويحرس جوانبه على الصفين عدد من الأسود والكباش والحيوانات المقدسة الأخرى. وأمام المدخل نجد اثنتين من المسلات إلى جانب تماثيل الملك أمام المعبد ونراها تقف كحراس للحرم الموجود. وعلى كل جانب من جوانب المدخل نجد برجًا (صرحا) مربع الشكل ومرتفع وله جوانب تميل للداخل. وهي بالطبع مصممة للأغراض الدفاعية وقد يتم إغلاق الممر من خلال البوابة ضد كل الخصوم بشكل ناجح وجيد في حين تستخدم الأبواب الخلفية بالجدران للقيام بالغارات. ويتم تثبيت السواري الطويلة بالتجويفات في الصرح الأمامي. ومنها تتحرك الأعلام الملونة الخفاقة لتحافظ على طرد الشر والتهديدات

بعيدا كما يفعل رمز إله الشمس المتجسد بهيئة القرص المجنح على الأبواب الضخمة. وهي تصنع غالبًا من الخشب وعدد من المواد المتوفرة في مصر ويتّم تغطيتها باستخدام غطاء من الذهب اللامع. وتتم زخرفة أسطح الجدران الخارجية باستخدام بعض المنحوتات والنقوش الملونة مع رسم أفعال المؤسس [للمعبـــد] ويرجع ذلك إلى أن المعبد يعتبر أثرًا شخصيًا تمامًا كضريح حارس الإله. وفي الداخل البوابة تجد ساحة ضخمة مفتوحة بغير غطاء على السماء وبها صف واحد من الأعمدة بكل جانب ولكن تجد في المعابد الكبيرة كما في الكرنك سلسلة من الأعمدة تمتد في وسط المعبد. وتقام في هذه الساحة الاحتفالات الكبيرة حيث يتوافد عدد كبير من المدنيين ليتشاركوا في الاحتفالات. وبجوار الطريق المنخفض الجانبي من تلك الساحة تجد المدخل والنوافذ القريبة من السقف بحيث يكون الضوء باهتًا في الوقت الذي يغرق فيه الحرم المقدس [قدس الأقداس] في ظلام كامل وتام.

ويعتبر هذا المكان المقدس الغرفة الرئيسة للمعبد. وفيه نجد الناووس وهو صندوق يشبه الهيكل، مستطيل الشكل ومفتوح من الأمام وله في بعض الأحيان باب صغير يمثل التعريشة الفوقية. وهو يقوم بدور الوعاء للرموز الإلهية أو في بعض الحالات كقفص للحيوانات المقدسة. وعلى كل جانب من جوانب الحرم نجد حجرات مظلمة تستخدم كمستودعات للأثواب المقدسة للمواكب والنقوش المقدسة وأثاث المعبد وما إلى ذلك. ويجب ملاحظة التوالي من الضوء البراق للصالة الأولى الكبيرة إلى الظلام التام لقدس الأقداس بحيث تمتد الأسطح لتكون أقل مهابة وشموخًا. ونلاحظ كذلك انتشار النقوش والنحت على الأعمدة والجدران الداخلية ونجد بعضًا من التعبيرات التي تصف الشعائر والعبادات للإله في الخطب والكلمات. وبالتالي أصبح من الواضح أن تنفيذ الأسرار بالفعل بالمعابد (كما نعرفها من كتابات أبوليوس التي يجب أن يتم تأديتها كما ينبغي) فإن توالي المراحل المتعددة أو الأطوار المختلفة يجب أن يتم من ما قبيل الناووس إلى الحرم الداخلي

وبالفعل فإن كامل الأعراف السرية تضمن لنا أن تلك الأشياء كانت تتم باللغة والعبارات ومن ثم فإننا نتحدث عن المبتدئين كما هم عند "مدخل المعبد" أو "أمام ما قبيل الناووس" والمرحلة الأخيرة "أسرار الضريح الداخلي".

ويحيط بالمعبد تيمينوس وحوله جدار مناسب للمعابد الأخرى الصغيرة إضافة إلى الأشجار المقدسة والطيور المقدسة والبحيرات المقدسة التي تطفو بها المراكب المقدسة ونزل (أماكن إقامة) الرهبان وأحيانًا نجد أماكن ونزل تتوسط الحدائق. وبالخارج نجد مرة أخرى طرقا مقدسة تقود إلى اتجاهات مختلفة بعضها يتفرع من المعبد إلى المعبد متوغلة في المدن والقرى والحقول وتنحدر من جانب آخر إلى نهر النيل حيث يمكننا أن نتعرف على مراسي القوارب. إلى جانب بعض الطرق للمواكب المقدسة ونجد فيها صورا للآلهة وبها صورة الملك في الوضع الملكي لإبداء العروض أمام الآلهة وحيث نتعرف على مكان حمل الموتى إلى مقابرهم عبر النيل.

وكثيرًا ما كان يُشار إلى اليونان على أنها "أرض المعابد" وقد يكون اللقب منطبقًا أكثر على مصر حيث نجد عملاقًا معماريًا كبيرًا في كل مدينة حتى قبل أن يتباهى هيلاس بمعرفته بفن البناء. ولا تزال تلك المباني الخالدة تقف حتى الآن وكأن الزمن لم يمر عليها مقاومة البلى وكأنها مبنية منذ عهد قريب.

ربما لا يوجد في هذا الكم الهائل من الكتابات السرية القديمة ما يجعل عقل الإنسان المعاصر في حيرة مثل فكرة المتاهة. وهو يراها كمتاهة خفية بطريق معوج يمتد في تجاويف الجبال أو الممرات ويحيط بها خطر داهم في ثنايا المعبد القديم. وهي أمور مخيفة ومخيبة للآمال في البداية في أن تجد كلمة متاهة تعني "ممر" ولكن ما هي مجموعة الأصوات والحروف التي قد تنقل الجو بشكل أفضل أو توحي بصورة عقلية أفضل لظلال الخوف؟ يذكر أن الكلمة "متاهة" (اللابيرانت) ذاتها تعتبر أسطورة وخرافة غريبة قديمة وترتبط بالأفعال السحرية.

والأكثر شهرة من بين المواقع المعروفة بهذا الاسم هو المعبد الجنازي للملك أمنمحات الثالث المعروف باللابيرانت بجبانة هوارة، الفيوم بالقرب من هرمه والذي يصفه كل من بلليني وهيرودوت وسترابون جغرافيًا في فترات مختلفة وإن كان هناك شك في أن يكون أحد هؤلاء قد اكتشف الطرق الموجودة فيه. وفي كتاب "**Natural History**" يخبرنا بلليني أن هذه الهرم بناه الملك بيتيسوخيس أو تيتحوس على الرغم من تأكيد هيرودوت على مشاركة اثني عشر ملكًا على الأقل لبناء وتوسيع البناء. يقول بيليني إن المدخل مزين بالرخام في حين أن بقية البناء مبني من الجرانيت وقد تم بناء المساحة الكبيرة بهذه الصلابة بحيث أن مرور العصور على البناء لا يكون سببًا لتدميره.

وهو يحتوي على ٣٠ "إقليم ومنطقة" لكل منها قصر ضخم وفسيح ملحق بها وبالإضافة إلى المعابد الخاصة بكل آلهة مصر والتماثيل الأربعين لنيمسيز إله الانتقام إلى جانب الأضرحة المقدسة نجد عدد ٤٠ من الأهرامات المتعددة مختلفة الارتفاع. والعديد من الصور الموجودة تعتبر معقدة بحيث أن الزائر للمكان ينمو بداخله الشك والريبة وقد يضل طريقه. وتزيد بلاغة بلليني في التحدث عن الأروقة وصالات الطعام التي يمكن الوصول إليها من خلال عدة رحلات إلى جانب الأعمدة الضخمة وتماثيل الآلهة والملوك التي تختلف وتتنوع ن حيث الطول والحجم بمختلف الأماكن. بعض هذه الأماكن كما يقول تحبس الأنفاس وهي مجهزة بأبواب والتي عندما تفتح يخرج منها صوت مرعب يشبه صوت الرعد كما أن المنطقة المجاورة تغرق في الظلام الدامس.

وجد البروفيسور السيد ويليام فليندرز بيتري **W. F. Petrie** الذي عمد إلى فحص المكان في عام ١٨٨٧م أن المكان يغطي مساحة تصل إلى ١٠٠٠ قدم طولاً و٨٠٠ قدم عرضًا وهي مساحة يراها كافية لتشتمل على "كل المعابد الواقعة في شرق طيبة (الأقصر)". واستطاع تحديد ذلك بناءًا على ما ذُكر في وصف المتاهة

(اللابيرانت) الذي قدمه هيرودويت بالقرب من مدينة التماسيح المعروفة بـــ كروكوديلوبوليس وبحيرة موريس (بحيرة قارون الحالية بالفيوم). وقد تمت تغطية الموقع بطبقة سميكة من كسور الحجر الجيري وبقية البناء الفسيح الذي قد تم تدميره على يد أهل هيراكليوبوليس [أهناسيا المدينة] "لأنه كان يثير سخطهم". وبعيدًا عن بيليني وما رآه من خلال الفحص الشخصي من اكتشاف عدم دقة الموقع فقد اقترح السيد ويليام فلندرز بتري أن استعادة بنية المتاهة والتي تحتوي على تسعة أضرحة مع وضع كل منها في ساحة ذات أعمدة والفتحة الكلية على صالة كبيرة وعلى الجانب الآخر نجد صفوفًا من الساحات وقد تراصت. ومرة أخرى نجد ساحة ثانية أخرى تؤدي إلى مجموعة أخرى من الساحات. وقد اكتشف ويليام كذلك مومياوات العديد من التماسيح المقدسة التي روت الأسطورة أنها دفنت بالمبنى بجوار العديد من الأجزاء الأخرى لسوبك إله التماسيح وبقايا الأعمدة المطليـــة ومواقـــد النيـــران والنماذج الحجريـــة للأهرامات وربـــما هذا ما أشار إليه بللينـــــي.

لا يمكن أن نقطع بوجود كشف لبعض الأسرار بالمتاهة (معبد اللابيرانت) من عدمه ولكن توجد احتمالية لحدوث ذلك بالطبع. ويبدو المكان النموذج الأصلي لمتاهة كونسوس فِي سرت حيث يتم الكشف عن أسرار ديونيسوس وقد يكون هناك مجال للشك في أن أحدها كان نموذجًا للآخر. يبدو كذلك بالمكان وجود ارتباط آخر بينهما" حيث تم وضع كل منهما حيث تتم ترضية الوحوش – التمساح والمينوتور (نصف حيوان ونصف إنسان). والآن فان الميناتور في معرض التقديم له أكثر شبها بالتمساح أكثر من الثور. وفي النهاية نجد في كونسوس أنه يشبه التصورات في مصر عن سوبك الإله التمساح للموتى. "وهذا هو إله ثور كما تقول السيدة هاريسون إنها "غير متأكدة". لهذه الأسباب وغيرها أعتقد أن المتاهة (معبد اللابيرانت) في الفيوم تعتبر موقعًا للأسرار وربما هي الموقع الرئيسي والأصلي.

جدير بالذكر أن معبد سيرابيوم في الإسكندرية يعتبر أحد المعابد الرئيسية للأسرار وقد بناه سوتر في العصر البطلمي. وقد زار روفينيوس **Rufinius** ذلك المعبد في نهاية القرن الرابع ووصفه بدقة كما يلي: "تشكلت القاعدة التي تم عليها بناء الموقع بشكل غير طبيعي ولكن بأيدي بني البشر. وهو يرتفع عن معظم المباني ويمكن الوصول إليه منها على بعد مئة خطوة فقط. ويمتد في كل الجوانب بأبعاد مربعة ضخمة ومترامية. وكل الأجزاء المنخفضة حتى مستوى الردهة والممشى مدفونة. وهذا السرداب الذي يستقبل الضوء من العلى من خلال فتحات مصممة خصيصًا لذلك ومقسمة إلى حجرات سرية منفصلة عن بعضها البعض وتؤدي وظائف مختلفة. ومحيط الجزء العلوي مشغول بوجود صالات الاجتماعات وحجرات بالغة الارتفاع يسكنها في العموم حراس المعبد وكان الرهبان يأخذون عهود الطهارة. ومن خلف هذا المبنى ومن الداخل تدور الأديرة من الجوانب الأربعة في شكل مربع. وفي المركز يرتفع المعبد وهو مزخرف وبه الأعمدة النفيسة والأحجار الرخام الرائعة المستخدمة بإسراف. وهي تحتوي على تمثال سيرابيس بنفس الحجم تقريبًا ويمكن أن تلمس أحد الجدران باليد اليمني والجدار الآخر باليد اليسرى. وهي تثبت أن كل أشكال المعادن والأخشاب قد دخلت إلى المبنى من هذا المكان الواسع. وقد تم كذلك النظر بعين الاعتبار إلى جدران الحرم ليتم تغطيتها أولا بأطباق الذهب ثم أطباق الفضة وبالخارج طبقة ثالثة من البرونز لغرض حماية الطبقتين الأخريين".

يصف م. موريت أنقاض إيسيوم أو ضريح إيزيس في بومباي وهو يقول: لا يوجد بإيسيوم في بومباي هذه الأبعاد الكبيرة. وكما نعرف اليوم فإنها تشغل موقع المعبد القديم وقد تم تدميره في زلازل عام ٦٣ ثم أعيد بناؤه قبل أي معبد آخر في بومباي بمعرفة جماعة متحمسة وبالفعل فإنها كانت قيد الاستخدام عند حدوث الكارثة الحقيقية عام ٧٩.

"يقع حرم المعبد في مركز الساحة المربعة ويحيط به أنقاض من الأعمدة والأشجار وهو مزخرف بمثلث في الواجهة قابع على سبعة أعمدة ويمكن الوصول إليه من خلال مسافة سير سبع خطوات. وداخل الحرم نرى القاعدة الأساسية والتي تعمل في الوقت ذاته كقاعدة لتمثال إيزيس ومكانًا لتخزين الأدوات المستخدمة للتعبد. وإلى يسار الساحة نجد مذبحًا كبيرًا، وعدد منها بحجم صغير لتقديم الضحايا والقرابين. وبالقرب منها بناء صغير مربع الشكل بممر ضيق حيث نجد صفين من المقاعد بالمبنى. وهي من المفترض أن تستخدم كقاعة للاختبارات والتدقيق حيث ينام الطامحون للتعرف على الأسرار في الليل لتزورهم إيزيس في الأحلام الذاخرة بالنبوءات. ومن خلف المذبح نجد الحائط الخارجي وهو مزود بخمسة فتحات كبيرة توفر الوصول إلى الصالة الأكبر والتي يعتقد أنها مخصصة للاجتماعات وإقامة مآدب الطعام والحضور للمحاضرات التي يحضرها أتباع إيزيس. وفي المنطقة المجاورة لتلك القاعة نجد حجرة المجلس أو المدرسة وبها نافورة لأغراض التطهر. وأخيرًا وبين المعبد والمكان المسرحي المجاور يمكن التعرف على النزل الخاص بالرهبان من بقايا جناح مكون من خمسة غرف".

وفيما يتعلق بالمعبد حيث يتم الاحتفال بالأسرار الإليوزينية نجد جدارًا عليه بعض من النقوش المقدسة في مدينة إليوزيس وهي جزء من حصون المدينة. وجدير بالذكر أن معبد ديميتر ذاته يشبه تلك الموجودة عند اليونانيين والمعروف باسم الإليوزينية. وفي ضريح صغير يقع إلى اليمين نجد بعضًا من الأوراق التي تمثل منحوتتين تظهران الإله والإلهة. وبالقرب منهما معبد ديميتر وهو يرتفع على نتوء صخري وبالأجناب عدد من الأعمدة الكبيرة أو قاعة الارتقاء المزودة بدعائم عددها اثنين وأربعين.

يقول فوكارت "يكفي أن تجمع العين مع الخريطة لتتعرف على تركيب الأعمدة بالمعبد اليوناني" فإنها ضرورية للمعبد وقاعة الارتقاء والسمو لمعرفة الأسرار. ومن خارج القاعة نجد مسافة ٢٧١٧ مترًا تمثل ثماني مستويات من التجهيزات التي تحتوي ما يقرب من ٣٠٠ شخص عند جلوسهم. ويبدو من الواضح حسب قول فوكارت أن المبنى قد تم تصميمه بما يتوافق مع نماذج البناء الفارسية. والخريطة توضح الأمور ذاتها حتى وإن اعتبرت الأجزاء أصغر وبالفعل فإن المظهر العام لا يشبه قاعة برسيبوليس ذات العمدان.

الفصل الرابع عشر

بقاء الأســــرار

من الصعب أن يشك أحد في حقيقة أن كنه الأسرار المصرية وجوهرها، وكذلك أسرارها وفلسفتها، قد انتقلت من مصر إلى بلاد أوروبا وآسيا على أيدي الكهنة المصريين مع بزوغ فجر الديانة المصرية وظهور المسيحية على أرض النيل. فكما كان هنالك اتصال بين ماجي والفلاسفة اليونانيين، وكما كان هناك أيضًا اتصال بين ميجوس جوبري وسقراط على حد قول أفلاطون، كذلك كان اتصال الكهنة المصريين المهاجرين من بلادهم إلى اليونان وروما بسكان تلك البلاد، مما كان له أثر في نشر هؤلاء الكهنة لمعتقداتهم وديانتهم في قلب تلك البلاد، وهذا أدى بدوره إلى أن تنتشر تلك المعتقدات وتسود بل ويتبناها أهل البلاد الجديدة التي اخترقها، إن صح ذلك التعبير، الكهنة المصريون فارضين وناشرين فلسفتهم وعقائدهم الخاصة. والأكثر من ذلك أن مدارس السحر في الإسكندرية بعثت مريديها وطلابها إلى بلاد بيزنطة وروما، وكما رأينا من قبل، أن عبادة سيرابيس وعبادة إيزيس تجاوزت الحدود المصرية إلى ما هو أبعد بكثير من الدول المجاورة لمصر، فقد وصلت تلك العبادات إلى الإمبراطورية الرومانية، بل ووصلت إلى بريطانيا حتى أن أتباع العقيدة الدوريدية تأثروا بتلك العبادات تأثرًا بالغًا. يقول سالفيرت **Salverte**، "إننا لنشك في مسألة قيام السحر والشعوذة على أيدي الكهنة المصريين الذين انتشروا منذ تكوين الإمبراطورية الرومانية في كل صوب، ورغم سخرية الناس منهم نجد الناس أنفسهم يذهبون إلى هؤلاء الكهنة سرًا لاستشارتهم في أمور عديدة، ولم يتوقف هؤلاء الكهنة عن نشاطهم الذي تمثل في جذب أتباع

جدد لديانتهم وعقيدتهم التي روجوا لها في الطبقات الدنيا داخل المجتمعات التي هاجروا إليها". ويتابع سالفيرت شارحًا أن عبادة القطة والماعز التي نراها في المعتقد السحري الأوروبي ربما كانت لها أصول مصرية، وهي الفكرة التي قد يقبلها دارسو العقائد السحرية وقد يرفضونها، وهنا يضيف سالفيرت قائلاً: "من المعروف أيضًا أن هناك عاملاً في غاية الأهمية لا يمكن إغفال ذكره ألا وهو المفتاح، فقد كان من بين حيل السحرة مثلما ظهر بين حيل السحرة من أمثال القديس جون والقديس هيبيرت. ونستطيع أن نلاحظ انتشار وجود هذه المفاتيح التي تشبه الصليب في شكلها في الآثار المصرية، فقد كان هذا المفتاح يمثل الأفكار الدينية القائلة بوجود وتجمع القدرة في يد الآلهة الرئيسة في مصر، وفي تلك المفاتيح نستطيع أن نرى الصورة المصرية للقوة المسيطرة على الكون". ولكن أعتقد أن رمز المفتاح هذا له دلالة أخرى أساسية وبدائية يعرفها حتى غير المتخصصين في علم المصريات.

ونجد سالفيرت (رغم أننا نأخذ منه على حذر) يمدنا بمعلومات من نوع مفيد خاصة عندما يقدم لنا اقتراحًا جيدًا مفاده أن كتاب السحر المعروف باسم (**Pseudo-monarchia Demonum**) يرجع إلى أصول مصرية، وأن الأسماء الذي ينطوي عليها ذلك الكتاب ويأتي ذكرها فيه هي إعادة صياغة لما ورد في الكتابات التي تصف الأعمال السحرية المصرية.

"من بين الجن المذكورين في كتاب السحر حورية تبسط سلطانها على نصفي الأرض، وهناك أيضًا جني عبارة عن رجل وقور كبير السن يركب على تمساح حاملاً على رسغ يده صقرًا، والصورة الثالثة هي لجمل والذي يعبر بوضوح عن هويته المصرية ... بينما تظهر الصور الأخرى في شكل ذئب له جزء من إنسان مشيرًا على أغلب ظن إلى أنوبيس بفكي كلب، والصورة الخامسة للمدعو آمون أو هامون والذي يتحدث اسمها عن أصلها".

عندما فتح الإمبراطور الروماني أوكتافيوس **Octavius** مصر في بداية العهد المسيحي، كان هذا بمثابة أول ضربة كبرى توجه لعرش الديانة المصرية في عقر دارها، وإن مرت بفترة نهضة في إيطاليا التي تمثل غرب الإمبراطورية الرومانية، محققة بذلك ثاني وصول لها لشواطئ أوروبا حيث نشأت بالفعل عقيدة إيزيس وأصبحت تتمتع بمكانة في أوروبا توازي مكانتها في مصر، واستطاعت تلك العقيدة، عقيدة إيزيس، أن تلهب مشاعر كل طوائف المجتمع الإيطالي وحققت شعبية وانتشارًا كبيرًا في إيطاليا كلها.

وفي إيطاليا بُني معبد إيزيس وكان اسمه إيزيوم، وتم بناؤه في عام ١٠٥ قبل الميلاد في مدينة بومبي، وفي عام ٣٨ بعد الميلاد تم بناء معبد لإيزيس على يد كاليجولا **Caligula** في حرم معبد الإله مارس في روما، ووصلت عبادة الإلهة إيزيس إلى عزها ومجدها في روما في زمن أنطونينيس، وسادت لمدة خمسة قرون. ونستطيع أن نحصل على بعض المعلومات ومن ثم نكوّن معرفة من دراستنا وملاحظاتنا لمختلف رتب وطبقات الكهانة المتعلقة بكهنة إيزيس وذلك من آثار معابد إيزيس، مع العلم أن هذه المعلومات من النوع التحليلي، فالرهبان والكهنة الذي خدموا أسرار إيزيس وأوزوريس قطعًا كانوا خدمًا لها في مصر، وبالنظر في تلك الرتب والطبقات نجد أنه كان هناك أول طبقة هي الراهب الأكبر، ويساعده ثلاث طبقات أو رتب وهي: الأولى هم الرسل أو الصالحون التي تمثلت مهمتهم في الحفاظ على العلاقة مع الآلهة، والثانية هم السوليستيون وهم من الرجال والنساء التي تتمثل مهمتهم في كساء تماثيل الآلهة بالملابس سواء كانت تلك الملابس فاتحة اللون أو قاتمة اللون، وهم يرمزون إلى نصف المعرفة أي المعـــرفة التي يمتلكهـــا البشر عن الآلهـــة، والثالثـــة هم أصحاب القداسة أو الباستوفوريون، وهم حراس العقيدة المقدسة، ومهمتهم هي حراسة شئون الديانة والإيمان بها. وهؤلاء كانوا يلبسون عباءات طويلة ذات ألوان فاتحة مع تعرية

وكشف الصدر والأذرع، وحلاقة الرؤوس وفقًا للتقليد المصري، هذا عن الرجال منهم أما النساء فكن يرتدين عباءات شفافة عليها أوشحة تدلى منها خيوط وتُعقد تلك الأوشحة على منطقة الصدر مثل الطريقة التي يعقد بها الغجريات حجابهن، وكن يحملن السستروم (الشخشيخة) الخاصة بالإلهة إيزيس، تلك الأدوات الموسيقية كانت تصدر صوتًا يشبه صوت الأجراس، وكانت بمثابة أداة أعتقد أنها مستوحاة من شكل فزاعة الطيور والتي كانت تستخدم لتفزيع الطيور عن نبات الذرة في الحقل، وبإسقاط وجه الشبه هذا على الحية التي تمسكها الراهبات نجد أنها كانت أداة لتفزيع وطرد ست رمز الشر. لكن من الصعب الجزم بأن العبادة التي سادت في أوروبا هي العبادة الخالصة الخاصة بأوزوريس وإيزيس، ومع ذلك فعبور تلك الأفكار عبر الإسكندرية كان هو الجسر الطبيعي بين تلك المدينة الساحرة وبين اليونان حيث امتزجت الفلسفة اليونانية بالكهنوت المصري.

لقد بذل أول ملوك العصر البطلمي جهدًا كبيرًا في التوفيق بين الرعايا المصريين واليونانيين وجهودًا كذلك لخلق نوع من التفاهم بينهما، وكان تحقيق ذلك من خلال وضعه لديانة اتخذت من الإسكندرية مهدًا لها وضمت في شرائعها عناصر من العقائد المصرية واليونانية. واستعان الملك في ذلك بآراء مستشاريه الكاهن المصري مانيتون واليوناني تيموثيوس، وهذا الأخير أحد أعضاء الأسرة المقدسة الراعية لمعبد إيمولبيدا بمدينة إليوزيس، وبهذه الطريقة استطاع أن يجمع بل ويوحد بين العقيدة الإليوزينية وبين عقيدة إيزيس، بل والأكثر من ذلك أنه صاغ إلهًا آخر يُعبد في سياق العقيدة الجديدة التي ابتكرها، وكان هذا الإله هو سيرابيس، الذي يحيط الغموض بأصل نشأته ووجوده، والذي قد نراه أحيانًا وقد لا نراه في حرم معبد أوزوريس وعجل أبيس، وإن كانت تشير بعض العقائد إلى أن منشأ هذا الإله هو آسيا الصغرى أو بلاد بابل. وليكن ما يكون من أي اعتقاد حول أصل ذلك الإله، فإن سيرابيس قد حل محل أوزوريس وكوّن هو وإيزيس وحربوقراطيس

(حورس الطفل) الثالوث المصري في اليونان وروما، لكن هذا الثلاثي مكان ليُذكر منفردًا بل صاحبــه دومًا أنوبيس، ذلك الإله ذو رأس الكلب، والذي كان يُعرف باسم هيرميس.

وقد استطاعت الجهود غير العادية التي بذلها جنود الأسرار في الإسكندرية من إيجاد تلك العقائد المصطنعة ونشرها في العالم الغربي (قارة أوربا)، ولعل بوابة العالم الغربي كانت هي الموانى الإيطالية، حيث كان الاتصال بينها وبين الإسكندرية هو الجسر الذي عبرت عليه الديانة الجديدة-القديمة، وعبر عليه أيضًا التجار والبحارة والعبيد الذين كانوا يصلون إلى إيطاليا مبشرين بعقيدة إيزيس على الأرض الإيطالية. في بادئ الأمر لاقى هؤلاء المبشرون معارضة شرسة، لكن سرعان ما وجدوا رواجًا بل وتأييدًا لدى النظام البايثاجوري الذي جمع بين الفلسفة والديانة الشرقية والغربية. لقد اجتمع الآلاف على عبادة إيزيس التي لم تحلم لهم الوعد بالحياة والمساعدة بعد الموت فحسب، بل وعدتهم بحياة طيبة أيضًا، ومن الواضح أن حكاية موت أوزوريس المؤثرة وقلق إيزيس وهمها وحزنها عليه جعلت من العقيدة أمرًا يصعب مقاومته خاصة لدى الآلاف ممن كانت ظروف معيشتهم خالية من السعادة بكل مظاهرها، ولعل أكثر من أقبل على تلك العقيدة كانوا من النساء.

على مدى عشرة سنوات فيما بين عام ٥٨ وعام ٤٨ قبل الميلاد دار عراك شديد بين أنصار الديانة الرومانية القديمة وبين أنصار العقيدة الجديدة حتى اتخذت إيزيس مكانها بين الآلهة القديمة. وقد زاد من قوة ديانة إيزيس كون مصر تحت التاج الروماني، وسرعان ما دخل الأباطرة الرومان في عبادة إيزيس، ولعل أشهر هؤلاء الأباطرة هو الإمبراطور دوميتيان **Domitian** الذي أعاد بناء معبد إيزيس في حــرم مارتيــوس عام ٩٢ ميلاديــة، وجعل المعبد يبدو في أبهى صــوره. وقد امتدت طقوس عبادة إيزيس وزحفت على إسبانيا وفرنسا وبريطانيا وكذلك إلى

شمال إفريقيا كما فعلت ديانة سيرابيس. ونستطيع أن نجد آثار معابد إيزيس في هولندا وكولونيا وقد أنشأ الفيلق السادس مذابح القربان لأجل إيزيس في يورك، وقد عُثر على أكفان إيزيس الجنائزية في العديد من أجزاء فرنسا وسويسرا.

لم تكن مجرد أبهة الطقوس المصرية ومظاهرها هي التي أسرت العالم الروماني، ولكن الأوروبيين أنفسهم كانوا في تلك الفترة من الزمان معتادين على الأساطير، فقد كانت الآلهة في فرنسا وبريطانيا تشبه إلى حد كبير آلهة اليونان وروما، وواضح الآن أن أهم تلك الآلهة له أصل مشترك، ولكن يبقى الإيمان بتلك الآلهة، فقد ظل الإيمان بها غير مكتمل ينقصه الحس الأخلاقي ثبات النظرة، وكان تقديم عقيدة جديدة تلبي احتياجات العباد فيما يتعلق بالوجود بعد الموت أمر له أهميته وقبوله لدى هؤلاء العباد الذين لم يجدوا تلك المسألة لدى آلهتهم التي عبدوها. لكن يبدو أن العقل الأوربي لم يستطع تقبل العقيدة الحيوانية المصرية، وذلك لسبب بسيط جدًا هو تشابه تلك العقيدة مع العقيدة الطوطومية، على الأقل في شكلها الرسمي الواضح. ولم يذكر لنا أبوليوس الكثير في هذه النقطة، ومن ثم يكون لدينا مبرر عندما نقول بأن تفاعل أوروبا مع العقيدة المصرية القديمة كان، على أقل تقدير، كان تفاعلاً مع الصورة الكلية للعقيدة ومع "حداثتها".

لقد كان الهدف الأكبر للتبشير أو الدعوة الدينية في الإسكندرية كما توضح لنا الكتابات، ولتكن كتابات بلوتارخ مثالاً، هو التأكيد على الطبيعة الوحدانية للإله، فقد جمعت بين المذهب الأفلاطوني وبين عقيدة التثليث المصرية أي ثلاثة آلهة تمثل إلهًا واحدًا، بمعنى أنها استفادت من الحكمة الفلسفية القائمة على أساس علمي عبر العصور وذلك من أجل توضيح الدلالات المقدسة والحكمة القديمة التي ترى أنها اختبأت خلف الحكايات الأسطورية. وقد عبّرت الرسومات الأسطورية عن هذه التركيبة ولكن ليس بالشكل الصريح، وإنما استطاعت تلك الرسومات أن تعبّر عن الأفكار المجيدة جنبًا إلى جنب مع صور الكائنات والأحداث الخارقة للطبيعة،

فظهر الطهر المقدس، والحياة الطيبة، وسادت رؤاها بما تنطوي عليه على الديانات الأوروبية القديمة، مما مهد الطريق فيما بعد إلى قبول الديانة المسيحية. وباختصار نستطيع القول بأن تلك الديانة الجديدة بعثت الطاقات الروحانية التي لا يمكن لنا بكل ما أوتينا من علم ومعرفة أن نعبر عنها في كلمات، فقد كان أثر تلك الطاقات عميقًا وساميًا بالنفوس.

لقد كان شعار الإيمان بإيزيس هو "كن شجاعًا"، وهذا ما نجده مكتوبًا في العديد من مقابر تلك الفترة، كما توضح تلك الكتابات أن الروح البشرية، رغم حلولها في العديد من الأجسام الفانية، تصل في نهاية المطاف إلى الحياة الأبدية الخالدة. لقد كان هناك عيد هو أشهر أعياد العبادة المصرية في أوروبا، ذلك العيد كان يسمى مباركة المركب المقدس، وكان الاحتفال به في اليوم الخامس من شهر مارس، ثم عيد آخر هو عيد يوم العثور على أوزوريس وكان الاحتفال به في شهر نوفمبر، وفي هذا اليوم يتم تنصيب النساك في المركب المقدس. وقد كان هذان العيدان يشهدان احتفالات مليئة بالأبهة والعروض المبتهجة الألوان، وأكيد أنها كانت تحيي الكثير من الرمزية المصرية القديمة.

وإن كنا نرى أن الأسرار المصرية لم يسلم نقاؤها من الاختلاط بالمذاهب الأوروبية، فقد انتقلت تلك الأسرار من خلال الفلسفة اليونانية دون أن تكون قادرة على خلق وتكوين فلسفتها الخاصة، ومن ثم فإذا استطاعت تلك الأسرار أن تحافظ على أطرها الخارجية أو شكلها، فمن المؤكد أن لبها أو مضمونها لم يسلم من بعض التغيير الذي طرأ عليه، فلكل شيء إذا ما تم نقصان. فأحكام الطقوس والطريقة التي كانت تمارس بها تلك الطقوس كانت لها الأولوية والاهتمام أكثر من الدلالة الكهنوتية لتلك الطقـوس[1]. وبالطبع فإن ذلك من شأنه العودة بالطقـوس

(١) في الحقيقة كانت أكثر أهمية، فكما نرى في كل مكان، على الأقل على حسب الفهم.

إلى طبيعة النقصان لأنها تعود بها إلى الممارسات الأولية التي كانت الطقوس فيها محض شعائر تنطلق من معتقدات غير واضحة المعالم، فكانت أقرب ما تكون إلى الأساطير، ومن ثم تحتاج إلى أساطير أخرى لتشرحها. وللحق فإن أهم ما يميز النزعة الأصلية للأسرار أنها غير واضحة المعالم لدرجة أن دارسي علم مقارنة الأديان مثل روبيرتسون سميث **R. Smith** يظن أن الطقوس سابقة في أصلها على الأسطورة، ربما كان هذا صحيح من وجهة النظر التي أوضحتها من قبل، لكن من المؤكد والواضح أن الطقوس لا يمكن أن تكون سابقة على الفكرة الأسطورية نفسها أو التخيل.

لذا فإن الجزء السحري من الأسرار أصبح أكثر قيمة ووزنًا من ذي قبل خاصة في الأسرار المصرية الواردة على أوروبا، وهذا ما توضحه الكتابات الرومانية عن تلك الفترة، فقد استغل الحكماء و(من أسميهم) الكهنة "الكالفينيستيين" **Calvinstic Priests** في طيبة ومنف القوى السحرية أو القهرية على أكمل أوجه التدبير والطرح وأحاطوا تلك القوى بالسرية المتعقلة الحذرة تلك السرية التي حافظ عليها أرباب الطريقة الكبرى المخلصون بشتى الطرق، أما في أوروبا فسرعان ما فقد الأوربيون معنى وفحوى المعجزات لأنهم كانوا يرون فيها ضربًا من الطيش والسذاجة، وها هي روما مع انتقالها إلى المدنية والتحضر نراها تنظر إلى معابد إيزيس وسيرابيس على أنها مزارات للخرافات، وكذلك كانت نظرتها إلى الكهنة الذين كان لزامًا عليهم الحفاظ على تلك الأسرار والإبقاء على تركيبتها السحرية، فقد كانت روما الحديثة تنظر إلى كل ذلك على أنه محض تفاهة سادت في عصور ما قبل التدوين والكتابة.

في عصر سترابو كان معبد سيرابيس في كانوبوس يقصده المرضى من أرقى الطبقات طالبين الشفاء لما كانوا يظنون في ذلك المعبد من مقدرة معجزة على شفاء أمراضهم، وكذلك كان الناس يقصدون معابد إيزيس لتفسير أحلامهم.

وإذا ما تحولنا إلى تتبع بقاء الأسرار اليونانية، فسنجد أن فيثاجوروس، الذي وصل إلى كنه الأسرار وارتقى إليها في سيدون (صيدا)، قد ارتحل عبر العالم القديم باحثًا وطالبا للمعرفة، ووصل إلى كنه أسرار البلاد التي زارها، ومن معرفته بهذه الكليات استطاع أن يصوغ نظامًا خاصًا به. وكان لزامًا على من يعتنق هذا النظام أن يقضي خمس سنوات في صمت وعزلة، وإذا وُجد منه عدم الصبر أو الطموح أو النزوع إلى العالم الأرضي المادي لا يُقبل في هذا النظام، أما إذا وُجد أنه لديه الشجاعة والحماسة لتحمل الألم مهما كانت شدته، فإنه عندئذٍ يرتقي إلى الدرجة الأولى وينال لقب السامع المريد، وبعد قضاء مدة زمنية أخرى يدخل إلى الدرجة الثانية وهي درجة التريّض، ثم أخيرًا يدخل إلى الدرجة الثالثة والأخيرة وهي أن يصبح فيثاجوريًا.

ووفقًا للنظام الفيثاجوري كان المعتنق لهذا النظام يتعلم علوم النحو والبلاغة والمنطق وكذلك الزراعة والمذهب العقلاني والرياضيات، وذلك لأن المذهب يقول بأن غاية الإنسانية هي المعرفة المقدسة للأرقام، وبجانب تلك العلوم كانت هناك علوم الهندسة والموسيقى والفلك ونظامًا للرموز للتعبير عن المعاني العليا لهذا النظام، ومن ثم فإن المثلث المتساوي الأضلاع كان تعبيرًا عن كمال الآلهة، وكانت الزاوية القائمة عبر عن الطاقات البشرية الأرضية، وكان المربع المتكامل يعبر عن الفكر الإلهي، وهكذا.

وقد كشفت كتابات المؤلفين اليونانيين الذين عايشوا تلك الفترة الانتقالية أثر ذلك النظام. فنجد فيرجيل في الإنياذة **AEneid** يتكلم عن البوابة العاجية التي خرج منها هو ومرشده بعد رحلتهما في المناطق الجهنمية، وكانت هناك أيضًا بوابة البوق التي يدخل منها المتلقي؛ فكل من كان يطمح إلى الارتقاء كان يجد بوابتين الأولى هي بوابة النزول إلى الجحيم والثانية هي بوابة الصعود إلى العدل. وقد كتب الشعراء القدامى عن بواب البوق التي يرى المار من خلالها الرؤى الصادقة،

ويرى من خلال البوابة العاجية الرؤى الزائفة. ومن ثم، وبتطبيق هذه الرؤية على الإنياذة نجد أن إينياذ ومرشده قد سارا عبر البوابة العاجية، ولذا فإن رأي معظم النقاد يتفق على أنه طالما كان إنياذ ومرشده سائرين عبر البوابة العاجية فإن كل ما وصفاه عن المناطق الجهنمية هو من باب الرؤى الزائفة، أي أنه وصف باطل، ولكن لا يمكن أن يكون هذا هو مراد الشاعر؛ فمراد الشاعر كان الإشارة إلى الحالة المستقبلية ووصفها على أنها حالة واقعية، بخلاف الصورة المموهة المذكورة عن تلك الحالة في نصوص الأسرار، فالبوابة العاجية نفسها لم تكن إلا البوابة البهية الفخمة للمعبد التي من خلالها يخرج الناسك الطامح إلى الارتقاء بعد تمام الاحتفال والمراسم.

بالطبع من الصعب بل من المستحيل تتبع "أصل" الأسرار عبر تاريخ أوروبا في العصور الوسطى خطوة بخطوة، لكن من المؤكد أن تأثير تلك الأسرار ظل سائدًا وسائرًا على نهج واحد لم يتبدل أو يتغير، ونستطيع أن نفهم ذلك عندما نتتبع نتاج مدارس الإسكندرية وفروعها الإسبانية والبربرية وكذلك من كتابات قساوسة الكنيسة المسيحية في القرون الوسطى ومن كتابات الكيميائيين وكتاب عصر التنوير ومن كتابات القديس مارتين وكتابات مارتينز باسكوالي، ويظهر ذلك التأثير أيضًا في الحس الفلسفي لفلسفة جاكوب بوهيم وفي أعمال سويدينبيرج وفي كتابات بليك. وفي بريطانيا وفرنسا وألمانيا نجد أسطورة الكأس المقدس تمزج بين الرمزية المسيحية والرمزية المصرية، ولكن يصعب تحديد إلى أي مدى احتفظت الكنيسة القبطية المصرية بهذه الروح القديمة.

وفي العصور الحديثة هناك أدلة وأثر على أن الأسرار، أو على الأقل بقاياها، قد استطاعت البقاء في أوروبا وإن كانت بشكل غامض. فطقوس وعبادات كل الكنائس بليغة التأثير وقد أوضح ذلك أكثر من كاتب، وطريقة الاحتفال بالطقوس بشكلها المادي من السهل على من يطلبها أن يجدها. وما هذا إلا نوع من

البقاء المصطنع لعقيدة إيزيس في دوائر بعينها في باريس وفي أمريكا، فالعقيدة نفسها قد أعاد تأسيسها أناس لا يعرفون الكثير عن الطقوس القديمة، بل والأكثر من ذلك أن أفكار هؤلاء الذين أعادوا تأسيس تلك العقيدة تختلف عن أفكار مؤسسيها الأصليين، لذا من الأفضل أن نبذل بعض الجهد في تتبع بقاء عقائد الأسرار وفق نظم أخرى، خاصة من خلال نظم الجماعات السرية القديمة الإسلامية (جماعة الحشاشين كمثال) والمسيحية (جماعة الصليب الوردي كمثال).

إن تاريخ الجماعة السرية المسماة باسم جماعة الحشاشين، وهي جماعة يسيطر على فكرها بقايا الفكر السكندري وبالتالي الفلسفة المصرية، خاصة بسبب الظروف المحيطة بها، ولهذه الأسباب نادرًا ما تظهر في إطارها الصحيح في تاريخ الشرق الأدنى. ويسود في أذهان أغلب الباحثين وحتى بين المتخصصين الذين حادوا عن الجادة بسبب فتنة تلك العقيدة، أن معقل تلك الجماعة كان في قلعة جبل آلموت، ولكن ذلك غير صحيح، فقلعة جبل آلموت لم تكن إلا مأوى للقتلة الذين كان همهم وهدفهم الأول هو القتل بأمر من الطاغية الخفي، "شيخ الجبل"، ولعل ذلك التفسير لتلك الطائفة جاء بسبب طبيعتها. ولكن واقع الأمر أن أصول تلك الجماعة، سواء الأصول الدينية أو الفلسفية، سكندرية وبالتالي مصرية على الرغم من أن مبادئها العليا قائمة على أسس إسلامية، وما كان لمجتمع الجبل الذي أضفى على تلك الجماعة الصبغة القاتلة أثر على أسسها الأولى ومضمونها الأصلي.

وهناك أبحاث حديثة أجراها باحثون ألمان حول مصادر جماعة الحشاشين تفيد بأن تلك الجماعة يعود أصلها إلى الديانة الإسلامية، وإن كانت تمثل طائفة مستقلة باسم الطائفة الإسماعيلية، وتأسست في نهاية القرن الحادي عشر على يد الشيخ حسن الصباح الذي نشر مذهب تلك الطائفة وأفكارها في سوريا وبلاد فارس. وقد كانت تلك الجماعة بمثابة امتداد غربي للجماعة الإسماعيلية في

القاهرة، ومثلها مثل فرع من النظام الأصلي كان ولاؤها للخليفة وكانت تعطيه البيعة بأنه الحاكم الأعلى، وأعضاء تلك الجماعة كانوا من الرجال والنساء على حد سواء. وفي عهد الخليفة الحاكم بأمر الله اكتسبت تلك الجماعة مكانة رفيعة أنعم عليهم بها ذلك الحاكم الأخرق الذي أنشأ في القاهرة مؤسسة رسمية عُرفت باسم بيت الحكمة، وجهزها بمكتبة ضخمة وعدد هائل من أدوات علم الرياضيات والفلك. كانت تلك المؤسسة بمثابة الجامعة حيث كان يقوم بالتدريس فيها علماء القانون والمنطق والطب، وكانوا يلقون محاضراتهم ودروسهم أمام جموع الطلاب الحريصين على تلقي تعاليمهم، ويُقال إن ملابس هؤلاء العلماء، حيث كانوا يرتدون القفاطين، هي نفسها الملابس الرسمية التي يرتديها أساتذة الجامعة اليوم في جامعات بريطانيا.

والذي يهمنا هنا هو التعاليم التي كانت تُدرس في بيت الحكمة وأعني التعاليم الدينية، فقد كانت تلك التعاليم تتكون من تسع درجات للارتقاء، يتدرج بها الطالب في مستويات عقيدة الطائفة الإسماعيلية، وتبدأ تلك الدرجات بإخضاع الطالب إلى تأثير معلمه إخضاعًا كاملاً وتنتهي بالمرحلة التي يتعلم فيها الطالب "أن كل شيء ظاهر لا يمكن الإيمان به لأن له باطن يجب العلم به". والمرحلة الوسطى بين هاتين المرحلتين هي وضع الطالب في متاهة المذهب الباطني الإسلامي، وفي هذه المرحلة يتعرف الطالب على الحقائق الباطنة في القرآن، والدلالات الخفية للأرقام، وعلى حياة أصحاب المذاهب السبعة، وأنظمة أفلاطون وأرسطو. وفي المرحلة النهائية تتمزق الحجب جميعها أمام أعين الطالب، ويتعلم أن الأنبياء والمعلمين، والجنة والنار، والدين والفلسفة، ما هي إلا أوهام زائفة وأن كل شيء مباح في عالم تملؤه الفوضى، وهذه الفلسفة، أو نفي الفلسفة، واضحة تمامًا في رباعيات عمر الخيام المبايع المريد لحسن الصباح، فلم يكتف بأن بايعه مبايعة الولاء بالدم، بل لحق بشيخ الجبل ليجري على كل منهما ما يجري على الآخر، ولكن سرعان ما

وضع مؤلف الرباعيات نفسه تحت حماية صديقة نظام الملك، وهو أحد قادة الشيخ حسن، ويبدو أنه أقسم على الولاء للنظام أي نظام الخلافة الشرعي، رغم أن قصيدته تنم عن ارتباطه بفلسفة الحشاشين عن السعادة.

لكن الشيخ حسن، قائد الطائفة الإسماعيلية، كان له طموح كبير، وقد رسخ لديه أن خطة الجماعة في القاهرة تعجز عن أن تمنحه السلطة التي يريدها، ومن ثم عمد إلى تحويل تلك الفلسفة الفوضوية عبر منعطف عملي ووضع عقائدها في سياق تنفيذي حقيقي، فقد عرف أنه إذا أراد لسياسته السيادة فلابد لها من أساس ديني، ولذا عندما استقر به المقام في قلعة آلموت ببلاد فارس عام ١٠٩٠م، فرض على أتباعه الطاعة العمياء لأوامر الإسلام، وقلل المراتب التسع في المذهب إلى سبع مراتب، وكان يسمح فقط لمن لديهم معرفة بالطبيعة الإنسانية الدخول في النظام، وكان التابع المخلص يتعلم أن التصويرية أو الرمزية هي الطريق الحقيقي للدين، ومن خلال التأويل يمكن فهم أي نص من نصوص القرآن.

ويبدو أن فلسفة عقيدة الحشاشين هي التي نبعت منها أصول التصوف الذي يظهر الإله على أنه يمتلك صفات الخير والشر، وفي أصلها يكمن اختيار الإنسان بين هاتين الصفتين دون قيد على اختياره. ونعود إلى الطائفة الإسماعيلية وعقيدتها التي جعلت من أتباعها أعداءً للديانات الأخرى وأي سلطان آخر غير سلطانهم، وأصبح لديهم الميل بالسيطرة على الشأن الإسلامي كله بمعنى أن يصبح الدين الإسلامي برمته عبارة عن العقيدة الإسماعيلية، ومن المؤكد أن خلف كل ذلك قبعت سياسة إرهاب المعارضين واغتيال الحكام والقادة، ولكي ينفذ الشيخ حسن ما عزم عليه أسس مرتبة أخرى في المذهب هي مرتبة الفدائيين، الذين استعملهم في مواجهة السلطة الحاكمة، وكان هؤلاء الفدائيون هم الأطفال الذين يشتريهم الشيخ من آبائهم ويجعل منهم عبيدًا ويشرف على تدريبهم على أقصى درجات المشقة

وأعنف العادات وذلك في قلعة الجبل ويفرض عليهم الطاعة العمياء، وكان يعلمهم مختلف اللغات حتى يتسنى لهم الارتحال إلى أي قطر أو بلد يأمر به الشيخ، وكان يعطيهم مخدر الحشيش، ومنه جاءت تسميتهم باسم الحشاشين ولا خلاف على ذلك.

وأفضل المصادر التي تتكلم عن عقيدة الفدائيين وطريقة تدريبهم وعملهم كتاب بعنوان سيرة الحاكين، وهو كتاب كُتب بعيد سقوط قلعة الموت، ويتكلم الكتاب عن شيخ الجبل الذي أنشأ جنات السعادة وحدائق شتى وجعل فيها منازل ذات جوانب أربعة ازدان كل جنب بنافذات مطلية بنجوم من ذهب وفضة، وأحاط تلك المنازل بحدائق الزهر وآنية الذهب، وجعل فيها خدمًا من الرجال والنساء مهرة في الفنون الفارسية، وكانت أعمدة تلك المناسك ممسوحة بالمسك والعنبر، وقسم تلك الحديقة إلى أربعة أقسام في كل قسم منها ضروب الفاكهة وشتى أصناف الزهر تجري فيها قنوات الماء التي تحط عليها الطيور وحولها شتى ألوان المباهج.

وكان يؤمر بالفدائي الذي سيُناط به تنفيذ علمية قتل فيُعطى من الحشيش حتى يتخدر عقله ويذهب، وعندما يفيق ويستعيد وعيه يجد نفسه في هذا الفردوس أو تلك الجنة، ويخبره الخدم والعبيد فيها أنها جنة الخلد التي أعدها الإله له بعد الموت، ويجعلونه يهيم فيها ليذوق ألوان النعيم، وهنا يقابل الشيخ في الفردوس فيدعوه لتناول الطعام معه ولشرب الخمر، فيأكل ويشرب من الخمر الذي تشبع بالحشيش فيذهب عقله مرة أخرى ويغيب عن وعيه، وما إن يفيق ويعود إليه وعيه حتى يجد نفسه حيث كان قبل تخدره الأول. عندئذٍ يأتيه الشيخ ويخبره أنه كان في الفردوس وأنه وطأ الجنة بقدمه، وأنه إذا نفذ مراد الشيخ منه وقتل من يريد الشيخ أن يقتله، وقُتل في تلك الحادثة، سيعود إلى الفردوس التي زارها مرة أخرى، وهنا تهيج رغبة الفدائي في العودة إلى ذلك الفردوس وتلك الجنان الغناء فيذهب منفذًا مراد الشيخ منه منتظرًا الخلود في النعيم المقيم.

وسرعان ما بدأ الحشاشون يثبتون أنفسهم ونفوذهم في سوريا وبلاد فارس، وكان أول ضحاياهم هو نظام الملك الذي تتلمذ علي يده كل من الشيخ حسن وعمر الخيام، وبعد موت نظام الملك خلفه ابنه ونصب نفسه سلطانًا على بلاد فارس ولم يلبث حتى شن الحرب على الحشاشين، ولكنه عجز عن مواجهة فنونهم الحربية وإرادتهم القتالية فاضطر إلى عقد صلح معهم. وقد توفى الشيخ حسن بعد أن طعن في السن عام ١١٢٤م، وكان قد قتل ابنيه بيديه فلم يكن له خليفة بعد موته من نسله، بل خلفه هياب السرج عُميد والذي في عهده تراجع سلطان النظام الحاكم وكثر القتل والهرج. ثم من بعد هؤلاء جاء القائد الرابع أو شيخ الجبل الرابع وهو – حسن آخر– وعلى يده خرج مذهب الطائفة إلى النور وعرفه الجميع، وأعلن أن دين الإسلام قد انتهى وأن كل الناس يمكنهم أن يستمتعوا بمباهج الحياة وسعادتها، والأكثر من ذلك أنه أعلن نفسه خليفة الله على الأرض، ولكن لم تمر أربع سنوات حتى قُتل هذا القائد وخلفه ابنه محمد الثاني الذي دام عهده لست وأربعين سنة، وكان عهده هو أكثر العهود شراسة وعنفًا. وكان لمحمد الثاني هذا أعداء كثر، على رأسهم صلاح الدين الأيوبي، وكذلك جماعة الإسماعيلية في سوريا والتي خرجت عن طوعه واستقلت بنفسها، وهذا الفرع في سوريا هو الذي كان يتعامل مع الصليبيين، فقد أرسل هذا الفرع رجاله لاغتيال ريموند في طرابلس وكونراد في مومنتفيراتو. وقد أعاد ابن محمد هذا، واسمه حسن الثالث، النظام القديم لمذهب الطائفة الإسماعيلية – وهو التزام الناس بمبادئ وممارسات الإسلام، قد كان يرى أن الناس قبل ذلك النظام الذي فرضه كانوا بعيدين عن الإسلام، بل ملحدين، وفي عهده لم تقع أي حوادث اغتيال أو قتل كما أن التاريخ يذكر له حسن العلاقات مع الجيران، ولكن بعد اثنتي عشرة سنة من حكم حسن الثالث قُتل مسمومًا، وتولي الحكم من بعده ابنه محمد الثاني وكان لم يبلغ الرشد بعد، وساد في عهده القتل والاغتيال، وبعد أن أمضى في الحكم ثلاثين سنة، مات مذبوحًا على يد خليفته ركن الدين، ولكن دارت دائرة السوء عليه، فبعد عام على حكم ركن الدين اجتاح التتار

بلاد فارس، واستولوا على قلعة آلموت وغيرها من معاقل الحشاشين، وقتلوا حاكمهم ذبحًا. وانقلبت الأمور على طائفة الحشاشين، فقد قُتل منهم ما يزيد عن ١٢٠٠٠ في مذبحة كبيرة، وانكسرت شوكتهم تمامًا، ولم يسلم فرع الجماعة في سوريا من الأذى، فقد انهار أو كاد على يد المماليك المصريين. ولكن بقى من الجماعة فلول في الوديان السورية المنعزلة ويُقال إنهم أعادوا تنظيم صفوفهم وحافظوا على بقائهم حتى الآن. وعلى أية حال، فهناك في شمال سوريا مذاهب ومعتقدات تتشابه مع مذهب ومعتقدات الطائفة الإسماعيلية، ويبدو أنه إذا كانت الفلسفة الرسمية لنظام ما فريدة ومتميزة، فإن أفكارها قد تبقى وتنجو عبر الزمن بصورة ذات أساس ركين رغم أعمال العنف المتشدد في تلك المنطقة المنعزلة.

ونستطيع أن نرى أن عقيدة الحشاشين كانت ذات طبيعة سكندرية أو مصرية جديدة هدفها إبطال وإفساد حال النظام الحاكم الظالم. ونتحول الآن إلى جماعة ذات طابع تطهري أكبر وهي جماعة الصليب الوردي أو الروزكروشيان والتي أرى أنها ذات أصول مصرية هي الأخرى.

على مدى السنوات الماضية تضاربت آراء الباحثين حول وجود جماعة الصليب الوردي **Rosicruciams**، ربما قل وجود هذه الجماعة لكنه لم يُمح تمامًا، ومع ذلك يظل هنالك سؤال هو الأهم: هل كان لجماعة مثل جماعة الصليب الوردي وجود وازدهار، وإذا كانت الإجابة نعم، فما هي عقائدهم وأهدافهم الأساسية؟ قد نجد من يجيب لنا عن الجزء الأول من السؤال ويؤكد إجابته، وإن كان كل الباحثين في أمور التصوف والمعتقدات الدينية السرية يرون أنه منذ عصر دي كوينسي حتى عصرنا الحالي تتواتر الأدلة على عدم وجود تلك الجماعة، جماعة الصليب الوردي. وواقع الأمر أن دي كوينسي في أبحاثه الصادمة، وبحث السيد أ.ي. ويت **A. E. Waite** بعنوان التاريخ الصحيح لجماعة الصليب الوردي قد حسما الجدل السائد حول إيمان البعض بأن هذه الجماعة واحدة من الخرافات غير

العادية في تاريخ الإنسانية. لكن لم يكن من بين هذه الأبحاث من كان يهدف إلى غلق الباب أمام الجدل حول ما قبل ظهور جماعة الصليب الوردي، مما فتح الباب على مصراعيه أمام الاعتقاد بأن جماعة الصليب الوردي كان منبثقة عن جماعات سرية أقدم منها، ولا يزال مؤيدي وجود تلك الجماعة في عصرنا الحالي يقولون بأن جماعة إخوان الصليب الوردي لا تزال قائمة.

ويتفق الآن الجميع على أن أول ظهور لنظام جماعة الصليب الوردي، سواء كانت جماعة حقيقية أو تخيلية، كان مرتبطاً بدعوة لوثر. ففي العقد الثاني من القرن السابع عشر ظهرت ثلاثة أعمال متتابعة لنفس الكاتب هي (**The universal reformation**) و(**Fama Fraternitatis**) و(**Confessio Fraternitatis**)، وكانت الفكرة السائدة في تلك الكتابات هي التأكيد على التطهر من خطايا العالم الأرضي والزمن الأرضي، وسبيل ذلك هو تكوين جماعة يقودها التنويريون من أرباب المعرفة، وكانت روح ذلك العصر تميل إلى التصوف، وأن الاتجاه نحو الأخوة كان دعوة إلى حكمة العالم بأكثر من مجرد كلام عن الأمور الغيبية. ونطالع في كتاب (**Fama Fraternitatis**) خلوه من الكلام عن الأمور المقدسة غير المفهومة بل وتجنب الكلام عنها، ولكنه تكلم عن نظام الصليب الوردي تلك الجماعة الموجودة بالفعل، ويروي مفاهيمها وتاريخها.

وتطالعنا جماعة الصليب الوردي المسيحية الألمانية بتاريخها على وفق النهج التالي، تقول الجماعة بأن رجلاً يدعى كريستيان روزينكروز **Christian Rosenkreuz** من أصول نبيلة سافر عبر بلاد الشرق واكتسب معارفها العقائدية، ولدى عودته إلى ألمانيا أسس جماعة سرية، تكونت في بادئ الأمر من أربعة أشخاص، ثم زاد عددهم إلى ثمانية أعضاء اجتمعوا في مسكن واحد "بيت الروح المقدسة"، وموقع هذا البيت غير محدد. وبعد أن قام هذا الرجل بتعليم هؤلاء

الأعضاء المعارف المقدسة والعقائد التي اكتسبها من رحلته في بلاد الشرق، أرسلهم في بعثات تبشيرية لرأب جراح أوروبا، وأمرهم في الوقت نفسه أن يجتمعوا كل عام في المقر المركزي لجماعتهم في تاريخ معلوم، وشعار تلك الجماعة هو كلمة "الصليب الوردي"، كما أن الرمز المصور لهم هو ذاته الصليب الوردي. واحتفظوا بأمر بقاء الجماعة سرًا لمدة ١٠٠ عامًا، ومات كريستيان روزينكروز عن عمر ناهز ١٠٦ عامًا، ولم يعلم أحد حتى أتباعه عن مكان دفنه. وبعد مرور ١٢٠ عامًا على هذا النظام، اكتُشف باب في بيت الروح المقدسة يؤدي إلى سرداب مظلم كالقبر عُثر فيه على كتب سرية حول نظام الجماعة كلها كلمات باراسيلسوس وعلى عدد من الأدوات التعبدية الصوفية، وتحت المذبح عُثر على جثمان روزينكروز نفسه سالمًا دون أي تغير أو فساد في بنيته، وكان الجثمان ماسكًا في يده اليمنى بكتاب مكتوبة صفحاته بحروف ذهبية. بعد اكتشاف تلك الأمور والإفصاح عنها كُشف عن أسرار تلك الجماعة ونظامها للعالم كله، وأظهرت تلك الجماعة معتقداتها على أنها أساس الإيمان البروتستانتي، وذكرت أن فن صناعة الذهب لم يكن إلا "شيئًا بسيطًا" لدى أعضاء الجماعة. وتقول الجماعة عن بيت الروح المقدسة إنه "رغم نظر مئات الآلاف من البشر إليه ومعرفتهم به، يظل مكانًا لا يعرفه أحد ولم يسبر غوره إنسان، محجوب عن أعين هذا العالم الذي لا رب له إلى الأبد".

أما كتاب (Confessio) فلا يذكر الكثير بل يعطي شرحًا عامًا حول أهداف وشعائر هذا النظام، ويذكر الكتاب أن النظام الخاص بتلك الجماعة له رتب مختلفة، فلم يقتصر النظام على الأمراء والنبلاء والأثرياء، بل ضم إليه "أناسًا عاديين وغير ذوي الشأن" وحصلوا على مراتب ومواقع فيه شرط أن تكون نواياهم صافية طاهرة مجردة عن المصالح والأهواء. ويتكلم الكتاب عن النظام المعمول به في

الجماعة فيقول إن النظام كان يستخدم لغة سرية، واهتم بجمع الذهب والفضة وكنزهما قناطير مقنطرة بمقدار يفوق قدرة غيرهم على تحقيق مثله، ومع ذلك لم يكن همهم الأول هو تكوين الثروة، لكن الهدف هو تعميق فلسفة الإيثار وغرسها في النفوس.

ويصور لنا روبيرت فلود **R. Fludd** روح ذلك النظام في كتابه جماعة الصليب الوردي الإنجليزية إذ يقول: "نحن أرباب المعارف السرية نحيط أنفسنا بالغموض لنتجنب استهجان وإزعاج من يعتقدون بأننا لا يمكن أن نكون فلاسفة إلا إذا وضعنا معارفنا لتسيير شؤون دنيوية، وليس هناك من يعتقد بوجود جماعتنا؛ وهذا لأنه كما يقول، ومعه حق، لم يقابل أيًا منا، ويستنتج أن مثل هذه الأخوة ليس لها وجود، ولذلك لأننا، وفقًا لتفكيره الفارغ، لم نطلب منه أخوته لنا. أما نحن لم نكن لنأتي مثل هذا المورد، كما يتوقع، فنكون بهذه الدرجة من الجلاء والوضوح، التي يألفها هو نفسه ويتمناها ليثبت نظره علينا، وكذلك يفعل كل من ليس له عقل واعٍ ليدخل جماعتنا؛ فيا عجبي إن كان طموح الإنسان هو تلك التفاهة: وحتى إن حصل على أخوتنا سيقول: 'هذه أيضًا تفاهة!'".

وطبيعي في عصر تسود فيه السذاجة والغموض، أن يخلق كتاب مثل **(Fama Fraternitatis)** ضجة كبرى، وقد وضح ذلك عندما قدم مئات العلماء أنفسهم أعضاء بهذا النظام، منهم من كتب ومنهم من اتبع طريقة غير الكتابة، رغم عدم وجود عنوان واضح للعامة. لكن كل هؤلاء الراغبين في العضوية لم يجبهم أحد. وهناك دليل على أن مؤلف الأبحاث التي كُتبت عن جماعة الصليب الوردي هو جون فالانتاين أندريا **J. V. Andrea**، وهو كاهن مدينة فورتيمبيرج، وهو أيضًا شاعر وكاتب ساخر، ومن المعتقد أن السبب وراء كتاباته عن تلك الجماعة وإظهار أمرها على الملأ هو رغبته المخلصة النابعة من حزنه العميق على ما آلت إليه بلاده بعد حرب الثلاثين عامًا، وكانت رغبته تلك هي إزالة آثار تلك الحرب

وتبعاتها بتأسيس نظام كالذي ذكره في كتاب (**Fama**) مصححًا نقطة الضعف الفكري التي سادت عصره، ذلك النظام الذي يمثل الأمل في أن تكون المعرفة العقائدية هي مطمع المثقفين. ولم ينسب جون الكتب لنفسه، ولم يجب نداء المئات ممن رغبوا الدخول في هذا النظام، وقد فسر النقاد هذا التوجه بأنه قد كره المخطط الذي وضعه بنفسه.

لكن ذلك "التفسير" الأولي ليس كافيًا، ولا دليل عليه، ولم يقم اعتبارًا لحقيقة مؤكدة وهي أن أندريا لم ينف أنه كاتب تلك الكتب فحسب بل كان ممن يسفهون نظام الصليب الوردي ويرون أنه وهم. بل والأكثر من ذلك أنه كتب كتابًا بمثابة اعتراف بعنوان (**The Chemical Nuptials of Christian Rosycross**) وهو عرض كوميدي وساخر ينفي فيه مكانة جماعة الصليب الوردي، كما أنه من الواضح أن كتاب (**Universal Reformation**) مأخوذ من كتاب (**Raguaglio di Parnasso**) الذي كتبه بوكاليني **Bocalini**، الذي عانى في سبيل اعتقاده في عام ١٦١٣م.

وتسيطر على كتاب بوكاليني، الذي يعكس مضمونه كتابه الإصلاح العالمي (**Universal Reformation**)، روح الخرافة المتمثلة في الكلام المباشر عن الأمور الباطنة وانتقال المعتقدات والنواميس، كما أن ذلك الكتاب يستلهم أفكاره من الكتابات المقدسة القديمة مثل البيزنطية والجنوستية والكابلاستية. وعلى الرغم من اللمسة اللوثرية، فلا تجد فيه أي أثر تيوتوني، وهذا يوضح لمعارضي فكرة وجود جماعة الصليب الوردي أن المحاكاة الألمانية ليس لها أي أساس مقدس، بل أن النموذج الإيطالي منها ليس فيه ما يكفي للاستدلال على استلهامه الفكري من تلك المحاكاة. لقد كانت روما هي العدو اللدود لأي تعليم عقائدي، وهو التوجه الذي أدى بالمشتغلين بالأمور الدينية إلى الانحياز إلى معسكر اللوثرية المضاد. ولا يمكن تحدي النوايا الجادة لبوكاليني ومؤيديه نحو المعرفة الدينية، كما أن كتابه

يختلف اختلافًا طفيفًا عن الكتـــابات الألمانية حول جماعة الصليب الـــوردي، وليس أدل على أن كتابه قام على الواقع من تقدير ميلانيس نفسه لهذا الكتاب. وهذا يعيد فتح الباب ثانية للسؤال حول جماعة الصليب الوردي. ونذكر هنا أمرًا مهمًا وهو أن كتابات بوكاليني لم تتأثر فقط بالكتابات الكابيلاسية والجونستية، بل تأثر أيضًا، وهذا ما أراه، بشكل أو بآخر بالأسرار المصرية، ومن واقع الأفكار أرى أن ذلك أمر حقيقي أكثر منه احتمال.

وبالنسبة لتراجع وموت الأسرار، يقول هيكثورن **Heckethorn**: "لقد كان كل شيء في الأسرار قائم على أسس فلكية، لكن المعنى الأعمق كانت يختبئ تحت الرموز الفلكية. فمثلاً عندما نرى الحزن على فقدان الشمس، فإن ذلك معناه الحزن على فقدان النور الذي يهدي الحياة؛ كما أن عمل العناصر وفق قوانين الصلة الروحية هو إشارة إلى ظاهرة الموت والفناء. ونرى المتعبد الطامع إلى معرفة الأسرار يمر عبر المناطق تحت هيمنة المرأة المقيدة نايت إلى مناطق حرية المرأة الحرة صوفيا؛ حتى يذوب ذهنيًا في الآلهة، أي النور. إن عقائد الحكمة القديمة واضحة للعيان، لكن فهمها لا يكون إلا باستلهام الروح لها، فلم يكن جسد العلم هو ما يأخذه العابد، وإنما الروح الحية نفسها هي التي كانت تنفذ إليه. ولهذا السبب وهو أن الأسرار كانت تصل شفاهة لا كتابة تراجعت الأسرار ولم تبق طويلاً وأخذت في الانقراض شيئًا فشيئًا، ولعل أوقع الأمثلة على ذلك الصابئة والآركية. ولعل أقدس إشارات في الأسرار على اختلافها بالنسبة لمسألة الموت هي أن السعادة القصوى تكمن في فناء الوجود الجسدي- أي أن السعادة الكبرى هي دخول الجنة، وكانت تلك الإشارات تُفهم في طبيعتها الخارجية فقط، مما أدى إلى ظهور عقائد أو خرافات ملأت الأرض بالجريمة والعذاب والحروب والقسوة والفناء من كل نوع".

إذا تأملنا تلك الفقرة السابقة نجدها تنطوي على خطأ فادح، وعدم اتساق وإن كنت قد أوردتها في نهاية الفصل حتى تقدم تلخيصًا للحقائق التي صاحبت تحول الأسرار من شيء جلي واضح إلى سر خفي. ولعل الحقيقة تكمن في عبقرية الأسرار لكونها قائمة على التلقين الشفهي والاستلهام أكثر من أي صورة أخرى، والحقيقة أيضًا أن العجز عن فهم تلك المسألة ساعد بل وأسرع في اختفاء الأسرار وانسحابها من المعارف العامة.

الفصل الخامس عشر

دلالة طقوس الارتقاء

لعله آن الأوان الآن أن نحاول الوصول إلى خاتمة واستنتاج فيما يتعلق بفائدة الأسرار وما تنطوي عليه من دروس تلهم التصوف في عالمنا المعاصر. ويجب أن يتضح الأمر الآن، حتى لغير المهتمين أو غير المتخصصين، فعلى الرغم من أن كل تلك الأسرار تختبئ وراء ظاهريات المذاهب وأنظمة مختلف ديانات العالم، فإن الحقيقية من وراء تلك الأسرار خالدة بخلود الحياة، ولا يُلقاها إلا من يطلبها حثيثًا، فلن يذوق حلاوة الأسرار إلا من تهيأت روحه لاستيعابها، وإن كانت طريقة الوصول "شخصية" أو فردية متاحة للجميع.

إن كنا أكدنا على شيء في هذا الكتاب، فهو الحقيقة الواضحة بأن مظاهر طقوس الارتقاء ما هي إلا مداخل المعرفة الحقيقية للروح، وما الطقوس نفسها بالنسبة للمعرفة إلا "كآداب المائدة" بالنسبة للطعام، فهي توفر الرمزية للعملية وتطرح الهيبة والوقار على هذه الرمزية وهذه العبادات والشعائر كلها تأخذ نفس درجة الأهمية الروحية والداخلية، فهي سبيل ارتقاء، ويمكن كذلك أن تكون سبيل تدني. فالطقوس تعبر غالبًا عمّا لا يمكن التعبير عنه بالكلمات، ومن ثم تظهر مدى العجز البشري وما لديه من خطاب عن نقل وتوصيل تلك الأفكار السامية، ومع ذلك لا يمكن النظر إلى الطقوس على أنها فاعلة بنفسها ولها تأثير سحري أو خارق على روح المرتقي. ومرة أخرى فإن الارتقاء في حد ذاته لا يكشف أبدًا الحقيقة بكاملها. ولكن درجة الحقيقة التي لم يتم الكشف عنها تكون متمثلة في نسبة تقارن بالإمكانيات النفسية التي يمتلكها الشخص بشأن المحافظة على الأسرار.

ولعل طبيعة العقيدة التي تم الكشف عنها لمن هم في مرحلة الارتقاء في العديد من الأنظمة السرية الرئيسية عبر العصور تتمثل في القدرة الجدية واليقينية عن التعبير بصيغة واحدة على الرغم من تنوع الشعائر والخطابات والكلمات التي تصف هذه الأمور. ولكن كان يتم اعتبارها المدخل الرئيسي نحو حياة جديدة أو مجرد الرجوع إلى الحياة القديمة وأعني الرجوع إلى "الجنة" التي هبط منها الإنسان ومن ثم التوحد بالإله في ملكوت السماء الذي تركه الإنسان بسبب أفعاله. والعقيدة المركزية لكل هذه الأسرار تتمثل في الوجود المسبق وأعني الوجود المسبق المرتبط بالتناسخ والتقمص البعيد. ومن ثم فإن التفكير الغريزي هنا يعبر عن الوحي الفكري الذي يكون لدى الشخص الذي عاش في منزلة عالية ثم تدنى وهبط من هذه المنزلة العليا ومع ذلك فهو يهوى استعادة منزلته تلك. ويرغب كذلك في التوحد مع الإله أو الذوبان فيه أو الاتصال به. ويكفي أن يتسلح المرتقي بمعرفة الطريقة التي آلت به إلى ذلك العالم المادي والتعرف على الطرق التي تؤدي إلى به السمو والصعود إلى تلك المنزلة، وأعني بها الجنة، مرة أخرى. وفي معرض دراسة عدد من الأسرار المحددة فإنه يتم توجيهه بأنه يحمل على عاتقه الأخطاء البشرية من خلال انتهاكه الشخصي بعبارة أخرى فإن هذا الارتقاء الذي يتعرف عليه يمثل الخطوة الأولى في تقدم الحالة الروحية له.

قد يتم تقليل مراتب الارتقاء المتعددة، على الرغم من اختلافها وتعدد أنظمتها عبر تاريخ الإنسان، إلى ثلاثة وربما إلى أربعة، وهي مرتبة النشأة أو إعادة الميلاد والثبات أو "الهيام" الروحي أو نستطيع أن نسميها حداثة الروح من جديد أو صباها، والثالثة الاستعداد للحياة الجديدة وأخيرًا نصل إلى المرتبة التي تمثل عاقبة كل ذلك وهي الحياة الجديدة. وقد تكون كما رأينا فيما يتعلق بأسرار إيزيس حيث تكون مرحلة تمهيدية تهدف إلى حضانة الروح قبل إعادة الميلاد. وبعض العقائد مثل العقيدة الدوريدية لم يكن سوى رمزًا لثلاث عمليات ميلاد هي

الميلاد الطبيعي، والميلاد من حجرة الكاهن والميلاد من الزورق الصغير، وإن كان الاختلاف أكثر وضوحًا من الواقع. ولا يتم الارتقاء إلا عندما تترك الحياة المادية وراء ظهرك وتولد من جديد. ونستطيع أن نعبر عن المراتب الثلاثة على أنها التطهر، ثم نيل الكهانة ثم الوصول النوراني.

وهنا يجب أن نسأل هل تكفي طقوس الارتقاء في حد ذاتها لتحقيق الوصول النوراني؟ لا شك أن المعرفة الحقيقية قد نالها الكهنة المصريون واليونانيون. ومع ذلك فإن المعرفة وحدها لا تكفي دون أن يصاحبها تحول روحاني لروح الكاهن. وفي الحقيقة فإن الكاهن الحق هو نفسه من يرث المعرفة الحقيقية، وليس بكاهن من يكتفي أن يكون مجرد معلّم أو عارض لتلك الطقوس أو مجرد ناصح أو ملهم بها. ولا يمكن للكاهن بكلمة أو طقوس أن يحول طالب الكهانة إلى مرتقٍ ما لم تكمن في قلب طالب الكهانة نية صادقة ورغبة حقيقية. فالارتقاء فعل من أفعال الروح، أي فعل "سحري" للكنه المادي للإنسان، ذلك الإنسان الذي يتحرر من قيود الوجود، ولا يقيده جسد أو رغبة، ويعرف ماذا يريد، ويستجيب لأمر السماء، ويضع أمام ناظريه صورة المنقلب الأخير والنعيم المقيم. وهذا التوجه يشبه عقيدة الخلاص المسيحية من ناحية أنه لا يهم طول المدة ولا الشوق الذي تطرق فيه القوى العليا، وهي الرب الذي خلق الإنسان، على باب قلب عباده، إذ لن يتحقق الخلاص إلا إذا فتح الإنسان قلبه وشرح بالرب صدرًا.

ولكن قد يُقال إنه بمجرد تحقيق الارتقاء، يصبح من المستحيل على المرتقي أن ينقل الدلالات الكاملة لما وصل إليه إلى من هم بالخارج حتى وإن أراد. والكلمات والصيغ والعبارات التي قد يكشف عنها إن توجب ذلك تتمثل في تلك الأشياء المقبولة من الناحية العقلية ويجب أن يكون على وعي تام بها وإن حنث في قسمه مع الاحتفاظ بهذه الكلمات فلن يعني ذلك شيئًا لغير المرتقي وربما يرجع السبب ببساطة إلى أنه يجب أن يؤيد تلك الأحداث غير الأرضية والأحداث التي قد

تتم خارج نطاق المصطلحات المستخدمة أو بعيدًا عن المعرفة الدنيوية والإدراك. وبالفعل فإن معظم تلك الأسرار حين يتم نقلها أو دمجها مع روحه من خلال رسالة صامتة يكون بها الكثير من الرموز ولا يتم ذلك بالكلمات. ويتم إدراكها في الغالب من خلال الانعكاس والأفعال المكررة والتأمل أكثر من كونها مجرد وصول نوراني مباشر وفوري.

يجب التأكد من أنه لا يوجد بالأسرار ما يمكن للمتصوف التأمل فيه ذاتيًا أو شخصيًا معتمدًا على قوة ذكائه الخاص تمامًا كاكتشاف ثابت قد يحققه لنفسه فإن الحقائق الأساسية المتعلقة بالأدب الموحي والتي تظهر كنظام قد يبدو خارق للعادة للرجل العامل. وسوف يجد بعد فترة قصيرة أن الروح البشرية غير كاملة وأنه يفتقر كثيرًا إلى التنقيح والتعديل وإلى ضروريات التواصل مع القوى الخارقة للعادة وما لديه من أسباب مثل فعل الزواج والتوحد مع الإله وسيكتشف الطبعة العاجزة للروح وكذلك عوزها وسيكتشف في المقابل قوة المعرفة النورانية التي سرعان ما ستوضح له هذا السر. ولكنه يصل إلى أن الارتقاء بالذات ممكن إلى حد ما، فالروح وحدها هي التي مرت بأكثر من تجربة من تجارب الحلول والتجسيد.

إن مسألة هبوط الروح إلى الشكل المادي تعتبر واحدة من بين الأسرار الكبيرة الكامنة وراء الوجود البشري وكذلك مسألة صعود الروح إلى العوالم غير المادية. وتمثل هاتان المعادلتان الرمزيتان حالات الموت وإعادة الميلاد والتجسيد والتي مثلتهما الأسرار من قبل. وقد يعتبرها البعض أسطورة عن العصور التي لا نعلم الكثير عنها ويعتنقها كل المؤمنين بعوالم الأسرار. لكنها بالفعل تمثل التميز الفكري والنفسي للإله عندما لا تقوم الروح بسرد الأساطير حولها ولكن من خلال الحيلة والبصيرة للانتباه والغريزة الروحية والتوصل إلى معرفة الحقيقة فيما يتعلق بالنشأة الفعلية وواقعية الوجود. فالارتقاء بمثابة رواية أو إحساس بعودة اليقظة فهي إشارة رمزية توعز للضمير حاجته إلى التوحد بالإله.

وبالارتقاء لا يتحصل المرء إلا على ما يجب أن يتحصل عليه. وقد يبدو ذلك فجًا وقاسيًا أن يتضمن البيان أن تكون الحقيقة واضحة أو كاملة كما قد تبدو أنها ليست ذات قيمة أو عميقة التفكير بمعنى أن تكون سطحية وأن تميل إلى النزعات الشخصية للأفراد وبطريقة واحدة فقط: قد تبدو أن الأسرار المصرية واليونانية والمسيحية تتعارض مع بعضها البعض وأعني الإله والجنة الكاملة إلاّ أنها قد تبدو متشابهة إلى حد ما في أنها تضع على الحقيقة أنواعًا مختلفة من العبادات التي يجب القيام بها وتنفيذها داخل المعبد فقط والذي وُجد قبل بدء العالم، وما الديانات الحديثة والقديمة إلا كطريق ممهد بحجارة قديمة. وليس هناك قوى غير ضرورية من السحر وأنها قد تبدو مجرد إمكانيات غير علمية يتحصل عليها الشخص ليصير خبيرًا وماهرًا وغنيًا وساحرًا مدى الحياة وأن تتكون لديه القدرة على استخدام قواه هذه ببراعة. وقد توجد بالفعل علامات مميزة عن الروح التافهة والبلهاء تعبث بحدود المعابد وهي فاسدة من الداخل. والأسرار الحقيقية التي ترتبط بالإله معروفة ويمكن التعرف عليها وتكون مليئة بالمتعة التي يتم التحصل عليها نتيجة السعي الحثيث إلى تلك المعرفة عن الحياة السائدة المنتشرة قبل ذلك قبل الروح والبهجة المتناغمة والتوازن الغالب لليقين والثقة.

وبعيدًا عن ظلمة اليقين الأساسي الشخصي فكل ما نسعى خلفه يتمثل في ظهور ونشأة الأسرار وسموها الشامل على أساس تمام العدالة الإلهية مثل تأكيد بوروكلس لنا على أن الأسرار القديمة هي أول من تعرف على الطرق المنهجيات والطرق الشائعة حتى يتم إحضار المتعلمين للأسرار في النهاية وجها لوجه مع الإلوهية الجوهرية. ويخبرنا كذلك أن الروح تشاهد أولاً ظلال وصور الأشياء ولكنها تعود إليه وتدرك بالتدريج جوهرها الشخصي وتلاحظه. وترى العقل والوجود الإلهي بعد ذلك لتصبح في النهاية مرتبطة تمامًا به. وعلى هذا فإن عددًا

محددًا من الكتاب يعتقدون بحتمية الفحص الدقيق والمركز للنشأة التي تزيد من عمق الإيمان المباشر والإيحاء الروحي المعروف لكل الشعراء الحقيقيين وعندما يصبح "الفكر" غير مجبر على شيء فإنه يكون حينها فطريًا وطبيعيًا.

وقد يكون التطهر الأولي الذي يحظى به الكاهن المبتدئ نوعًا من التحفيز والحث على الوصول إلى هذه الحالة كما نعتقد أن طريق الأسرار يحتوي على استخدام العطور والأبخرة وغيرها والحالة شبه النائمة أو حالة الغشية تلك. ويتبع هذا بالطبع الهبوط إلى هاديس أو مثوى الأموات ذلك الهبوط الذي يرمز إلى الرعب في الحالة الجديدة التي يعيشها المتصوف العابد، وهذه الحالة هي التي تسبق الذهاب إلى الرياض الإليوزينية حيث الجنة والنعيم. وأرى، من خلال الأدلة التي ذكرناها سابقًا وجُمعت من عدة مصادر، أن كل الوسائل المتمثلة في الإيحاء والنباتات المخدرة كان يتم توظيفهما معًا لصالح الأسرار كما يتضح التلميح إلى مراتب الارتقاء إلاّ أنني لن أؤكد على هذه النقطة تحديدًا حيث يجب أن يكون واضحًا أن الممارسة قد تتعارض في حالة الأفراد ممن يتمتعون ببعض الخواص ويحتاجون إلى التعرف بشكل أفضل على الرهبان.

ولكن قد تجد بعض أشياء مرفقة وموضحة بالأسرار الأقل أهمية. ولعل أساس الكشف بالأسرار الكبرى يتمثل في التفكير حيث تكون الصورة نموذج أصلي للطبيعة الشاملة التي يتم الكشف عنها. والتأمل والتوحد مع الذات العليا. وبذلك قد يمكننا التعرف على أن الشعائر والعبادات بها القليل من المراحل العالية النقية تمامًا والخاصة بالشخصية ذات الخصائص الروحية المتميزة. ولا نستطيع أن نجد الكلمات التي نعبر بها عن هذه الأشياء حق التعبير، في أشياء لا يدركها سمع ولا بصر. وهنا تنتهي الفكرة ويظهر السحر الحقيقي كفعل مباشر يبدأ من العقل. وبالنسبة للسحر فإن السحر الحقيقي هو ما ينبع من قلب الإيمان والتفكير في الأسرار. وإننا نعلم أن الحياة هي الأخرى غامضة والطريقة التي نعيش بها

غامضة كما لو كانت حياة وطريقة من السحر، سحر الافتتان والكشف غير الحقيقي والذي هو أكثر واقعية من الأشياء الحقيقية للنشوة وهو أعلى تناغمًا في حيث أنه يصيب بنشوته ويذكر ويعبر عن الحياة مع الإله. والفنان الحقيقي هو صاحب الأسرار الغامضة الذي يصبر نفسه على ما هو في مرتبة أعلى وأكثر نبلاً مما يعتقد الجميع لذا فإنه في النهاية يعتبر فنانًا حيث يخترق عوالم الفوضى والحرص والرعب من الإنسان الأبسط ويرجع ذلك ببساطة إلى أنه يملك زينة النشوى التي يسعى خلفها العالم من خلال البعد عن البهرجة والأبهة الفارغة من المتعة الكاذبة بدلاً من الأشياء الكاذبة للمساحة الروحية والعلو الناتج عن الالتزام الحقيقي بمنازل الروح لا الجسد.

ومن خلال ما تعرفت عليه ما هو في وجهة نظرك ما سوف تتعلمه في هذا التدريب على الحياة خلاف الموازنة الضرورية والمنهجية التي يمكن تطبيقها في أي مكان؟ في الحقيقية يعتبر هذا العالم مكانًا يقوم فيه الإنسان بالبناء والتجهيز واختبار هذه القوارب المجنحة التي سوف تتعامل معه وتنقله إلى الخلود. وإن أخفق في هذا الأمر وهذه المهمة فسوف يعود مرة أخرى بالتأكيد إلى مشهد العناء والكَبد. وقد تناولنا هذه العملية بالإيضاح والوصف كما لو أنها عقوبة أو جزاء أو ثواب أو شيء من هذا القبيل. وهي مجرد تعبير عن المعرفة الذاتية للمحاولات الإلهية لمعذرة الذات من خلال العديد من التجارب في ثنايا الوقت والفضاء وإرسال الأجسام المعمرة لاستكمال العوالم الخاصة وتحقيق النصر والعودة إلى الوطن مرة أخرى لاكتساب قوة جديدة من المصادر الأساسية.

لذا صار من الضروري العمل في هذا الاتجاه حتى النهاية الروحية الخاصة تلك من خلال التوقع الإلهي الثابت وحتى المسافة التي تثير حفيظة المتحفظين وهي الثواب في قلب الجنة. وكلما تواجد التفكير والتحقيق وقل الارتباك العقلي والبدني، يزيد ارتباك القلب والعقل والروح للمحافظة من خلال الفهم المستغرق للحقيقة

الواحدة والرغبة الملحة – التوحد مع الإله. وهذه هي الطريقة الوحيدة والأساسية التي يمكن التعامل معها. وهي مفتوحة تمامًا له من خلال العديد من الممرات الملاصقة والقائمة وراء الأسرار والأديان حول العالم ولكنها تكون على الأقل ممرات متروكة على الرغم من أن بعضهم يعتبر من بين المهام المظلمة والمبهمة اليقينية، ومن غير شك فهو دين المستقبل وجوهر وأساس كل الأنشطة التي تقف وراء العقائد والمبادئ الخاصة بكل الأديان. فمن يُخلص في اتباع عقيدته الأصلية ويؤدي واجبه تجاه الكنيسة على النحو الذي ينبغي فإنه ينال دخان النار المقدسة وقليل من الضوء ويفرح به وغالبا ما يفقد نشوة المعرفة والتعلم ووهج التعلم وهو في شك وحيرة وهو يفقد أمل ونور الإيمان واليقين.

وعلاوة على ذلك فإن الأهمية الحقيقية للاتحاد مع الإله تتكرر كثيرًا بشكل قد يساء فهمه خاصة من أولئك الأشخاص ممن يرهبون من باب المصادفة طبيعة التحكم النفسي. كما أن الروح البشرية لم تكن يومًا بكاملها بعيدة عن التواصل مع السماء، مع أن شخصيتها الأساسية تترجمها بشكل أبسط وأسهل على الفهم أسهل من تكبد عناء المحاولة على الرغم من العقيدة الشريرة، التي تقول بأن قلب الإنسان "شرير وبائس" والتي، على ما اعتقد أنها مزينة وأغرت العديد من البشر إلى سبيل الغي بدلاً من سبيل نيل النعم. وهذا قول متشائم صادر عن الاستعلاء المستند إلى افتراض حرمان الإنسان ذلك الحرمان الذي جعل منه حساسًا وذا عقلية منعزلة عن النبل الحقيقي للعقل العام الذي يظهر بوضوح في ثنايا كل واحد منا.

وتضجر النفس البشرية من إخبارها بأنها شريرة، بينما هي نفس صالحة في مجملها، وتسعى متلمسة طريقها وسط الضباب لتصل إلى النور. ومن يلومها إن هي أنهكت يُلقي عليها باللائمة ويغفل الجانب المضيء منها ولم يعرف بالتأكيد روح النشوة.

ولا شك أن الشعور بالتبعية الذي يلازمك مع الإله يمثل أولى الخطوات الهامة في فهم أن الاتحاد مع الإله قد بدأ. ولكنني متأكد تمامًا من أن ذلك لا يشير إلى التحقيق الكامل لهذا التوحد مع الإله. وهو كما أعتقد تعبير مسبق وتمهيد للارتقاء الذي ينتهي إلى التوحد المنشود مع الإله وهو أمر ينمو ويتقدم كما ينمو التعبير والارتقاء من خلال الأفعال المتتالية للروح. وتقوي الروح من الداخل لتحلق في الآفاق وتمتد الرحلة لتصير أطول وأطول. ويضيء النور باستمرار ويدفع الشخص لاستخدام هذا النور والاهتداء به. ويجب أن تكون هناك استمرارية وحالات كشف متجددة في كل الأماكن والخبرة المكتسبة في هذه الناحية كما يجب أن يتم الحفاظ عليها وادخارها حيث أنها تمثل القوة الجديدة للبدء الجديد والاستمرار في التحليق.

ومع ذلك يتعين على الكاهن أن يُترك ليفهم ويعرف أن الأسرار هي أسرار أرضية. والنية الكاملة تكون التقدم من الطريق الفاني هذا إلى طريق الخلود، وبناء على ذلك فإنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يتعلق بالأسرار الإلهية التي يشيعها الإنسان ولكن لا يمكن أن يتصور الطبيعة أو السعادة ذاتها. والأسرار باختصار تكشف السر الجديد الدفين وبذلك يجب أن يتابع التقدم إلى ما هو أبعد من إدراك الإنسان.

هل يمكن أن نتعرف على أهمية الأسرار الموجودة في كتب الأساطير التي تناقش أهمية ذلك النمو العادي؟ قيل إنه لا يمكننا بأي شكل أن نتطلع إلى مد يد المساعدة إلى الأنظمة الخطابية التي تغرس في الذهن الحقائق البسيطة والمسلم بها. ولكنني قد أحذر هنا لضمان أن الأشياء التي نريدها غير قابلة للمقارنة أو الصياغة النظرية، وأن الأسرار التي وجدت مدفونة مع الموتى قد لا تكون على هذا النحو المؤثر ببساطة وذلك لأن السبب الذي بنيت عليه هذه الأشياء إنما هو الموت، فما هي إلا ثمرة الأنظمة القديمة للتفكير والتي تنتج ذلك وتتعرف على جوهرها

والتحسن الروحي لها. وهي ليست فقط في الطريق المباشر من الرواية ولكن (وهذه هي النقطة الأساسية) تعتبر جزءًا من هذه الرواية والجزء القوي الذي بنيت عليها هذه الرواية وهي تدور حول الحكمة وتجاهل أو محاولة نسيان الأمر حيث قد يتم نسيان أو محاولة التعرف على التأسيس التالي لنشأة الجزيرة المرجانية.

وهذا سبب اعتقادي بالأسرار المصرية وفي أنها تتعرف عليها وتصفها وهي كلها تكشف النموذج العصري الغامض. كما أنها تشكل للمرة الأولى تاريخ الكيان الرسمي والمعقول للممارسة والإيمان الغامض. والغرض من الارتقاء هو المحاولة التقليدية لإدراك مكان الإنسان في الكون وبالنظام الإلهي للأشياء وأعتقد أن النظام المصري للأسرار قد تحقق للمرة الأولى بطريقة فلسفية ومنظمة. ودلالة تلك الأسرار ودروسها أمور أساسية لا يمكن أن نغض الطرف عنها.

إن الموقف الجامد الذي يتبناه غالبية الأوروبيين تجاه الجانب الأعمق من أسرار الوجود الروحي يمثل خطرًا كبيرًا على الجنس الأوروبي الذي قسمه العلماء إلى جنس آري وآخر قوقازي. وبالاستيلاء الجشع على القشور المادية، فقد سمحت لنفسها بتجاهل ثروات الروح النفيسة التي لا تقدر بثمن؛ وموقفها- الذي لا يتجلد بالصبر في التعامل مع الروحانيات والأهمية المطلقة للترف العنصري والفردي- يجب أن يكون وبلا شك مصدر للقلق الشديد في صدور الرجال والنساء بشأن تلك الشخصية المثيرة. بل ويمكن، في أي وقت من الأوقات، إثارة هذه الجزر المحببة إلينا، بما فيها تلك الأمريكية، إثارة كبيرة للحاجة الشديدة إلى تأمل الأمور التي تعني الكثير لمصدر العالم الضجر والذي استنفد كل سبل العاطفة.

إضافة إلى القرون العديدة الذي حفظتها معالم العالم القديم الذي خلا قليلا من العجلة المتهورة تجاه السماء مما يتبين لنا أن الدروس التي تُعرف بها يجب أن تكون واضحة وأن تُراعى بشيءٍ من الاهتمام من جانب الجنس الناطق بالإنجليزية

والمعني بشكل خاص بالسلام العالمي وبإدارة شئون دول الشرق القديمة ذات التراث الكبير والذي يشمل حكمة مصر. فهل نحن لا ندرك أنه بسبب نقص الاعتبار وللسعي الروحي وراء التعويض المادي، فإننا نفقد الكنز الكبير والعظيم الذي وهبنا العالم إياه؟.

وذلك مما يتضح ويعبر عنه على نحو ضعيف، باستثناء الكلمات الجادة. فالدولة - أي الإمبراطورية التي لا يمكنها تحمل عبء فحص المشكلات الكبيرة للوجود المادي والتي تغلف في أشياء مادية وممتعة، والتي لا يتم تأسيسها في الحقيقة اليقينية الثابتة، حيث يعتقد من يدافعون عنها أن الحكمة تستند إلى الحقيقة المادية والتي ليس لها على الأقل تأثير أو رغبة نحو الارتقاء الروحي- تضع نفسها في الحقيقة في موقف خطر. كل ذلك إلى جانب السؤال للاحتجاج بأنه سرعان ما تكون الدولة قادرة على التباهي بالآخرين أكثر من المقارنة الصغيرة للأرواح المثيرة ضمن الكيان السياسي لسبب بسيط يتمثل في أن الجنس الخاص بنا قد زاد على نحو كبير الآن من فرص الوعي التي تعبر عنها الحكمة البالغة في أنها مرغوبة وقد يتم تجاهلها.

"يهلك الناس مع غياب الرؤية". أعيد فأكرر هذه الكلمات مرة أخرى لأنها أفصح ما يدل على الموقف. فأنا على يقين من أنه لا يوجد فرد يستطيع أن يحيا حياة آمنة دون التأمل ولو بشكل قليل جدًا في الأشياء الخفية والسماوية، لذا فإنني مقتنع تمامًا بأنه ليست هناك أمة تتجاهل في الأساس هذه الأمور يمكن أن تكون آمنة من حيث تحقيق العدالة والنبل والشموخ. فكيف كان حال مصر كإمبراطورية خلال فترة الخمسة آلاف سنة بنظرة هادئة ومحايدة وواضحة وتأمل جيد ومناسب للسماء. فلم يكن هناك شعب تقي ومؤمن وقانع بما هو فيه مثل أهلها، وليست السيطرة الأوروبية للنوع الأدنى المعروف. والتصوف الواضح الجدلي يتمثل في

كونها مرتبكة. وبالتالي ألا يوجد لدينا ما نتعلمه من دروس من الحضارة المصرية؟ فهي لا تزال خالدة وباقية إلى الأبد وتظل هي الأعظم في العالم وتظل المعـــرفة والتبحر في هذه الأفكار والعلوم وحدها هي التي قد تعطي للإنسان صورة الإله.

المؤلف في سطور

ـ لويس سبينس:

(٢٥ نوفمبر 1874 – ٣ مارس 1955)

صحفي أسكتلندي، برز نجمه في الفولكلور الأسكتلندي أكثر من كونه شاعرًا. بعد تخرجه في جامعة أدنبره، عمل في مجال الصحافة. وفي عام ١٨٩٩ تزوج من السيدة هيلين بروس. ثم عمل محررًا في مجلة أسكتلندا (١٨٩٩-١٩٠٦)، ومجلة أدنبره لمدة سنة (١٩٠٤-١٩٠٥)، ثم محررًا في ويكلي البريطانية (١٩٠٦-١٩٠٩). وفي ذلك الوقت اهتم أيما اهتمام بالتراث الشعبي للمكسيك وأمريكا الوسطى، وكان سببًا في تأليف كتاب " **the Mayan Popul Vuh, the sacred book of the Quiché Mayas (1908)**"، ثم كتاب **"A Dictionary of Mythology (1910)"**.

تبحر في أساطير وثقافة العالم الجديد، إلى جانب دراسته لثقافات أوروبا الغربية وشمال غرب أفريقيا، ونظمه للشعر، وهو ما جمع في عام ١٩٥٣.

ونشر له على مدار حياته المهنية الطويلة أكثر من أربعين كتابا. وكان سبينس مؤسس الحركة الوطنية الأسكتلندية التي اندمجت لاحقا لتشكل حزب أسكتلندا الوطني، والذي أطلق عليه فيما بعد اسم الحزب الوطني الأسكتلندي.

من أعماله:

- Ancient Egyptian Myths and Legends
- The Myths of the North American Indians
- The Magic Arts in Celtic Britain
- Introduction to Mythology Myths and Legends (Myths and Legends Series)
- Illustrated Guide to Egyptian Mythology
- The Magic and Mysteries of Mexico; The Arcane Secrets and Occult Lore
- The outlines of mythology

المترجم في سطور

ـ علي أمين علي:

- مترجم مصري حر.
- تخرج في قسم اللغة الإنجليزية، كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر.
- صاحب ترجمة كتاب "الأجندة الخفية للعولمة" تأليف دينيس سميث. وشارك في ترجمة العديد من الكتب من وإلى اللغة الإنجليزية: كتاب "الإتيكيت في الإسلام" تأليف الدكتورة ماجدة عامر، وكتاب "فتاوى من أجل فلسطين" للدكتور يوسف القرضاوي، وكتاب "الزكاة" الصادر عن مؤسسة الفلاح للترجمة والنشر.

المراجع في سطور

- علاء شاهين:

عميد كلية الآثار وأستاذ تاريخ وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم – جامعة القاهرة.

التصحيح اللغوى: لوتس على عمر

الإشراف الفنى: حسن كامل